محمد حسين هيكل

أديبا
وناقدا
ومفكرا إسلاميا

د. إبراهيم عوض

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

مكتبة زهراء الشرق

١١٦ محمد فريد - القاهرة

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

محمد حسين هيكل

أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

رقم الإيداع ٣٠١٤ /١٩٩٨
الترقيم الدولى
٩٧٧ - ٥٧٨٥ - ٠٣ - ٩

محمد حسين هيكل

أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا

د. إبراهيم عوض

www.books4all.net

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

مكتبة زهراء الشرق

١١٦ محمد فريد - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

رغم المكانة العالية التى يشغلها د. محمد حسين هيكل ، رحمه الله ، فى تاريخ الأدب والفكر العربى المعاصر فإن الدراسات التى تتناوله بوصفه أديبًا أو ناقدًا أو مفكرًا إسلاميًا هى من القلة بمكان. وقد حدانى ذلك إلى وضع هذه الدراسة التى بين يدى القارئ الكريم راجيا أن تسدد بعضا من الدين الذى لهذا الأديب والمفكر الكبير فى أعناقنا نحن العرب والمسلمين .

وتدور هذه الدراسة أولا حول هيكل الأديب فتعرض ليومياته الممتعة التى كتبها فى عز شبابه عندما كان يطلب العلم فى باريس وتحللها تحليلا شديد التفصيل بغية التعرف على ما كان يدور فى قلبه وعقله فى تلك الفترة الحساسة من حياته ، كما تعرض لرحلاته فى الأرض شرقًا وغربًا ، تلك الرحلات التى بلغ فيها أسلوبه قمة عالية فى الجمال والإمتاع ، وكذلك لروايتيه اللتين افتتح واختتم بهما حياته الأدبية . أما هيكل الناقد فقد اعتمدت فى بحثه فى المقام الأول على الدراسات التى وضعها عن شعراء الإحياء الثلاثة : البارودى وشوقى وحافظ وأبرزت منهجه الذى انتهجه فى كتاباته النقدية . أما بالنسبة لهيكل المفكر الإسلامى فقد خلف لنا عددا من الكتب الهامة عن الرسول عليه الصلاة والسلام وخلفائه الثلاثة الأوائل عليهم رضوان الله ، وكذلك عن تاريخ الإمبراطورية

الإسلامية وما اعتورها من عوامل القوة والاضمحلال .

ويطالع القارئ فى هذه الدراسة عدة قضايا مثيرة تتصل بأدب هيكل وفكره ، مثل الزعم بأن الآثار التى تحمل اسمه ليست من إبداعه بل من إبداع آخرين كتبوها له وتركوه يضع اسمه عليها ، ومثل الخصائص الأسلوبية التى تميز كتاباته عن كتابات غيره من الأدباء والمفكرين وتجعل لها نكهة خاصة ، وكذلك موقع « زينب » على خريطة الرواية المصرية ... إلخ .

ولا بد أن اصارح القارئ بأنى قد وجدت لذة عظيمة وأنا أعيد قراءة ما كتبه هيكل ، ووجدت لذة أعظم وأنا أكتب عنه هذه الفصول التى أرجو أن تكون بمثابة تحية له وإجلال فى مثواه الأخير، مع دعاء للمولى سبحانه أن يفيض عليه شآبيب رحمته وغفرانه . إنه نعم المجيب .

مذكرات الشباب

كنت أعرف أن للدكتور هيكل ، رحمه الله ، كتاباً عن الفترة التى قضاها فى فرنسا طالبا يدرس للحصول على درجة الدكتوراه فى القانون (أو درجة « الدكتوريّة » كما كان المرحوم محمد خليفة التونسى يقول) بعنوان « يوميات باريس » ، وذلك من ثَبَت مؤلفاته الموجود فى أحد كتبه التى نشرتها له مكتبة النهضة المصرية فى الستينات ، إذ جاء فيه أن تلك المذكرات « تحت الطبع » ، مما دفعنى إلى الاتصال بأصحاب المكتبة المذكورة للحصول على نسخة من تلك المذكرات لحاجتى إليها فى البحث الذى كنت أُعِدّه آنذاك لاحتفالية المجلس الأعلى للثقافة الخاصة بالدكتور هيكل بمناسبة مرور أربعين عاما على وفاته ، لكنهم أكدوا لى أن الكتاب لم يُطْبَع لأن ورثة المؤلف لم يوافوهم به كما كان متفقا عليه ، وهو ما أسفت له أشد الأسف ، إذ كنت مَشُوقا إلى أن أعرف ما الذى قاله الدكتور هيكل عن الحضارة الغربية فى أول احتكاك له بها وفى تلك الفترة المبكرة من حياته . ومن هنا كان فرحى عارماً عندما رأيت كتاب « مذكرات الشباب » بين الكتب المعروضة فى مكتبة القاهرة الكبرى أمام القاعة المخصصة للاحتفالية المذكورة بمناسبة هذه الاحتفالية ذاتها ، وقدّرت أن تكون « مذكرات الشباب» هذه هى « يوميات باريس » التى كنت أبحث عنها . وقد

صدق ظنى ، إذ كانت « المذكرات » هى فعلاً « اليوميات » ولكن مضافا إليها بعض المقالات والكتابات الأخرى التى يرجع معظمها إلى نفس الفترة التى كتب فيها هيكل يومياته تلك .

وهذه المذكرات هى من منشورات « المجلس الأعلى للثقافة » ، الذى أتاح بإصدارها فرصة ذهبية للباحثين لكى ينقّبوا ويبحثوا فى تلك المرحلة الخِصْبة من حياة الدكتور هيكل لمعرفة تطوره الفكرى والروحى آنذاك والمؤثرات الثقافية والحضارية التى كانت وراء ذلك التطور ، وكذلك الأحداث الهامة التى وقعت له والكيفية التى تصرف بها إزاءها . ولقد كان اهتمامى بالاطلاع على هذه المذكرات شديداً لسبب إضافى شخصى ، فقد مررت بالتجربة الأوروبية التى مرّ بها هيكل ، وإن كانت المسافة الزمنية التى تفصل بين التجربتين تتجاوز الستين عاماً ، إذ سافرت للحصول على درجة الدكتورية فى النقد الأدبى من جامعة أكسفورد سنة ١٩٧٦م ، فأحببت أن أعرف كيف واجه د. هيكل المشكلات التى يواجهها كل من مرّ بهذه التجربة من غربة وتعلّم لغة جديدة واحتكاك بمجتمع يختلف تماماً عن المجتمع الذى وفدنا منه فى كل شىء : فى الدين والعادات والتقاليد والذوق واللّغة والمناخ والعمارة ... إلخ. وهو فوق ذلك مجتمع كان بيننا وبين أهله صدام عسكرى وحضارى فى يوم من الأيام غير بعيد .

ومن هنا فما إن انتهت الاحتفالية الهيكلية وأفقتُ من غمراتها حتى عكفت على مذكرات الدكتور هيكل ، التى لم تخلف ظنى وأمدّتنى بقدر هائل من المتعة العقلية والفنية رغم ركاكة الأسلوب فى بعض الأحيان ، وهو أمر طبيعى لأن الدكتور هيكل كان لا يزال ساعتئذ كاتبا مبتدئًا لم تثبت يده بعدُ فى عالم التأليف ، مما جعل العبارة تضطرب فى غير قليل من المواضع وساقه إلى الوقوع فى كثير من الغلطات اللغوية التى تنزّهت مؤلفاتـه عنها إلى حد كبير فيما بعد .

وفى الأيام الأولى من إقامته بباريس نجد هيكل يشكو من لواعج الحنين إلى مصر ، فقد كتب فى السابع عشر من يوليو سنة ١٩٠٩م ، وكان قد ترك مصر منذ عشرة أيام فقط ووصل باريس منذ ثلاثة أيام : « ثلاثة أيام فى عالم الوحدة والوحشة والأحزان طوال . أرى كل يوم مصريين فأتعزى بهم بعض الشىء عن ألمى وأجد فيهم ذكر بلادى البعيدة النائية . ولكن هيهات القلب الذى يحس معى أو يألم لما أنا فيه » (١) ، « كم بينى وبين أهلى فى هذه الساعة ! هم هناك بعيدون ، وقد يكونون مهمومين لأمرى ، وأنا جالس منفرد

---

(١) محمد حسين هيكل / مذكرات الشباب / المجلس الأعلى للثقافة / ١٩٩٦م / ٢٣ .

يقطعني الهم ويتمشى اليأس إلى نفسي، وما عرف إليها من قبل سبيلا »[١] ، « قمنا من القهوة ورجعت إلى الدار وأخذت طعامي وأنا صامت لا أدري ماذا أقول لأكون مع هذا الجمع الطويل العريض الذي يحكي عما رأى وعن المخازن[٢] وما فيها والأقمشة والأثواب وكل ما لا أفهم من شأنه لا قليلا ولا كثيرا . ثم انتقلت إلى غرفتي وإلى الوحدة المطلقة حيث لا يعلم أحد بالزفرات التي أصعّد ولا يهتم إنسان بآلامي ، حيث أنا الآن مفرد ليس لي على الأرض التي أسكن أهل ولا صديق »[٣] .

وفي الثاني عشر من نوفمبر من العام ذاته نقرأ أنه ذهب مع زميل مصري لسماع بعض الأسطوانات الغنائية المصرية على الفونوغراف في أحد الدكاكين الباريسية تلطيفا للواعج هذا الحنين : « وكم كان لهذه النغمات المصرية أثر على قلوبنا المصرية في هذا الوسط الباريسي ... في هذه اللحظات ينسى الإنسان نفسه والمحيطات به ويعيش في مصر بمقدار ما تسمح له آذانه »[٤] .

وقد كان حاجز اللغة سبباً في ازدياد هذا الإحساس بالوحشة

---

(١) ص / ٢٤ .

(٢) يقصد المحلات الكبرى .

(٣) ص / ٢٥ .

(٤) ص / ١٠٥ .

فى أيامه الأولى بباريس ، إذ لم يكن قد تعلم الفرنسية بعد [١] . ومع أنه وبعض زملائه قد اتفقوا مع أستاذ من أساتذة اللغة الفرنسية على تعليمهم إياها فإن الطريقة العقيمة التى كان يعلمهم بها ذلك الرجل وإحساس هيكل أنه قد رجع القهقرى وأخذ يتعلم كالأطفال مبادئ اللغة بعد أن كان فى مصر يقرأ الكتب العميقة بالعربية والإنجليزية بكل سهولة قد جعلاه يشعر بالإحباط والضيق إلى حدّ التفكير فى ترك فرنسا والذهاب إلى إنجلترا لإتمام دراسته هناك بجامعة أكسفورد [٢] .

وبمناسبة الحديث عن الإنجليزية فلعلّ من المفيد والطريف معاً أن نعرف رأيه فى تلك اللغة ، إذ قال إنه كان يعتقد مثل الكثيرين أنها « مثال التنافر » ، إلا أنه عندما سمعها من فم سيدة إنجليزية صديقة لأحد معارفه المصريين وجدها «ترنّ كأنها نغمات الموسيقى» برغم شعر المرأة الأبيض ووجهها الذى بدأت تغزوه التجاعيد [٣] . كما أنه قد لاحظ ما لاحظته أنا أيضا فى بداية إقامتى فى بريطانيا من أن الإنجليز لا يكادون يفتحون أفواههم عندما

---

(١) ص / ٢١ .

(٢) ص / ٣٠ .

(٣) ص / ٣٥ .

يتكلمون ، مما جعله لا يفهم شيئا مما يقولون [١] .

كذلك لفت نظرى فى الصفحات التى يصف فيها رحلة سفره البحرية من مصر إلى فرنسا كثرةُ الشحاذين فى ناپولى ، حيث توقفت الباخرة لبعض الوقت قبل أن تستأنف طريقها ثانية ، مما يذكّرنا بشحاذينا الذين يشكو منهم السائحون مرّ الشكوى ويجعلنا نتساءل : هل من المعقول أن إيطاليا ، التى كانت بلدا استعماريا فى ذلك الوقت ، كانت تعجّ بالشحاذين على هذا النحو آنئذ ؟ وكذلك هل من المعقول أن تكون عربات الحوذية المصطفة خارج الميناء بالقذارة والهلهلة اللتين وصفهما هيكل حيث قال : « ألقت الباخرة رواسيها ونزلنا المدينة مع دليل يعرف العربية ساقته الصدفة . فبعد أن طردنا شرذمة من الأولاد الذين أحاطوا بنا يطلبون إحسانا باسم المكرونة اخترنا عربتين من بين كثير مصطفة على جانبى الطريق . عربات متسعة لا تضيق الواحدة منها بخمسة أشخاص أو ستة لكنها قديمة بالية مقطوع جوفها قذرة داخلها وخارجها . فلما كنا عندها اتجهت إلينا أنظار الحوذية وهم جميعا وقوف إلى جانب خيولهم المشتغل بعضها بطعامه والآخر يدفع الطير [٢]

---

(١) ص / ١٤٥ . وهذا مذكور فيما دونه من مذكرات فى ٢٦ مارس سنة ١٩١٠م عندما كان يزور نيس ومونت كارلو والريڤييرا .

(٢) أعتقد أنه يقصد بـ « الطير » هنا « الذباب » جريًا على لغة أهل الريف .

عن جسده » ؟ (١) والجواب : نعم ، معقول ونصف وإلا ما ذكره الدكتور هيكل ، الذى وصف أشياء أخرى مثل هذه شاهدها فى بعض بلاد أوروبا الشرقية حين زارها فى العشرينات برفقة زوجته . ويستطيع القارئ أن يطلع على ذلك فى كتاب « ولدى » ، الذى سجل فيه كاتبنا مشاهداته وتجاربه فى الرحلة التى قام بها مع رفيقة عمره غبّ وفاة ولدهما الوحيد آنذاك « ممدوح » . وعندما مرّ بتورين بعد ذلك بنحو سنتين كان أشد ما لفت نظره فيها كثرة المقاهى وبائعى الشربات فى الشارع والتراب والذباب ، بالضبط كما فى القاهرة الآن (٢).

وعند وصوله بعد ذلك إلى باريس نجده يعبّر عن شعوره بما يشبه خيبة الأمل ، إذ كان قد سمع فى مصر عن العاصمة الفرنسية الأعاجيب ، فلما رآها لم يجدها كما حكى له عنها الحاكون . قال: « باريس . كم حكى لنا عنها الحاكون حتى تصورتُ بيوتها بلورا أو ذهبا ، وأهلها لا يسير واحد منهم على قدميه ، وشوارعها مع السكوت الأخرس مزدحمة لا يستطاع السير فيها ، وتتخطر النسوة فى كل مكان وينظرن لكل إنسان يردن أن يبتلعنه بأعينهن .

---

(١) ص / ١٣ ـ ١٤ .

(٢) ص / ٢٣٨ .

وهأنا لا أرى من ذلك شيئا : ها بيوت مبنية بالحجر كبيوتنا ، وناس كالذين نراهم عندنا ، وشوارع تجرى بمن فيها ، ونسوة يسرن ظاهرات الجدّ . عن أى باريس إذن كانوا يحكون ؟ » [1]. لكن كيف لم يتنبه كاتبنا للنظام والنظافة والجمال وارتفاع مستوى المعيشة مما لا تزال تتميز به أوروبا عن مصر حتى وقتنا هذا ؟ إن ذلك جدّ غريب ! لقد وصف هيكل باريس حين زارها مع زوجته بعد ذلك بأكثر من عشر سنين وكان مبهوراً بها انبهاراً أعدانى أنا نفسى الذى زرتها فى أواخر السبعينات فلم أنبهر بها كل هذا الانبهار رغم انتباهى وتقديرى لما تتمتع به من جمالٍ وفتنة ، وكان المفروض أن يكون وقع مشاهدته الأولى أشدّ لأن العين بعد أن تألف مواطن الجمال والجلال لا تعود تلتفت إليها أو تقدّرها حق قدرها . على أية حال سوف نرى هيكل بعد ذلك يندمج فى باريس وحياة باريس ويعبّ من سحرها وفنونها ومراقصها ومشاربها وحدائقها ومعاهدها الشىء الكثير مما وصفه فى الكتاب الذى بين أيدينا وصفا شائقا ممتعا .

وبعد نحو عام يقطع كاتبنا البحر إلى بريطانيا وينزل لندن ، التى استغرب خلوّ شوارعها من الشجر والمقاهى وانخفاض أبنيتها وكثرة

---

(١) ص / ٢٠ .

الفقراء بين سابلتها القلائل : « أخذت عربة إلى الأوتيل الذى يقيم فيه صديقى م. ص. قطعت بى طرقاً وشوارع تختلف كل الاختلاف عن شوارع باريس فلا شجر فيها ولا قهوات بها على سعتها وعظمها. بل لكأن العربة ترمح بى بين مدينة قديمة من مدن العصور السالفة . أهذه لندرة التى يحكون عنها ؟ أأنا الآن فى عاصمة بلاد الإنكليز ؟ وهؤلاء القلائل ، وأكثرهم من الفقراء الذين يسيرون فى الشوارع ، هم أبناء هاته الأمة المتكبرة المتجبرة ؟ وتلك الأبنية المنخفضة فى ارتفاعها إلى جانب العاصمة الفرلساوية هل تكنّ فى جوفها إنكليزا ؟ كل ذلك صحيح ، وكله غريب ! »[١].

ولكن كما هو الحال مع باريس وبعد أن خبر لندن عن قرب خلال الأربعين يوماً التى قضاها هناك وسهر فى البيكاديلى ورأى الحركة والزحام وأسراب الغيد الحسان اللائى لم تعجبه أسنانهن كثيرا ، وشاهد مظاهرات النساء من أجل الحصول على حقّ الانتخاب أسوة بالرجال تسير فى نظام واحترام وتتقدمها الموسيقى الرقيقة ، وزار هايد پارك واستمع إلى خطبائها وجدالهم بل ومشاحناتهم مع الجمهور ، وتنزه على صفحة نهر التيمز ، نجده يعلن إعجابه بلندن وحبّه لها : «أقمت بلندرة أربعين يوما لأحبها وآسف على تركها . وما من بلد كبير إلا له من الجمال والهيبة ما

---

(١) ص / ١٦٦ .

يجذب النفس ويأخذ بالفؤاد . ما بالك بذلك البلد لا تعرف له أول ولا آخر ؟ هو العالم تتوه فيه ولا تحلم بالخروج منه . أنت فى الضواحى ، وفى لحظة إذ بك تشعر برهبة المدينة الهائلة حولك وتنظر إلى ما يحيط بك فتراك أبعد ما يكون عن أن تتصور آخرها . هى بحر لا شاطئ له يتوه فيه الإنسان المسكين »[١] ، ثم يهتف بعد عدة سطور متسائلا فى حسرة : « متى يكون لنا فى الشرق كلندرة أو كباريس ؟ ». وشتان قوله هذا وقوله قبل ذلك عندما وطئت قدماه باريس أول مرة : « ها بيوت مبنية بالحجر كبيوتنا ، وناس كالذين نرى عندنا ، وشوارع تجرى بمن فيها ، ونسوة يسرن ظاهرات الجدّ . عن أى باريس إذن كانوا يحكون ؟ » . لقد كانوا يحكون ، يا كاتبنا العزيز ، عن باريس الجميلة المنظمة النظيفة التى تفيض بآيات الفنّ والفكر والثقافة والعمل الدءوب والاختراعات العلمية والصناعية والحرية السياسية والتقدم الحضارى وموهبة الاستمتاع بالحياة مما ينقصنا منه الكثير ولا يبدو أننا نريد استكماله وكأننا قد رضينا بالتخلف واستعذبناه ، وبالذل واستمرأناه ، وبالهوان وعضضنا عليه بأسناننا وأظافرنا كأنه أمل الآمل ومنية المتمنى ![٢]

---

(١) ص / ١٧٥ .

(٢) غنى عن القول أن فى الأوروبيين مع ذلك عيوباً ضخمة أيضا ، ولكننا هنا فى مجال الحديث عن فضائلهم ، وهى أيضا ضخمة وكثيرة .

كذلك يعثر قارئ المذكرات برأى هيكل فى الأوروبيين وتصرفاتهم ووجهتهم فى الحياة ... إلخ . من ذلك حملته على الفرنسيين وما يصنعونه فى عيد الحرية فى الخامس عشر من يوليو ، إذ « يخلعون عذار الوقار إلى هذه الدرجة فيرقصون فى الأماكن العامة ويضحكون ويشربون ويعملون ما لا يُعْمَل » . لكنه سرعان ما يعقّب قائلاً إنك « لا تستطيع مهما كان رأيك فيهم أن تمنع نفسك عن مشاركتهم بقلبك فى هذا السرور » [(١)]. كذلك يأخذ عليهم وعلى الغربيين عامةً شدةَ تعلقهم بالمادة وانكبابهم عليها ، فـ « هم ينْسَوْن أمامها كل خلق وكل فضيلة فيتزلفون أو يشتدون ، يحاسنون أو يسيئون على حسب الظرف الذى هم فيه والوسيلة التى تسهّل عليهم الكسب المادى . لم أجد واحدا ممن عرفت إلى اليوم ، وإن كانوا قليلين ، شذّ عن هذا المبدإ . فى البنسيون جاءنى صاحبه يحادثنى بالفرنسية . حادثنى طويلا فى مواضع مختلفة ، ولكن ليصل منها كلها إلى معرفة المدة التى سأقيم عنده والحساب الذى يجب أن أدفع اليوم . فى غير البنسيون كل شىء يسير على هذا النسق أيضا » [(٢)]. وهو يعلل ذلك بكثرة النفقات التى تتطلبها

(١) ص / ٢١ .

(٢) ص / ٥٥ .

بيوتهم وتنوع حاجات الإنسان المتمدن إلى أقصى حدّ ، وذلك على عكسنا ، إذ « نحن قوم زهد نحتقر عَرَض الدنيا الفانى ، ولا يهمنا الأيام القليلة التى نبقاها على الأرض ولا بأى شكل قضيناها » ، أما هم فلا يؤمنون إلا بالحياة الدنيا ، ومن ثَمّ يريدون أن ينالوا منها أقصى ما يمكن أن تعطيه إياهم . ولهذا السبب نجدهم مستسلمين (كما قال) للسرور [١] .

كذلك يبدى ضيقه بكثرة خطباء هايد پارك المتحدثين فى الدين ، إذ يبلغ « من تعصبهم ، حتى فيما بين مختلف طوائفهم ، أن يتشاتم المتكلم مع أحد السامعين على مسمع من البوليس » [٢] ، كما يتهكم عليهم قائلاً إنهم لو علموا أنه مسلم وأن اسمه محمد لقضموه بأسنانهم قضما ثم ادّعَوْا بعد ذلك أنه متعصب ، بينما « التعصب يلمع بين عيونهم وينادون به بأعلى أصواتهم » [٣] .

ومما لم يعجبه أيضا فى الإنجليز تحصيلهم منه پِنْساً فى المرتين اللتين عبر فيهما على دراجةٍ إحدى القناطر بالقرب من بريتون ذهاباً وإياباً ، قائلاً « فى إنجلترا يجعلون الناس يدفعون پِنْساً أجر جواز

---

(١) ص / ٥٥ ـ ٥٦ .

(٢) ص / ١٧٢ .

(٣) ص / ١٧٣ .

القنطرة فى حين يمنّ علينا الإنجليز فى مصر بأنهم رفعوا ضرائب جواز القناطر ، ويعدون ذلك مفخرة من عظيم أعمالهم عندنا » [(١)].

كما يأخذ عليهم أنهم ، رغم لطفهم وحسن مجاملتهم ، « محبون لأنفسهم إلى حد فظيع ، إذ يطلبون منك إزاء هذه المجاملة مثلها أو أكثر منها . ومهما سامحتهم أنت فى هفواتهم فأى هفوة تبدر منك نحوهم تقيمهم وتقعدهم وتُظْهِر من شراستهم ما يمحو كل جسنة سابقة لهم ». وهو يرى أن الطريقة المثلى فى معاشرتهم هى أن تعاملهم كما يعاملونك فتقابل شدتهم بشدة مثلها [(٢)] .

وقد أثار استغرابَه إعجابُ الفرنسيين بأخلاق الإنجليز وملابسهم وسياساتهم وكل شيء فيهم وإطنابهم فى مدحهم فى الوقت الذى يستخف فيه الإنجليز بهم وبعقولهم بل وبأدبهم ، « وهو التاج الذى تفخر به الأمة الفرنساوية » كما يقول . وانطلاقا من هذا الإعجاب كان الفرنسيون يتخذون لأبنائهم مربيات من الإنجليز وينشّئونهم على إتقان اللغة الإنجليزية . والنتيجة أن هؤلاء الأولاد متى ما شبّوا كانوا « أشد من آبائهم إعجابا بهذا الجنس السكسونى بعد أن ربّتْهم بَنَاتُ أمّته » [(٣)].

---

(١) ص / ١٧٩ .

(٢) ص / ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(٣) ص / ٢٥٥ .

لكن مهما يكن من انتقاده للإنجليز والفرنسيين فإنه لا يُعَدّ شيئا البتّةَ بالقياس إلى ما قاله فى حق الطليان ، الذين وصفهم أكثر من مرة فى سطور معدودات بأنهم « خنازير » . لنقرأ معًا ما دونه فى مذكراته عنهم وهو فى طريق عودته إلى مصر فى يوليو ١٩١٤م :

« ما أقذر هؤلاء الخنازير ! لا أنسى أنى فى الأربع المرات التى ركبت فيها سكة الحديد كانت مرّتّبات الدواوين مقلوبة على وجهها ، وأقل احتكاك بها يثير ترابا عجاجا . وتلك هى عربات الدرجة الأولى . والطليان أنفسهم ! ياحفيظ ! أول أيامى فى إيطاليا حدثنى أحدهم ، وجاء فى الحديث أنْ وَصَفَ بلاده وعظيم ما فيها من جمال ، وكانت كلمته الختامية : « إيطاليا جميلة ، ولكن يجب تغيير الطليان ! » . إنه لحقٌ وايم الله . إنهم حقيقةً لخنازير . يجىء ركاب الدرجة الثانية إلى الأولى ، فإذا أراد الكمسارى أن يأخذ منهم الفرق سبّوه وصاحوا فى وجهه ، ثم يرضونه أخيرا بجرعة « كيانتى » فيقبلها مسرورا وينصرف . ومكتوب فى العربات : « البصق على الأرض ممنوع » ، وذلك أن الشركة تعرف مواطنيها ومبلغ نظافتهم . والمحطات الصغيرة يظهر فيها من حين لحين جماعة من الفلاحين الفقراء والبؤس على وجوههم وفى ملابسهم ، وتكاد تلمسه فى هواء البلاد الجنوبية » [١] .

---

(١) ص / ٢٤٣ .

هذا من جهة المآخذ التى لم تعجبه فيمن تعامل معهم فى ذلك الوقت من الأوروبيين . فإذا قلبنا الورقة على وجهها الآخر فماذا نجد ؟ إننا نراه فى فرنسا يؤكد أن « اللطف فى المعاملة هو الأمر السائد هنا ، فصديقك والتاجر الذى يبيعك سلعته وخادم غرفتك وكل من تقابل دائم الابتسام حتى لكأن هذا الخُلُق أصبح طبيعيا فيهم : يحيونك فى ابتسام ، ويعوضون حاجاتك بابتسام ، ويشكرونك بابتسام . وهم بذلك يسرّون القلب ويعوضون الإنسان عن قتوم السماء وعبوس مناظر المنازل الترابية اللون الحزينة المنظر » (١) .

ومما يستحسنه أيضاً من الفرنسيين خروجهم إلى الحدائق العامة كلما كان الطقس جميلاً للنزهة والتريّض وتمضية الوقت فى بهجة وحبور (٢) . وبالمثل يبدى إعجابه بالأسلوب الذى يقضى به أصحاب البيت الذى كان يسكن معهم سهراتهم حين يكون عندهم زوّار ، إذ يستمعون إلى من يستطيع منهم العزف ويتناجَوْن أثناء تناولهم الشاى فى مسائل خفيفة لا تحتاج عناءً ولا تفكيراً مما من شأنه أن يريح

---

(١) ص / ٥٨ .

(٢) ص / ٩٨ .

الذهن ويبهج النفس فيقوم الإنسان من نومه فى اليوم التالى مستريح البـال مستكمـلاً حظه من سكون النفس والجسم ، ومن ثَمَّ يكون على أتم استعداد لأعمال النهار . وهو يرى أن ذلك « أفضل بكثير من طريقتنا الشرقية حين نقتل سهراتنا إما على القهـوة وإما فى مناقشات متعبة لا طائل تحتها »[1].

وهو يَذْكُر بالخير من صفات الفرنسيين « أنهم مهما اختلفوا معك فى الرأى فإنهم دائما يتمسكون بالحجة العلمية أو الاستنتاج المنطقى أو استقراء الحوادث . وإذا لم يَكُ بعد ذلك سبيلٍ إلى الاتفاق تَرَكَ كل واحد صاحبه ولكلٌ عقيدته من غير أن يثور بينهما العجاج ومن غير أن يصل إلى أن يسفّه كلٌ رأى صاحبه » ، ثم يعقب بقوله إنه « ليس على البسيطة رأى خالٍ من الخطإ أو خالٍ من الصواب ، بل كلٌ يحوى قسما من الحقيقة يظنه صاحبه أشد غلبة عليه حتى تظهر الأيام فساد ظنه »[2].

وقد تصادف ، حين زار هيكل بريطانيا للمرة الأولى ، أن كان إدوارد السابع قد تُوُفِّيَ منذ أيام ، فظن أنه سيجد « سحابة من الحزن

(١) ص / ٩٩ .
(٢) ص / ١٥٠ .

تثقل سماء هاته البلاد الثاكلة ملكها ، وأن شيئا من الأسى يحوم في كل النواحي ويظهر أثره على جميع الوجوه وتضيع كل بهجة أو رواء تحت مهابة السواد وجلاله . غير أن هاته الأحلام لم يَصْدُق منها شيء مطلقا حتى ولا خيالها ، اللهم إلا فيما يضعه الإنجليز الآن من مناديلهم السوداء إذا ما نَزَلَت العاصمة » [١] .

كذلك شاهد بعد فترة قصيرة مظاهرة نسائية من أجل المطالبة بحق الانتخاب مثل الرجال سواء بسواء ووَصَفَهَا بأنها « من أكبر وأبهى المظاهرات » التي شهدها في حياته . وقد أَسَرَه ما حاطها من « صمت مهيب » وما قرأه في بعض اللافتات التي كان يحملها بعض المتظاهرات من أن الحظ إنما ينصر الشجاع ، مما جعله يعلّق بقوله : « نعم ، إنما ينصر الحظ الشجاع ، والموت أنفى ما يكون للموت ، والناس من خوف الذل في الذل ، واليوم الذي يريد الإنسان فيه أن يعيش شريفاً أو أن يموت هو اليوم الذي يحيا فيه شريفا عظيما » . كما أعجبه استقبال الناس لهذه المظاهرة « بالإجلال والإعظام الذي تستحق » ومشاركة كثير من الرجال ذوي الدرجات الرفيعة فيها ، وكذلك الفرقة الموسيقية النسوية التي كانت تتقدمها عازفةً نغما شجيا بديعاً « غاية في الرقة » [٢] .

---

(١) ص / ١٦٧ .

(٢) ص / ١٧٠ .

وهو يقابل بين نشاط الفرنسى والأوروبى عموماً وإقباله على الحياة ومُتَعها حتى بعد أن يتجاوز الستين وبين الوقار الذى يأخذ الناس به أنفسهم عندنا منذ شبابهم ومن ثم يشيخون بسرعة ، ومع ذلك فهم فى شيخوختهم يندفعون وراء شهواتهم على نحو فظيع وكأنما يريدون تعويض ما فاتهم فى مرحلة الشباب [١].

وبنفس الروح يثنى علي استقلالية المرأة الغربية وثقتها الشديدة بنفسها لدرجة سفرها وحدها المسافات الشاسعة دون أن تشعر بخوف أو تقع فى زلل ، ويأسى بالمقابل على قلة ثقة المصرية بنفسها وكذلك المصرى ، متسائلاً فى سخط : « ألا نأسف على حالنا بعد ذلك ؟ » [٢].

ومما أعجبه أيضا فى فرنسا الطريقة التى تربّى بها الأم الفرنسية أبناءها ، « فهى دائما شديدة فى الأمر لينة فى التنفيذ ، وتصحبه دائما قُبْلة لطيفة » . وعلى رغم تأكيده بأنه ليس فى مجال الحكم على هذا الأسلوب يسارع قائلاً : « ربما كانت هذه التربية أضمن لتخريج جمهوريين » [٣].

---

(١) ص / ١٩٥ .

(٢) ص / ٢٠٨ .

(٣) ص / ٢٣٧ .

وقد لاحظ أن من عادة الأوروبيين على اختلاف جنسياتهم مبالغتَهم فى وصف بلادهم بالجمال والروعة ، وكان من رأيه أن هذا شكل نافعٌ من أشكال الوطنيــة ، بل ربما كـان أحــسن تلك الأشكال[١] .

وكـما كـان هيكل حريصاً على تسجيل رأيه فى الأوروبيين وبلادهم وتصرفاتهم وتقاليدهم كذلك كان حريصاً بنفس الدرجة على تسجيل رأى الأوروبيين فينا . ومن ذلك أن السيدة الإنجليزية صديقة ل . بك قد ذكرت له ضمن ما ذكرت أن الذين رأتهم من الشرقيين « تظهر فى عيونهم آثار الحزن أكثر مما يوحى به سنهم » ، ثم علّلَتْ ذلك « بأنه نتيجة طبيعية للطقس ، حيث إنك كلما ذهبت شمالا وجدت الوجوه فَرِحةً والناس أميل للطرب » ، وإن كانت لم تبين وجه الصلة بين حرارة الجوّ والحزن ، وبين البرودة والسرور . ولا أدرى ماذا كانت ستقول لو أنها عاشت حتى رأت المصريين مثلاً فى هذه الأيام حيث لا يكاد يمر يوم فى أية قرية مثلاً دون حفلة زفاف أو مولد ، وحيث يخيل للإنسان أن برامج الإذاعة والتلفاز قد أضحت كلها أغانى وموسيقى ومسرحيات ضاحكة وحفلات زائطة الكلّ يتمايل فيها ويتراقص ويصيح على صوت

(١) ص / ٢٣٨ .

المغنى أو المغنية . على أية حال فإن لهيكل رأيا آخر فى ظاهرة الحزن التى لاحظتها السيدة المذكورة ، إذ قال إن السبب فى ذلك « يرجع إلى تاريخ الشرق وحال الشرقيين الاجتماعية الحاضرة أكثر مما يتعلق بالطقس والموقع الجغرافى . ذلك أنهم محكومون بالاستبداد القرونَ الطوال فدخلت فى نفوسهم آثار الحزن وغادرها معنى الفرح الصحيح الخالص ، فصار يُطربها النغم الشجى المحزن أكثر مما تأخذ بها الرقة الضاحكة المفرحة ، ويسرّها الصوت الممتد الهادئ أكثر من الأصوات المرتفعة التى ترج الأعصاب والفؤاد والقلب . أدْخلَهم ذلك التاريخُ الأليم الذى مدّ جناحه فوقهم إلى الاستسلام من غير رضا ، وأرغمهم القسرُ الذى عاشوا ويعيشون فيه على وجود صاغر مستكين . دخل إلى نفوسهم حب الخفاء فى كل شىء ، وظهر فى عيونهم ، والعين مرآة النفس ، أثرُ ذلك الحزن العميق والتحرز الشديد »[1]. وهو تعليل صحيح ، وإن كان يحتاج إلى أن نضيف

(١) ص / ٣٥ . وبالمناسبة أحب أن أسوق هنا ما سمعته من د. محمد مصطفى بدوى ، الذى كان يشرف علىّ أثناء دراستى للحصول على درجة الدكتورية من جامعة أكسفورد ، تعليلاً لارتفاع أصوات المصريين أثناء حديثهم مع بعضهم البعض ، إذ أرجع ذلك إلى طبيعة اللغة العربية ، على عكس الانجليزية، التى لاحظ أنهم كانوا كلما تكلموا بها فى البيت الذى يسكنونه مع أسرة إنجليزية أثناء وجودهم فى بريطانيا أيام الطلب خافتوا من أصواتهم ، بخلاف ما لو استعملوا =

إليه توالى الانكسارات والهزائم فى تاريخ الشرق فى القرون الأخيرة بعد أن كان أهله يسودون الدنيا ، وكذلك القسوة والغدر اللذان عاملهم بهما الغربيون عندما أصبحت الدولة لهم عليهم ، فضلاً عن الفقر المدقع والعيشة المنحطة التى أصبحوا يعيشونها منذ أن أصبحوا فى ذيل الحضارة .

وفى موضع آخر من المذكرات يصف كاتبنا ما شاهده فى إحدى المسرحيات فى باريس [1] حيث « رُفعت الستار عن أحد قصور الجنان . قصر فخيم تحيط به النعمة من كل جانب . كانوا يمثلون حياة سلطانة شرقية فى ديوانها وقد قام من حولها الجوارى لابسات أقمصة من الحرير الأبيض ، وهنّ جميعا يحكين فى حركاتهن المتباطئة تلك الحياة المكسال التى يتصور الغربى عن الشرقى . وما أسرع ما انقلبت دقات الموسيقى من جديد فأخذت هى الأخرى تترنم فى نغمات ساكنة متشابهة تلائم حركات الجوارى الجميلات وتكاسلهن ! واجتمع حول السلطانة من دواعى الترف

= لغتهم العربية ، إذ كانت أصواتهم ترتفع آليا . وفاته أن التعليل الصحيح هو خوفهم أن تفهم الأسرة الإنجليزية ما يقولونه حينما يستعملون لغة الإنجليز وانعدام هذا الخوف فى حالة تحدثهم بلغة الضاد .

(١) للأسف لم يذكر هيكل لنا اسم هذه المسرحية ولا مؤلفها .

الخامل ما لا يحرّض على أقل حركة . ومن حين لحين تبدو عليها علامات التناوم » [١] .

ومما آلمه أيضا ما قرأه فى رواية « النبىّ الأبيض » لهول كين (وهى رواية تتحدث عن مصر أيام الخديوى عباس الأول) من اتهام المصريين بالسذاجة العقلية والتعصب الدينى الفظيع ، إذ تصوّرهم وكأنهم جميعاً مجاذيب ما إن يلمس الواحد منهم صاحبه حتى يصيح قائلاً : « الله ! الله ! » أو ما إن ينعق بينهم ناعق باسم الدين حتى يتبعوه إلى الصحراء المحرقة المهلكة غير مبالين بشىء . كذلك وَصَمَ المؤلف كثيرا من علماء الدين بالضعف والنفاق ، وعزا إلى الخديوى الطُّموحَ لإقامة خلافة عربية إسلامية بمعاونة العلماء مقرها القاهرة ، ثم لم يقف عند هذا الحدّ بل عرّض بالنبى نفسه عليه الصلاة والسلام ، وذلك كله فى الوقت الذى لم يذكر فيه أىّ إنجليزى من الذين يعيشون فى مصر إلا بالخير كل الخير . وقد استفزت هيكل هذه الرواية فعلّق عليها بغضب منبّها إلى الفخ الذى وقع فيه كثير ممن قرأوا هذه الرواية من المصريين ، إذ ظنوا أن المؤلف يمدحهم ومن ثَمّ سُرّوا بكتابه سرورا . وإن العبارة التالية لتمثّل زُبْدَة رأى أديبنا فى هذه الرواية ، إذ قال

(١) ص / ١٦٠ .

عن مؤلفـهـا إنه « إنكليزى ... يعزّز بقـاء إنكلترا فى مـصـر . يزيد دليلَنا هذا قوةً أن الشخص الذى كان موضع إكبار المصريين وحبهم واحترامهم (ـَجوردن) كان من هذا الرأى أيضا ، وإن كان من رأى آخر فى سيـاسـة الأمـة » . ومع ذلك كله فـإن حكم هيكل على الرواية من الناحية الفنية لم يتأثر بهذا الغضب الذى أشعلته فى نفسه بسبب تحيزها ضد قومه ، فقد اعترف « بأن الكتاب متْقَن اللغة جدا، ويشـهـد لصـاحبـه بالمقدرة العظيـمـة . مـقـدرة هائلة ليس من السـهـل مسابقته فيـهـا ، وقلم بليغ عزيز الوجود يسحب الروح معه ويأخذ بمجامع النفس ويغرى المطّلع على الاستمرار ولا يملّ أبدا . كتاب بديع من الكتب النادرة التى يصح أن يحلّى به الإنسان مكتبته »[١]. وهو ما يدل على أن كاتبنا كان يستطيع بكل سهولة أن يفصل بين الشكل والمضـمـون فى العمل الفنى ولا يدع فرصة للعنصر الأخير كى يؤثر فى حكمه على الأوّل .

كذلك لاحظ هيكل أن بعض الصحف الفرنسية التى أوردت نبأ مقتل بطرس غالى فى سنة ١٩١٠م على يد الشاب الوطنى الغيور إبراهيم الوردانى قد أرجعت ذلك إلى التعصب الإسلامى ، وكذلك فعل الشىء نفسـه مـن كان يساكنهم من الفرنسيين ، فـ « الوزير

(١) ص / ٦٣ ـ ٦٤ .

المقتول مسيحى ، والشاب القاتل مسلم ، وإذن فليس هناك شبهة فى أن الدافع للقتل هو دافع الدين » . ويذكر هيكل أنه قد جاهد كثيراً لإنزال أولئك الناس عن رأيهم ذاك الغريب الذى يرى هو أنه يعكس تعصبهم هم أنفسهم ، إذ « يحسون فى أعماق نفوسهم أن للدين عليهم سلطانا وأنهم ينساقون إليه فى كثير من معاملتهم لغيرهم . لذلك هم يدّعون على الغير فى كل صغيرة وكبيرة دعوى التعصب » (١). كذلك أحنقه أشد الحنق أنه ما إن شرح لمعارفه أولئك من الفرنسيين أن الوردانى إنما قتل بطرس غالى لما رآه من خيانته الوطنية حتى سارع أحدهم إلى التعقيب بقوله : « ممكن جدا أن يكون هذا صحيحا ما دام هذا الشاب قد تعلم فى أوروبا » ، وكأن التعلم فى أوروبا هو المانع الوحيد للتعصب الدينى الشنيع . ثم يمضى هيكل مبينا أن « الشرقى المسلم أو غير المسيحى الذى يرى هذا الأجنبى عنه فى الوطن واللغة والعقيدة آتيا يستعبده ويبتز منه ماله ونفسه يرجع دائما لتكبير كل الفروق التى بينه وبين ظالمه ، والدين أحد هذه الفروق ولا يستهان به . ولكن ليس معنى ذلك أن

---

(١) ص / ١٢٦ ، وإن كان قد أشار بعد ذلك بوقت طويل (حين كتب ترجمة بطرس غالى فى ١٩٢٧/١٢/٢٤م بجريدة « السياسة الأسبوعية ») إلى دور « النعرة الدينية » فى هذا الحادث ، ونفى عن غالى تهمة الخيانة والتعصب لأبناء طائفته .

الإحساس الديني هو كل شيء في النفس الشرقية ، بل معناه أنه سبب من أسباب الثورة ضد استعباد الغرب للشرق وصيحة داخلية في كل نفس حية ضد هذا الظلم الصارخ الذى ترمى به أوروبا الشرقيين » (١) . فهيكل يرى إذن أن الإسلام عنصر إيجابى من عناصر الثورة على الاستعمار والطغيان السياسى والاقتصادى ، وأن الذين يعيبون المسلمين بالتعصب إنما يريدون دوام هذا الاستعمار وذلك الاستغلال ، وأن التعصب الدينى هو ديدنهم الذى يرمون به المسلمين وينسلّون منه ، ولكن هيهات ! ولكن الغريب أن يعود هيكل بعد ذلك بنحو عشرين عاما فيكتب عكس هذا في ترجمته لبطرس غالى (٢) ، إذ أشار إلى دور النعرة الدينية في اغتياله مما هاج

(١) ص / ١٢٧ .

(٢) وهى الترجمة الخامسة فى كتابه « تراجم مصرية وغربية » ، ذلك الكتاب الذى ظهرت طبعة له فى يناير ١٩٥٤م فى « كتاب روز اليوسف » بعد أن حُذِفت بعض فصوله ، ومنها ترجمة بطرس غالى ، وتغير اسمه إلى « شخصيات مصرية وغربية » . ولم ينبه إلى هذا الحذف د. محمد سيد محمد أو د. حمدى السكوت ود. مارسدن جونز ، إذ تحدثوا عن الطبعتين كأنهما نفس الكتاب ولكن بعنوانين مختلفين . انظر كتاب الأول « هيكل والسياسة الأسبوعية » / الهيئة المصرية العامة للكتاب / سلسلة « تاريخ المصريين » (العدد ٩٨) / ١٩٩٦م/ ٨١ ، وكتاب الاثنين الآخرين / محمد حسين هيكل ـ ببليوجرافيا / قسم الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية والمجلس الأعلى للثقافة / القاهرة / ١٩٩٦م / ٩ . وبالإضافة إلى ترجمة بطرس غالى المحذوفة فقد حُذِفتْ أيضا تراجم محمد قدرى باشا وإسماعيل باشا صبرى ومحمود سليمان وهيبوليت تين .

الدكتور محمد غلاب ، الذى أغضبه أن يرمى هيكل خصوم غالى (على حد تعبيره) بأن نهضتهم إسلامية وأنهم كانوا يبغضونه لمسيحيته فرّد عليه متسائلاً : « كيف كان ويصا واصف من أهم أركان الحزب الوطنى فى ذلك الحين (إذن) ؟ ولماذا لم يبغضه المسلمون لمسيحيته ؟ ولماذا لم يحقد هو عليهم دعوتهم إلى الإسلام ؟ » ، ومؤكدا أن المصريين إنما أبغضوا غالى من أجل اشتراكه فى معاهدة سنة ١٨٩٩م القاضية على مصر بالشقاء بقبولها تدخل الإنجليز فى السودان ، وكذلك من أجل موافقته على مدّ امتياز الإنجليز فى القناة أربعين عاماً [١]. ومن المؤكد أن القارئ قد رأى بكل وضوح كيف استعمل د. غلاب فى رده على الدكتور هيكل نفس الحجة التى أوردها هو نفسه من قبل فى نقاشه مع معارفه الباريسيين الذين كانوا يتهمون المسلمين بالتعصب ويرون أن الوردانى إنما قتل بطرس غالى انطلاقاً من هذا الدافع ، وكيف أن د. هيكل قد انقلب فردّد نفس التهمة التى كان يلوكها أولئك الفرنسيون وجهد هو فى تفنيدها حينذاك .

وفى القطار الذى استقله هيكل من كلرمون إلى نيم بفرنسا (فى مارس ١٩١٠م) تقابل مع شيخ فرنسى ، وفى أثناء الحديث

(١) محمد حسين هيكل فى عيون معاصريه / إعداد نبيل فرج / الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية والمجلس الأعلى للثقافة / ١٩٩٦م / ١٧٢ .

كان ذلك الشيخ يسأله عن أحوال مصر وينصح له ، مثلما ينصح كلُّ أوروبى (كما قال) ، أن يطمئن « للحكم الإنجليزى ، الذى ملأ بلد الفراعنة خيرا ونعمة » . ويلمح القارئ ضيق صدر سيكل بهذه النصيحة من الأسلوب الذى علق به عليها إذ قال : « وله ولكل أوروبى العذر فيما يقول ، فعلى الشكل الذى يفهمون به الحوادث والأشياء من بعيدٍ لا نعمةَ تعدلُ نعمة الحكم الإنجليزى عندنا : أمْنٌ سائد حيث لا تقوم مذابح يُقَتّل فيها الأوروبيون تقتيلا . ووفرة نعمة لأن لمصر تجارة تزيد على أربعين مليونا ، وإن كان القسم الأكبر منها لا يتعلق بثروة مصر . وتعليمٌ راقٍ لأن هناك أسماء مدارس كأسماء المدارس العالية فى أوروبا » ، ثم يختتم كلامه بالسؤال التالى : «فماذا يريد المصريون فوق هذا ؟ » ليجيب قائلا : « المصريون يريد أن تكون مصر للمصريين » [1]. ولكنْ مرةً أخرى نجد د. هيكل بعد ذلك بنحو خمس عشرة سنة ، وفى أثناء حديثه عن رحلته إلى السودان ، يتحدث عن الحكم الإنجليزى هناك وكأنه

---

(١) مذكرات الشباب / ١٣٦ . ومع هذا فإنه يقول فى يومية ٩ يناير ١٩١٠م ، أى قبل ذلك بشهرين وعشرة أيام ، إن ما فى مصر من مدنية وحضارة ليس نتاجا مصريا بل هو من عمل الأجانب ، الذين لو كُتِب عليهم أن يغادروا البلاد لعادت إلى استبداد المماليك ، وإلى عهد الجوامع القديمة وحلقات الدروس التى اندثر أثرها ، وإلى الفقر المدقع (ص / ١١٣) .

يدافع عن سياسة الإنجليز فى تسيير دفة تلك البلاد . ونقطة انطلاقه هنا هى نفس الحجة التى استند إليها الشيخ الفرنسى الذى قابله فى القطار ما بين كلرمون ونيم ، أى الفوائد التى يجنيها أهل البلاد من وراء الحكم الإنجليزى والتى ذكر منها هيكل تخفيض الضرائب وزيادة الرفاهية ومحاربة الأمراض الفتاكة كالملاريا والزهرى ونشر الأمن فى ربوع البلد واستصلاح الأراضى والتوسع فى زراعة القطن. وهو يرى أن للسياسة الاستعمارية البريطانية « امتيازا وتفوقا على غيرها من سياسة الدول الاستعمارية الأخرى ، فليس من أغراض السياسة البريطانية الأساسية أن تنشر الثقافة الأنجلوسكسونية فى البلاد التى تحكمها ، وليس من غرضها أن تنشر فيها مبادئ الثورة الفرنسية ولا أن تحمى فيها الهيئات الدينية المسيحية » . صحيح أن « كل ذلك قد يحدث بطبيعة الحال » كما قال ، « لكنه ليس غرضاً أساسيا مقصودا لذاته. إنما الغرض الأساسى هو تلك الروابط المادية بين إنكلترا وسائر أجزاء الإمبراطورية . ولتكون هذه الروابط متينة مأمونة العواقب يجب ألا تكون فائدتها لإنكلترا وحدها ، بل يجب أن تشعر البلاد المحكومة بأن لها من ورائها فائدةً محسوسةً أولُ مظاهرها نقص النفقات العامة نقصا يترتب عليه تخفيض الضرائب وزيادة رفاهية المحكومين زيادة تشعرهم بالطمأنينة إلى حاكمهم » . ليس ذلك فقط ، بل يضيف قائلاً إن هذه السياسة « قد اتُبِعَتْ ...

في مصر بدقة تامة مدة وجود لورد كرومر بها ، ويمكن أن يقال إنها أُتبعت إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى . لكن هذه الحرب أدت إلى انقلاب كان من ورائه أنْ غيّر المصريون من طابعهم القومى ... وكان من وراء ذلك أن أُعلِن استقلال مصر ، أما السودان وحكومته فى الخرطوم فما تزال السياسة الجارية فيه هى هذه السياسة التى رسمها لورد كرومر فى كلمته » ، يقصد ما قاله ذلك العِلْج الاستعمارى الزنيم فى مقدمة كتابه عن الخديوى عباس حلمى (١).

وقد كانت مصرية هيكل مبعث إيلام فظيع له فى كثير من المواقف ، فقد كان كلما ذهب إلى مكان سألوه عن جنسيته ، وعندما يجيب بأنه مصرى يحسّ أن مخاطبه يرمقه بنظرة مستغربة تنفذ إلى سويداء قلبه فتؤلمه بما تحتويه من احتقار ناطق لأنه ينتمى إلى بلد محتلّ . وقد كان يقول فى نفسه إذ ذاك : « ويل لهاته الإنسانية الجاحدة ! ألسنا نحن آباء مدنيتها ؟ ألسنا نحن الذين علمناهم الطريق إلى سعادتها الحاضرة ؟ وأجدادنا أما كانوا الحاكمين ذوى السلطان والسطوة ؟ إن لنا على الأمم جميعا من

(١) انظر محمد حسين هيكل / عشرة أيام فى السودان / سلسلة « كتب للجميع » (العدد ٢٣) / نوفمبر ١٩٤٩م / ٤٣ ـ ٤٨ ، وتجد النص المنقول هنا فى ص/ ٤٤ ـ ٤٥ . وقد تناولت رأىَ هيكل هذا فى الفصل الخاص بـ « أدب الرحلة عند هيكل » من هذا الكتاب وحاولت تفسيره .

الفخر ما نرفع به رؤوسنا نساوى بها أكبر الرؤوس ! » ، لكنه سرعان ما يفىء إلى الواقع الحاضر فيقول إن نظرة الازدراء فى عين محدّثه تبدو وكأنها تقول له : « إنما لك الساعة التى أنت فيها . الحاضر فخر أصحابه وعزهم أو صغارهم وذلهم . كنتم الملوك ! كنتم الآلهة ! ولكن ما أنتم اليوم ؟ أمة مستصغرة مستكينة ! أمة راضية بضعفها وذلها ! أمة تقبل الحياة ولو كانت حياة خسة ونذالة ! ها أنتم اليوم » (١). لكن ذلك لم يمنعه أن يهتف بملء فيه فى سنة ١٩٢٢م بأن « المصريين القدماء وصلوا من المدنية إلى قمة نُفِخ بعدها فى الصُّور فاضطرب الوجود وتداعت قوائمه ، ثم بُعث بعدهم خلق جديد وسار يتطور فى سبيل التقدم . وهو لم يبلغ بَعْدُ مدنيتهم ، وهو لن يبلغها إلا أن تكون مصر على رأس العالم ، وإلا أن تكون أم المدنية ، وإلا أن تبلغ هى الغاية التى تطمح إليها الإنسانية . والإنسانية لم تصلها ، وهى لن تصلها حتى تمسك مصر زمام القيادة فتتولى السير بالعالم فى سبيل الرقىّ والسعادة » (٢).

على أن هناك موضوعًا مهما جدًا لا يكاد أحد يتحدث عن

---

(١) مذكرات الشباب / ١٨٧ .

(٢) محمد حسين هيكل / فى أوقات الفراغ / ط ٢ / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٦٨م / ٢٦١ .

احتكاك الشرق بالغرب إلا ويتناوله ، ألا وهو علاقة الشرقى الذى يعيش فى بلد من بلاد الغرب بالمرأة الغربية . فَبِمَ تحدثنا المذكرات الهيكلية عن هذه المسألة ؟

فى أوائل الكتاب ، وفى الصفحة السابعة عشرة على وجه التحديد ، نقرأ وصفاً لأول لقاء بين بطلنا وفتاة أوروبية (باريسية فيما نعتقد) . لقاء يبدو لنا الآن طريفا ، ولكنه كان بالنسبة لهيكل شيئا آخر ، إذ توفزت له أعصابه وأخذه الارتباك والحيرة من جميع الأقطار وذهبت به الوساوس والخيالات كل مذهب . ذلك أنه ، وهو جالس وحده فى ديوان القطار المتجه إلى باريس (فى سفرته الأولى إليها من مصر) ، فوجئ بفتاة تدخل عليه وتضع حقيبتها على الرف وتجلس قبالته ، فتولاه الخجل وأخذ يدير وجهه يمينا وشمالاً حتى لا يلتقى بصره ببصرها . ثم خرج تخلصا من الحرج ، لكنه وجد غرفته التى يشاركه فيها زملاؤه مغلقة ومطفأة الأنوار مما اضطره إلى العودة وهو يتساءل : « أليس ممكنا أن تكون هذه الفتاة وجدتنى مفردا فمالت عندى تريد أن تغرينى ؟ » . وقد سرّه هذا الخاطر وأخافه فى نفس الوقت ، ثم سرعان ما عقد عزمه على أن يمارس معها لعبتها . وإذا بها قد نَضَتْ قبعتها وشدّت ستائر النوافذ ثم سألته أن يحجب ضوء المصباح ، وهو ما أشعل خياله ، وإن كان قد ظل

واجماً حائرا لا يعرف ماذا يفعل ، ليفاجأ بها تشكره وتمدّد جسمها على الأريكة وتروح فى نوم عميق وتتركه نهبا للأفكار المتناوبة حتى واتاه الرقاد أخيرا هو أيضا ، وإن كان رقادا قلقا (١) .

هكذا كان أول لقاء له بالمرأة الأوروبية . وينبغى ألا ننسى أن هذا اللقاء قد وقع قبل انصرام العِقْد الأول من هذا القرن حيث كان الرجل والمرأة فى مصر يكادان أن يكونا منتميين إلى عالمين مختلفين، وأن هيكل كان لا يزال شابا صغيرا تخرّج لتوه من مدرسة الحقوق ، وأن هذه كانت سفرته الأولى إلى الخارج وكانت مصر وقتها رازحة تحت الاحتلال من قِبَل إحدى القوى الغربية ، مما من شأنه أن يجعل المرأة الأوروبية فى نظر شاب مصرى فى مثل هذه الظروف شيئاً بعيد المنال يثير المخاوف والوساوس والأحلام بل الأوهام .

ومع ذلك فسرعان ما تعوّد هيكل على الجلوس إلى أفراد الجنس اللطيف ومحادثتهن بل ومغازلتهن فى بعض الأحيان دون خجل أو خوف أو إسراف فى الخيالات والأوهام ، سواء كان ذلك فى البنسيون أو المشرب أو الحديقة أو المتجر ... إلخ . اقرأ مثلا ماكتبه عن جارته فى البنسيون فى باريس ووصفه لجلوسه معها

---

(١) مذكرات الشباب / ١٧ ـ ١٩ .

وحديثه فى ثقة إليها [١] ، أو تصويره للپيكاديلى فى لندن وهو يموج فى أضواء المساء بالفتيات والنساء الجميلات اللائى يبدو عليهن النشاط المدهش والحيوية والمرح والابتهاج بالحياة ، وهو تصوير ينم على ذوق فني وتماسك نفسى ، فلا حيرة ولا اضطراب ولا جموح شهوة. وفى تلك الليلة دخل هو وصديقٌ له مُقْهًى هناك يَعِجّ بالبنات، وأكثرهن أو كلّهن بغايا ، وجاء مجلسهما «إلى جانب فتاتين ليستا على كثير من الجمال ، وإن كانتا ظريفتين » ، ثم انتهى الأمر بأن خرجا عائدين إلى منزلهما فى بساطة وطمأنينة [٢].

وعلى ذكر البغايا [٣] فقد تكرر الحديث عنهن فى مواضع مختلفة من الكتاب ، فى باريس وفى لندن على السواء . ولعل من المفيد أن ننقل ما كتبه فى يومية ١٩ أغسطس ١٩٠٩م وهو لا يزال حديث عهد بأوروبا وبباريس :

« كنت أسير مع ب. على رصيف محطة اللكسمبور بعد أن تناولنا طعام العشاء ، عاملين بقول مَثَل بلدنا : « اتعشوا واتمشوا »،

---

(١) ص / ٤٨ .

(٢) ص / ١٦٧ .

(٣) اللاتى يسميهمن هنا بـ « البغيّات » ،كما سمّاهن فى موضع آخر بـ « بنات الرصيف » (ص / ٥٣) .

فجعلنا نذهب ونجيء مسرورين ببعدنا عن ضجة البلقار وأنواره وقهاويه الغاصة بمن فيها من بنات الرصيف .

لكن في كل واد أثر من ثعلبة . هاتيك الفتيات يطلبن صيدهن حيث يقع لهن ، بل لكأنهن يجدن في الظلمة مأمنا فلا تطلع العين على مبلغ قبحهن أو تقبل ما تحمل وجوههن من الدهن. غير أن صيّادتنا لم تكن حسنة الحظ في اختيارها ، كما أن الظلمة نفسها كانت أشد فتنة عليها من النور وأكثر إظهارا لحقيقة أمرها .

هذه أول مرة تبيّن لي مبلغ بؤس هاتيك الفتيات وتعسهن : تلك العيون الميتة من كثرة السهر ، وذلك الوجه الباهت لا لون له والخدود الغائرة والفم تطوقه ابتسامة تنم عن مبلغ ما تكن نفس صاحبته من الألم ، وذلك الشكل الجامع بين الاستعطاف الجائع المسكين وبين الحنق على الإنسانية والحقد على بني آدم .

بقيت هذه الفتاة تروح وتجيء إزاءنا ونحن ننظر إليها بعين باردة ونتعمد إساءتها من غير أن يتحرك لذلك ضميرنا ومن غير أن نشعر أنا نسيء لنفس إنسانية أوقعها البؤس وحكم الجمعية [1] التي

(١) أي المجتمع .

تعيش فيها إلى الحضيض الذى تئن من أعماقه فلا يسمع لأنينها إنسان .

وفى آخر لحظة حين أردنا مفارقتها ابتسمنا لها باستهزاء وإصغار ، لكن كل الظروف أرادت أن تعطينا درسا ، فلما وصلنا شارعنا فضلنا الجلوس على قهوة فى أوله ريثما يتأخر الوقت ويجىء موعد النوم . وجاء مجلسنا إلى جانب فتاة صغيرة الجسم نحيفة القَوام ترتدى رداء واسعا من الصوف بالرغم من أنّا لا نزال فى أغسطس . ذلك أن ليس عندها غيره فليس فى وسعها أن تتبدل به آخر ، وما كدنا نجلس حتى فاتحتنا الحديث ، وما كدنا نجيبها حتى طلبت من كل منا فرنكا لتسدّد بالفرنكين فتاة جالسة إلى جانبها اقترضتهما منها لطعام الغداء والعشاء لهذا اليوم .

استمر الكلام فيما بيننا وقامت جارتها لحالها ، فسألها ب . : لم تستمر فى حرفتها هذه ؟ وأى شىء ألجأها إليها ؟ هنالك ظهرت على وجهها علامات ألم ولا أدرى لِمَ ، ثم تبدد ذلك كله سريعا وبدأت تقص حكايتها حين كانت تشتغل فى معمل تطريز ثم استغنى عنها أيام الصيف ، وكيف وقعت حينئذ على إنكليزى رافقها مدة رأت فيها من العزّ والدلال ما لم يبق فى حلمها اليوم أن تنال ، ثم سافر وتركها بعد أن مضت أُولَيَات الشتاء وبعد أن أصبح من الصعب أن تجد ما تحترف به ، ثم هى فى الوقت عينه ترى أن

ما تسير فيه اليوم حرفة كغيرها لا أكثر ولا أقل .

أما حكمها الأخير فيقبل النظر ، إذ مهما وجب علينا أن ننظر إليها بعين الإشفاق ومهما جعلتنا الظروف التى أحاطت بها نتساهل فى معاملتها فليس من السهل الاقتناع بأن حرفتها كباقى الحِرَف . صحيح أنها نتيجة احتياج لها موجود فى البلد ، ولولا ذلك لحقّ عليها البوار ، ولكن نتائجها تنافى الفضيلة . وكل ما يمكن أن يدافَع به عنها أنها تسد حاجة ، وكل ما سدّ حاجة فى العالم يُعَدّ طبيعيا ، والطبيعى عذره فى وجوده » (١) .

ومع كثرة ما أتى ذكر النساء فى المذكرات فقد كانت الجميلات الحقيقيات منهن نادرات كما يقول هيكل نفسه (٢) . على أن هناك فتاة كندية نزلت وأمها فى البيت الذى كان يسكنه هو وثلاثة من الفرنسيين وصفها هيكل بأنها « غادةٌ بنتُ سبعة عشر كاملةُ التكوين » ، وصوّر الأثر الذى خلقته فى البنسيون قائلا إنها « أضافت إلى نضرة الربيع القادم (٣) وبعثت إلىٰ وحدتنا نحن الأربع روحا جديدة شابة فياضة ربما كنت أنا أكثر الناس إحساساً بوجودها » . وهذه الغادة هى مس بياتركس ، التى مكثت

(١) ص / ٥٣ ـ ٥٤ .

(٢) ص / ٩٧ .

(٣) كان ذلك فى شهر « يونيو » من عام ١٩١٠م .

هي وأمها معهم أسبوعاً ونصفا تقريبا ثم سافرت إلى ألمانيا مخلّفة له ذكرى بهيجة وسعيدة أخذ يقتات عليها أيام استعداده للامتحان ، إذ كثيرا ما كانا يجلسان معاً بعد الغداء يتحدثان أو يُمضيان الوقت كل ليلة يلعبان الشطرنج والضامة فيخيّل إليه أنه في رفقة إحدى حوريات الجِنان ، حتى لقد تعلق قلبه بها تعلقا شديدا . وهو يصور هذا التعلّق فيما كتبه إلى أحد أصدقائه بمصر في خطاب مؤرخ في ٨ يونيو ١٩١٠م بعد أن غادرته تلك الفتاة ، إذ قال : « لعلك يا صاح تجد في صورة هذه الفتاة الملائكية بعض ما وجدت أنا من اللذة . ألا ليت أيامها دامت ! ألا ليتكِ لا تزالين هنا يا بياتركس . ها أنا فرغت من العمل وأتمنى ساعة معك من جديد . معها في باريس ؟ وسط جلبة الناس وضجتهم ؟ ويرانا الناس وربما اطّلعوا على مكنون صدورنا ؟ كلا كلا ، لا أريد . لكن الحياة الحلوة عيش مع مثلها على أرض ككندا واسعة ذات دَوْح وشجر ، ولا ضجة ولا جلبة ولا صياح . عيش هادئ ساكن بين الغياض وأغاريد الطير . عيش متشابه خالد مملوء بالحب والسعادة . هذه حقا هي الحياة الحلوة لا في باريس ولا في مصر . لكني للأسف موقن أني لن أعيشها »(١). وهذا هو الحب الوحيد

---

(١) انظر / ١٥٤ ـ ١٥٧ . وهذا النص موجود في ص / ١٥٧ . ويجد القارئ أيضا كلاماً عن هذه الفتاة وبعض ما كان يدور بينها وبين هيكل من حديث في =

الذى يقابلـه القـارئ فى « مذكرات الشباب » .

وهيكل معجب أكبر الإعجاب بإقبال الفتاة الأوروبية على العلم والدراسة مأخوذ بعقليتها وعمق حديثها . وهو يرى أنها تتفوق على كثير من الشبان المصريين فى ذلك ، دعك من النساء المصريات اللائى يتحسرّ على وضعهن ويتمنى لو أنهن خرجن من خدورهن وشاركن الرجال فيما يضطربون فيه . إذَنْ لَـ « هذَّبْنَ مشاعر الشباب وبَعثْن إلى قلوبهم إحساساً بمعنى الحياة الإنسانية التى تحوى غير الشهوات الضيقة التى لا يفهم شبابنا غيرها » [1] . كذلك يعجبه فى الفتاة والمرأة الأوروبية استقلالها الذاتى واعتمادها على نفسها فى التنقل والسفر وحدها إلى البلاد البعيـدة فى الشـرق والغرب على السواء دون خوف أو خطإ : « لهؤلاء الناس ثقـة بنفسهم وبصفتهم لا تطرأ لمصرية بل ولا لمصـرى على بال . ألا نأسـف على حـالنا ذلـك ؟ » [2]. أما ذوقه فى الجمـال النسوى فهو الرشاقة ، التى يفضلها على البياض والسمنة مطمح الفتيات المصريات وأهليهن فى ذلك الزمان [3] .

= كتابه « ثورة الأدب » (الهيئة العامة لقصور الثقافة ـ كتابات نقدية ٥٨ / ديسمبر ١٩٩٦م / ١٠٥) .

(١) ص / ١٠٦ ـ ١٠٧ .

(٢) ص / ٢٠٨ .

(٣) ص / ٢١٦ .

ولعل سائلاً يسأل : أهذا كل ما هنالك ؟ ألم تكن لهيكل فى شبابه بباريس مغامرات جنسية ؟ الحقيقة أن ليس فى المذكرات شيء عن هذا الأمر ، اللهم إلاّ إذا حمّلنا الفقرة التالية التى كتبها أديبنا بعد عودته الأولى إلى مصر فى أوائل أغسطس ١٩١١م ما تطيق وما لا تطيق فأسأنا الظن وأطلقنا لتخيلاتنا العنان . يقول : « الحكايات التى يقصها إخواننا المصريون عن أنفسهم وعن مواطنيهم تدل على أن الواحد منهم لا يكاد يرى امرأة حتى يساوره نوع من الجنون يضيع معه عقله وتملكه حواسه فتدفعه إلى الحيوانية المجردة وتقوده ، لولا ما رُكّب فى طبعه المصرى من الحياء ، لأن ينقضّ على هاته التى أمامه فيأخذها بين يديه ويضمها إلى أحضانه وينهال عليها تقبيلا وعضّا . ولو أن المساكين عرفوا النساء وأنهن لا يحوين كل الخزائن التى تدفع شهوةُ الواحد منهم إياه لتقديرها في مخيلته لهدأت ثائرتهم وكانوا أبعد كثيرا عن الوقوع فى هذا الجنون الذى هم معرّضون له فى لحظة . ولكنهم يعيشون أغلب الأحيان فى مجرد الخيال من هذه الجهة ، والخيال تلسكوب يكبّر كل ما يقع أمامه فيبهر صاحبه ويستدعى كل انتباهه ، ولا يزال يزداد حتى تصل به الدهشة فتجعله يرتمى على موضع خياله بكل جسمه وقواه ، ومهما ظهر غيّرَ مرة كَذِبُ ما تخيل فإنه دائم الأمل فى أن يَصْدُق

الحلم مرة ويصل إلى ما يظنه موجودا »[1].

على أية حال فقد قضى هيكل أياما وليالى مرحة لذيذة فى باريس وغير باريس : فى الملاهى والمشارب والمسارح والحدائق والبيت . يشهد على ذلك ما كتبه بيده فى مذكراته هذه . ومن هنا فلسنا نتفق مع ما قاله د. محمد سيد محمد عن كاتبنا وحياته فى باريس من أنه « لولا طبيعته الانطوائية وحرصه الدينى لأمكننا أن نتصور مدى المرح والرخاء الذى يستطيع شاب فى مثل سنه وسعة عيشه أن ينغمس فيه فى باريسِ ما قبل الحرب العالمية الأولى »[2] ، فقد رأينا كيف أنه سرعان ما تخلص من خجله الذى أتى به من مصر واندمج فى الحياة الأوروبية . لكن تبقى هناك حاجة إلى مناقشة ما قاله الباحث عن الحرص الدينى لدى هيكل .

أول ما يقابلنا فى المذكرات من سلوك لكاتبنا ذى وشيجة بالدين هو ما ذكره فى يومية ١٢ يوليو ١٩٠٩م ، أى بعد مرور ستة أيام على فراقه لمصر ، من أن زميل غرفته بالباخرة قد ذهب إلى الحمام عقب استيقاظه من النوم ليغتسل ثم عاد وفرد عباءته وصلى

---

(١) ص / ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

(٢) د. محمد سيد محمد / هيكل والسياسة الأسبوعية / ٣٤ .

الصبح ، على حين بقى هو فى الغرفة إلى أن يحين دوره فى الذهاب إلى الحمام ، وهو آخر الأدوار . وقد وَصَف زميله بأنه « رجل طيب » [(١)]. وسياق الكلام يوحى بأنه لم يكن يصلّى . والمرة الثانية التى ذكر فيها الصلاة كانت فى يومية ١١ أغسطس ١٩١٠م ، أى بعد أكثر من عام ، وكان فى نزهة بالقارب على سطح بحيرة قريبة من أفيان بسويسرا ، والشمس جانحة إلى المغيب وقد حجبتها السحب أو كادت . وفيها يقول : « فى تلك الساعة لم أستطع إلا أن أشكر الله وأنا على ظهر الماء آمن مطمئن ، وتجلّى لى أن ليس من تجديف فى العالم هو أشد من هاته الصلوات التى يعملها الناس وقلوبهم مقفلة ، فى حين يفتح الله أمامهم قلب الطبيعة الهائل . تجلى لى كُفْرُ مدّعى الصلاح والزهد ولؤمهم » [(٢)]. إنّ هذه صلاةٌ روسُّوِيّة لا محمّدية ، وإن كنا نتفق معه فى أن العبادة القائمة على المراءاة لا تفيد صاحبها ولا يبالى بها الإسلام . بيد أن هذا لا يُعْفِى أصحاب القلوب الحية من تأديتها ، فهى فرض دينى . كذلك فإن تلك الأحاسيس الجياشة تجاه جمال

---

(١) مذكرات الشباب / ١٥ . ومع ذلك فسوف نلتقى بهذا الزميل (ع . ف .) فى يومية ١٠ يونيو ١٩١٠م « وقد ابتدأت رأسه تدور » بتأثير الشراب فى أغلب الظن حسبما يُفْهَم من السياق (ص / ١٦١) .

(٢) ص / ١٨٣ .

الطبيعة والقدرة الإلهية التى أبدعته هى بكل تأكيد دليل على سلامة الفطرة ويقظة الشعور الدينى ، لكنها رغم ذلك ليست بمغنية عن الصّلاة كما شرعها الدين من قيام وركوع وسجود وجلوس وتكبير وتسبيح وفاتحة ... إلخ .

أما المرة الثالثة (والأخيرة) التى ذكر فيها الصلاة فى مذكراته فكانت بعد ذلك بشهر تقريبا وفى ثوب تندُّرى : « كنا مع صديق يحكى لنا وقائع سُكْره وفتكه بالنساء . وكم كان ، جازاه الله ، حلوا فى حكاية وتنسيق زقائعه ، كما كان كثيرها إلى حدٍّ ما تصورته من قبل أبدا . وقال لنا كذلك سبب تركه الصلاة ، التى كان يحافظ عليها محافظة الناسك . ذلك أنه دخل مرة سكران والساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، ولم يكد يضع رأسه فوق مخدته حتى جاءه أبوه يناديه لصلاة الفجر فقام وأخذ دُشّا يطهّر به وصلاّها فانتابته حُمّى ظل فى أثرها شهورا فحلف من بعدها ألا يصلى ، إذ إنها الصلاة جاءته بها . ثم انتقلنا بعد ذلك لحديث آخر جاء فى خلاله أن تَلَوْتُ آية من القرآن فنظر إلىّ وقال : « أولاً أنت طاهر ؟ » . ذكّرنى ذلك بنادرة حلوة من مثل هذه : كنت فى إنجلترا وصديق يترافع عن الدين الإسلامى أمامى مرافعته أمام من لا يدين بذلك الدين . يدافع بكل قواه وينصر المبادئ التى قررها وأنا

أوافقه أغلب الأحيان فلا يزداد إلا حدة واندفاعا : « هو الدين الإسلامى أطلق للناس العنان وحلّهم من قيود كثيرة كانوا يرزحون تحتها وجعلهم أحرار الفكر يعملون بما يهديهم عقلهم ، كما ضمن لهم فى تعاليمه السيادة ووضع لهم قواعد محكمة ... إلخ ... إلخ » . فلما أنهكه التعب وجاء عليه اللُّغوب التفت إلىّ قائلا : الواحد تعب . تعال ياشيخ نأخذ كأس ويسكى »[1] . ولست أحسب هذا كلام شاب يصلّى . أما بالنسبة للشراب فأعتقد أن العبارة الأخيرة توحى بالكثير . ومثلها فى ذلك ما سجله فى يومية ١٠ يونيو ١٩١٠م ، حيث يروى لنا أنه نزل واثنان من أصدقائه فى منتصف الليل إلى حانة التاڤرن بباريس ، « فوجدناها هائصة بالشباب والبنات والموسيقى والدخان والطرب وأنصاص البيرة وكاسات الكنياك والوسكى وكل ما شئت من الكحول ... وجاء الجرسون بالمشروب ... وأخيرا نادى ع . ف .[2] بالجرسون وطلب منه شرابا جديدا ، وتجددت بذلك النشوة ... وقد ابتدأت رأسه تدور بعض الشىء ... » . وفى آخر السهرة « سكت ع . ف . ولم أشارك أنا بكلمة ، فدفعنا

---

(١) ص / ١٩٣ .

(٢) هو الصديق الذى فرد عباءته فى أول الرحلة فى قمرة الباخرة وصلى الصبح وهيكل باقٍ فى الفراش .

للجرسون ما علينا ثم قمنا نسير ، فإذا الشوارع خالية والجو هادئ جميل ويدعو للمشى الكثير . لكن ع . ف . لم ير نفسه قادرا على السير فتركنا وذهب ، وسرنا نحن الاثنان قليلا ثم افترقنا » (١) .
وكان معهم فى بداية هذه السهرة ثلاث فتيات تقول إحداهن عن زميلة لها كانت قد اقترحت أن يتبادلوا أماكنهم حتى تكون كل فتاة بجانب أحد الشبان : « أليست خبيثة هذه المرجريت ؟ هى تكسب من وراء انتقالها أن تلصق فخذها بفخذ شاب وتبقى تتبادل النظرات مع الآخر » ، فترد عليها مرجريت قائلة : « وأنت ماذا يضرك من وراء ذلك ؟ ألا يعجبك الشاب الذى تتبادلين النظرات معه ؟ وهلا يسرك أن تلصقى فخذيك بشابين بدل أن أكون أنا أحد جيرانك ؟ » (٢) .

فإذا أتينا إلى عقيدة هيكل فى تلك الفترة لمحنا اضطراباً وحيرة بل وشكّا وربما أيضا إنكاراً فى بعض الأحايين : إنه فى اليومية التى دوّنها فى الأول من أغسطس ، أى عندما لم يكن قد مرّ عليه شهران بعد ، يسجل لنا خلاصة ما قاله لهم مدرسهم الخصوصى فى اللغة الفرنسية عن تطور حرية الفكر فى فرنسا وأوروبا بدءاً بلوثر وكلفن ،

(١) ص / ١٥٨ ـ ١٦٤ .
(٢) ص / ١٥٨ ـ ١٥٩ .

ومروراً برابليه وديكارت ثم روسو وڤولتير ومونتسكيو ، وانتهاءً برينان حيث « أصبح أقل من القليل من يستطيع أن يسمح لنفسه أمام نفسه أن يعتقد أن الديانات وحى سماوى من عند الله أو أن الأنبياء يوحى لهم من السماء . إنما النبى رجل توحى له نفسه، وكل ما أوحت به النفس فهو مقدس » . ولم يذكر هيكل موقفه آنذاك من هذا الكلام سوى أن السكوت قد « علاه » هو وزملاءه على حدّ تعبيره . أما زميله ب. فقد بدا عليه الاستغراب مما جعل المدرس الفرنسى يشعر « بأنه كان سريعاً فى تقدمه أكثر مما يجب » فرجع وتناول الموضوع بشيء من الرفق والتدرج ، وبخاصة فى جوابه على اعتراض ب. عليه (١) .

ورغم ذلك فلا تمر أيام ثلاثة حتى نقرأ فى يومية أخرى ردّ الفعل لدى كاتبنا تجاه ما سمعه من مدرسه الفرنسى تفسيراً لظاهرة الوحى النبوى : « لحقنى ألم حين رأيت معنى الوحى الجميل على ما كنت أتصوره فى هبوط مَلَكٍ ذى أجنحة بيضاء عظيمة تغطى الكون وهى نورانية فتزيده نورا يتقلص ليحل محله معنى آخر هو النتيجة اللازمة لأقوالهم ولطول التفكير وللإحساس ساعات الوحدة العميقة بخلوص النفس من الجسم المادى الذى يثقلها ووصولها

---

(١) ص / ٦٥ ـ ٦٧ .

مجردة تجتلي الحقيقة تطلع على هذا العالم وما حواه وما أحاط به . وهذا المعنى هو الوحى ... ومن هنا يدخل إليها أحيانا اعتقاد جازم أن هذا الذى وصلت إليه جاءها من قوة فوقية كبيرة مصرّفة للعالم وما فيه ، أى جاءها من الله » . ثم سرعان ما ينتابه تردد أمام هذه الفكرة ، لكنه ليس ترددا خاصا بصحة الفكرة أو فسادها بل بمدى مصلحة الإنسانية فى إذاعتها أوْ لا . ورأيه أن من الخير للإنسانية أن تظل فى تصورها الحالى عن الوحى والاعتقاد بأنه ينزل من السماء ، وإن لم يكن هذا الرأى عنده من القوة بمكان (١).

وبعد هذا بنحو أسبوعين نقرأ فى يومية أخرى موجزاً لحديث المسيو هـ. ج. نفسه فى أصل الدين ، الذى عزاه إلى « ما رُكِّب فى النفس الإنسانية من الضعف وحاجتها أن تلجأ ساعات الشدة لسند ولو موهوم يعزّيها عن حالها ». ورغم ما ذكره هيكل من معارضته هو وزملائه لذلك فإننا نلمح بين السطور شيئاً آخر : « على كل حال فإن كلامه وحيرته مملوءان بالمعنى ويستدعيان تفكيرا عميقا بالرغم من شديد معارضتنا له أحيانا فى نظرياته » (٢).

وفى يومية أخرى (بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٩٠٩م) نجده يُرْجِع الإيمان والإلحاد إلى أسباب نفسية مقرِّراً أنهما يتعاقبان على مدار

---

(١) ص / ٦٩ _ ٧٠ .

(٢) ص / ٧٧ _ ٧٨ .

التاريخ : فمرة يسود الإيمان ، ومرة تكون الغلبة للإلحاد ... وهكذا دواليك [١] . لكننا نفاجأ به بعد ذلك بنحو عشرة أيام يردّ على المسيو هـ. ج. بأنه لو فُرِض أن كانت الألوهية لا أصل لها وأنها مجرد وهم وخيال فإن « من المجازفة أن تقول إنها لم تُفِد العالم إلا ضئيلا ، فإنّا نرى السواد الأعظم من الناس يعيش ويعمل ويجاهد ويجتاز وعث الحياة بقلب ثابت ويقدم الخير لإخوانه بنفس طيبة ، وهذه الفكرة وحدها سنده فى عمله والباعث له على فعل الخير ، وهى كذلك المانع الوحيد لكثيرين من الفقراء ، وحياتهم سلسلة ألم متصلة ، عن العبث بحرية الآخرين والاعتداء عليهم . ولا يُعَدّ مبالغا من يقول إنها هى التى تعطى للقانون قوته من هذه الجهة . ففكرة عظيمة كهذه تخدم العالم من الأزل إلى يومنا هذا أكبر وأجل خدمة تستحق المهابة والتقديس . كما أن محالا أن يسير العالم هذا السير العجيب على باطل . فهى من غير شك حقيقة ثابتة » . ثم فى نهاية اليومية يكتب هذه الكلمات : « كان الوقت قد أمسى وحان أن نقوم ، وكأن إخواننا جميعاً صاروا من رأى المسيو أ. ك. (وهو من المنكرين أيضا للألوهية والأديان) أو أنهم تعبوا من المناقشة فقمنا » [٢] .

---

(١) ص / ٨٤ .

(٢) اقرأ الحوار كله ص / ٨٩ ـ ٩٦ .

وتتوالى أمثال هذه المناقشات بين هيكل ومعارفه من الفرنسيين. وقبل أن ينصرم عام ١٩٠٩م بساعة نراه يطرح على نفسه الأسئلة التالية : « إلى أين يذهب العام الماضى ؟ وبم يجىء العام الجديد ؟ وبكلمة أخرى من أجل ماذا يعيش الإنسان ؟ ». وهو يجيب قائلاً : ما أشبه الإنسان يحيا ويعمل ثم يخلفه غيره ... بلفّة الطنبور فى المعرض الزراعى : يأخذ الماء من الحوض ثم يصبه ثانية فيه وما عمل شيئا . يومَ يُهْدَم الحوض يذهب عمل الطنبور . وأغرب ما فى الإنسان جنونه بالذكر الخالد . أليس هذا الذكر أشبه شىء برنة المعدن إذا دَقَقْتَه ؟ والحياة بما فيها من الأعمال هى تلك الدقة . فها هو المثل المحسوس أمامنا . أى شىء تستفيد الدقة من الرنين مهما طال أمده ؟ »[١]. وعن أبطال مسرحية روميو وچولييت، الذين كان مصيرهم جميعا هو القتل أو الانتحار ، نراه يقول : «رحمة بهاته الأرواح يا إلهى إن كانت تصعد إلى سمائك ! وإن كان للفناء مصيرها فما أقسى الوجود ! »[٢]. أتُراه ينكر الخَلود أو على الأقل يرتاب فيـــه ؟ على أية حال فلنقرأ معاً هذه الفقرة أيضا من يومية ٢٢ مارس ١٩١٠م : « أين ذهب هؤلاء الرومان الأقدمون ؟

(١) ص / ١١٢ .

(٢) ص / ١١٥ .

من يدرى ؟ ابتلعهم الفناء فى جوفه الهائل ثم قذف بهم بعد ذلك أشجارا وحيوانات وجسوما انتقلت هى الأخرى مرات إلى الظلمة ثم رُدّت فى أشكال مختلفة إلى نور الشمس الذى شهدها فى غيرها من غير أن يحسّ لها من أجل ذلك بفرح أو ألم » [١] ، وكذلك أيضا هذه الفقرة التى دارت بخاطره بعد مقابلته طفلا ألمانيا وتفكيره فيما سيكون عليه هذا الطفل عندما يكبر : « على كل حال هو سيخطو على الأيام خطواته حتى يصل للغاية الكبرى ، للموت . وسواء عمل كثيرا أو قليلا ومرّ تحت ستر الأيام أو هو هتكه فأمامه ذلك الآخر الذى ينتظر الناس جميعا ليريحهم من العناء الوبيل : أمامه الأبدية حيث الراحة الكاملة الدائمة » [٢] ، ثم هذه أيضا : « عَمَلُنا وسعينا وسرورنا وحزننا وشقائنا [٣] ، عقائدنا وأفكارنا ، حربنا وسلمنا ، كل ذلك راجع إلى لا شىء » [٤].

ثم إننا نَشِيم أيضاً عنده إيماناً بأن البشر ليسوا إلا أشباحاً مجبورة لا حول لها ولا طول فيما تأتى أو تدع : « من يدرى إذا لم نكن نحن فى عملنا على الأرض (إلا)خيالات مسخرة تعمل ما

---

(١) ص / ١٤٠ .

(٢) ص / ١٨٨ .

(٣) هكذا وردت ، وهى خطأ صوابه « وشقاؤنا » .

(٤) ص / ١٩٨ .

تريده القوة الخفية فى الكون ، وإن أحسّت أن لها وجوداً مستقلا ؟ أليس من الممكن أن يكون حقا ما يقال من أن الله خلقنا على صورته ، أى أنّا خيالات هاته القدرة الهائلة فنعمل ما تعمل ونتحرك بحركاتها ونسكن بسكونها ونظن خطأ أنّا نريد ما نعمل ؟ »[(١)].

كذلك نجده ينكر إنكاراً شديداً على كل من يريد « الرجوع لبناء عائلته على نظام العائلة العربية التى كانت موجودة فى صدر الإسلام » متسائلا : « ماذا كان نظام هذه العائلة ؟ » ، ثم يجيب بـ « أن الإصلاح يجب لينجح أن يكون أساسُه الحاضر وما يحيط بالحاضر من مؤثرات الوسط والمدنية » ، وأنه لو تدبر من يبغون العودة إلى الماضى « أمر العائلة القديمة العربية ونظامها النصف بدوى عند طائفة والترف الفاسد عند طائفة أخرى لما تاقت نفوسهم إليها . ولكنهم يسمعون أن بعض النساء عند العرب كن متفوقات فى الشعر وبعضهن كن يواسين الجرحى فى الحروب فيجىء إلى نفوسهم خيال غريب من هؤلاء النسوة ويريدون أن تكون العائلة المصرية كالعائلة العربية ، وكأن حياة العائلة يدخل فى نظامها قول الشعر أو مؤاساة الجرحى ». وهو يسمّى هذا التطلع إلى الماضى

(١) نفس الصفحة السابقة .

رجعية ويهاجمه هجوما شديدا [١] .

نخرج من ذلك بأن حالة الاضطراب والشكّ قد استمرت طوال يوميات باريس ، لا كما يصورها د. عبد العزيز شرف بأنها لم تمكث إلا بضعة أيام ، إذ كان هيكل ، كما يقول ، « قد التحق بمدرسة العلوم الاجتماعية العالية وأخذ فيها دراسات كثيرة متنوعة عن الاجتماع وعلومه وتلقى محاضرات فى الأدب الفرنسى واللاتينى فحصّل لنفسه ثقافة واسعة غنية . وقد أحدثت هذه الثقافة التى سبق الحديث عن ملامحها اللادينية فى نفسه مرحلة من الشك لا يتصل بالاجتماع ومثله وشؤونه ، بل يتعداه إلى أمور الدين . وحول هذا الشك يناقش فى يومياته بعض مسائل الدين والسياسة والحكم حسب مفهوماته الجديدة التى حصلها . وما يلبث هذا الشك أن ينقشع بعد أيام فنجده يذكر فى إيمان عميق أن « الكتب المقدسة أمل الإنسانية الكبيرة فى أن تصل إلى كمالها وتبلغ الغاية التى أعدّتها لها القدرة الإلهية » ... إلخ » [٢] ، بل إننا

(١) ص / ١١٦ .

(٢) د. عبد العزيز شرف / محمد حسين هيكل والفكر القومى المصرى / الهيئة العامة لقصور الثقافة ـ كتاب الثقافة الجديدة ٣٨ / أكتوبر ١٩٩٦م / ٤٤ . وجدير بالذكر أن اليوميتين اللتين اعتمد عليهما د. شرف فى كلامه هذا ونقل عنهما (وهما بتاريخ أول أكتوبر ١٩٠٩م و ١٥ أكتوبر من نفس العام) لا وجود لهما فى المذكرات المطبوعة .

نستطيع أن نقول إن هذه الحالة قد بقيت بعد المرحلة الباريسية بزمن طويل . وعندنا مثلاً مراجعة هيكل فى عام ١٩١٢م لكتاب جرجى زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، الذى أخذ على مؤلفه أنه لم يبحث عن « الأصول الأدبية التى استمد منها (القرآن) وجوده » ، وأنه لم يعرّفنا مثلا هل كانت سورة « يوسف » هى « أول ما جاء من نوعها أو أنها سُبِقَت (عند العرب) بغيرها من صورتها » [1]، وذلك رغم تأكيد القرآن للنبى عليه السلام أنه لم يكن له علم بها هو ولا قومه قبل هذا . كذلك فإننا نراه فى سنة ١٩١٦م يتناول حديثا منسوبا للنبى عليه السلام عن الشمس وأنها لا تشرق كل صباح إلا بعد أن ينخسها سبعون ألف ملك ... إلخ بطريقة تهكمية ، وهو ما أعاده فى كتاب « ولدى » ، الذى كتب فصوله فى أواخر العشرينات . وقد أفزع هذا د. محمد غلاب عند تناوله كتاب هيكل « فى أوقات الفراغ » فى سنة ١٩٣٢م فتحداه طالبا منه إثبات أن القرآن مستمدّ من أى مصدر بشرى حسبما يدعى المبشرون المضللون ، كما شكّك فى حديث الشمس وعدّه خرافة لا تصح عن النبى عليه السلام [2].

ومن اللافت للنظر أن حامدا (بطل رواية « زينب » ، التى

---

(١) فى أوقات الفراغ / ٢٣٨ ، ٢٤٠ .

(٢) انظر «محمد حسين هيكل فى عيون معاصريه» / ١٤٩ ـ ١٥٠ ، ١٥٢ ـ ١٥٤.

كتبها هيكل فى فرنسا وسويسرا فى تلك الفترة) يعكس هذا الجانب من شخصية المؤلف : فهو تارة مؤمن بالله ، وتارة يبدو وكأنه يتحدى الحساب ، وتارة لا يرى بَعْد الدنيا من شيء سوى العدم . وهو فى كل الأحوال لا يصلى ، وإن ظن الناس فى القرية أنه شاب متدين . حتى نظرته إلى الزواج تخالف تماماً نظرة الدين إليه . ثم إنه لا يكفّ عن تقبيل زينب واحتضانها كلما سنحت له سانحة ، بل إنه لَيُشْهِد الله ذات مرة على قبلةٍ أخذها منها (١) .

على أنه لا بد من القول بأن هذه كانت مرحلة فى حياة محمد حسين هيكل الفكرية والروحية انقشعت وعقبتها مرحلة أخرى اتجه فيها إلى الإسلام يدافع عنه وعن نبيه ورجالاته الأوائل النبلاء ، مؤكدا أنه لن ينقذ العالم مما يغمره من مصائب وقلق وشقاء إلاّ اتخاذه هذا الدين نبراسا هاديا .

ثم نتحول الآن إلى موضوع آخر من الموضوعات التى تبرز فى « مذكرات الشباب » بروزا قويا ، ألا وهو اهتمام هيكل الشديد بقضية الحرية والعدل الاجتماعى . يتضح ذلك منذ أول يومية كتبها

---

(١) انظر « زينب » / مكتبة النهضة المصرية / القاهرة / ١٩٦٣م / ١٣٠ ـ ١٣٢ ، ١٧٩ ـ ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٩٥ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ .

عقب وصوله باريس حيث يتحدث عن عيد الحرية ، الذى تصادف احتفال الفرنسيين به بعُيْد وصوله ، إذ يسمى سجن الباستيل « مستودع الظلامات ومُقَام الأحرار الذين خسف بهم الاستبداد » [١] ، وهى تسمية تَشِى بمدى كراهيته للظلم والظالمين. وبعد نحو عشرين يوماً نجده ، أثناء وصفه لرحلته إلى قصر لويس الرابع عشر فى فرساى ، يقف عند مظاهر العظمة التى يشتمل عليها ذلك القصر قائلاً إنها « بُنِيَتْ على أساس من دماء الفقراء والعمال » ، ومعلنا ابتهاجه بأنها « رجعت لتكون موضع سرور الفقراء والعمال وكل إنسان يريد أن يراها » [٢]. وعندما يدخل غرفة نوم ذلك الملك تسعده رؤية الناس من حوله فرحين مستبشرين غير وجلين « أن دخلوا غرفة الملك ولا يرتعدون خيفة أن يحكم عليهم بالإعدام أو السجن ، ولكنهم يقفون على بساط المساواة والحرية وقد أراق آباؤهم من أجلها دماءً شريفة غالية » [٣].

---

(١) مذكرات الشباب / ٢١ .

(٢) ص / ٣٧ . ومع ذلك فإنه يؤكد أن البؤس والشقاء لن يختفيا من الدنيا « ما دامت المدنية الحاضرة ، مدنية الطمع والشره للمال ، حاكمة فوق الأرض ... ، فإنه كامن فى تركيب هذه المدنية ولا يفارقها » (من يومية ٢٢ سبتمبر ١٩٠٩م / ص ٨٢) .

(٣) ص / ٣٨ .

وهو يوافق أناتول فرانس على أنه لا بد من تناول أى حكم صادر عن المحكمة بالنقد فى منتهى الحرية ، وذلك خلافًا للقانون الذى يحرّم على الناس التعرض لأحكام المحاكم [١].

كما أنه ينتقد المحافظين فى بريطانيا لوقوفهم ضد حرية النساء فى الخروج من البيت واحتراف المهن والوظائف المختلفة وعملهم على الاستبداد بهن والتحكم فيهنّ حسبما تمليه عليهم مصلحتهم، إذ يبقونهن فى البيت ليكنّ خدما لهم ويخرجونهن منه متى وجدوا سبيلاً لاستغلالهن [٢]. كذلك نراه يقف فى صف النساء فى مطالبتهن بحق الانتخاب أسوة بالرجال ، لأن ذلك يجعل الأمور أقرب للنظام والعدل والحرية [٣]. وانطلاقا من حبه للحرية أيضا نجده يفضل النظام الجمهورى فى الحكم على النظام الملكى [٤].

وعلى نفس الشاكلة يدعو هيكل بكل قوة إلى احترام حرية التفكير والتعبير . لقد زار متحف اللكسمبور بعد أسابيع قليلة من وصوله باريس ولاحظ ما تدل عليه الصور الكثيرة المتنوعة المتحررة

---

(١) ص / ١٥٢ .

(٢) ص / ١٦٨ .

(٣) ص / ١٧٠ .

(٤) ص / ١٩٤ .

التى يحويها من « تحلل الغربيين من قيود كثيرة لا تزال مقيدة بها النفس الشرقية مما يأخذ اسم الفضيلة والحياء » ، وعبّر عن إعجابه بهذا الاتجاه بقوله إن « النفس المحاطة من كل جانب بمظاهر الحرية تنشأ وتحيا وتموت حرة . والنفس الحرة قديرة على كل شيء ، قديرة على المعجزات » (١).

وهو يرفع صوته قويا بأن « من الصعب محاولة إرغام مفكر على أن يعتقد شيئا لأن الأغلبية تدين به . كما أن من الظلم الفاحش أن يُمْنَع صاحب رأى عن نصرة رأيه مهما خالف الجماعة فيه ، لأن تكوين العقيدة أو الرأى فى رأس المفكر لا يجيء إلا بعد أن يُعْمِل مخه ويُتْعِب أعصابه ويكابد أهوالا ، فمن العدل أن يُتْرَك له من الحرية ما يجعله يكسب حوله أنصارا أو معززين أو على الأقل أن يتعزى بإظهار ما فى نفسه للوجود » (٢). وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد فى دفاعه عن الدكتور طه حسين والشيخ على عبد الرازق فى أوائل الربع الثانى من هذا القرن عندما أصدر الأولَ كتابه « فى الشعر الجاهلى » والأخير بحثه عن « الإسلام وأصول الحكم » وهاجت الدنيا على كل منهما لما أتى به من آراء صدمت الكثيرين

(١) ص / ٧٥ .

(٢) ص / ١٩٧ .

بسبب مخالفتها لما هو مقرر عندهم .

وبالنسبة لحياته الشخصية نراه يؤكد لنا أنه يفضل « الفضاء الحرّ العظيم » على أن يكون « بين حوائط أربع » حيث يشعر أنه «فريسة للأفكار الفظيعة والخيالات المخيفة والأحلام المقلقة » . كما يقول إنه لا يخشى الفقر أبدا ، لكنه في الوقت ذاته يخاف أن يتغير عليه الزمان فيسلب منه ما يتمتع به من صحة طيبة يشكر الوجود عليها بنفس خالصة ، « إذ بها حريتى ومتاعى » ، ثم يختم بهذه الكلمات : « اليوم الذى تألمت فيه حقيقة هو حين مرضتُ أو ضُويِقْتُ فى حريتى » [1].

ولا ننسى أن هيكل كان واحدا من « الحُرِّيِّين » ، أى «الليبراليين» كما كان يسميهم أحمد لطفى السيد ، ثم أصبح عضوا بعد ذلك فى حزب « الأحرار الدستوريين » بل زعيماً له فى فترة من الفترات .

على أننى قبل أن أغادر هذا الفصل إلى الذى يليه أحب أن أنبّه إلى بعض الألفاظ والتعبيرات التى استخدمها هيكل فى مذكراته ولم تعد تستخدم الآن. فمن ذلك « المِرْقَع » (أى المصعد / ص ٢٨ ، ٢٩) ، و« المرسح » (بدل « المسرح » / ص ٥٩) ،

---

(١) ص / ١٨٩ .

و « تفكيرى دليل وجودى » (أى أنا أفكر فأنا إذن موجود / ص ٦٥)، و « الجمعية » (للمجتمع / ص ٩٦) ، و « تحت الأرض » أو « سكة حديد تحت الأرض » (وهو ما نسميه الآن «قطار الأنفاق» / ص ١٦٧ ، ١٢١ على الترتيب)، و «الكاتدرال» (الكاتدرائية / ص ١٣٣) ، و « الوابور » (القطار / ص ١٣٥) ، و « الأرينا » (أى الساحة التى كان الرومان يمثلون فيها مسرحياتهم / ص ١٣٨ ، ١٤٠) ، و « الأمفتياتر » (المدرّجات التى كانت حول الأرينا / ص ١٣٨) ، و « قطار ربيد » (أى القطار السريع / ص ١٦٥) ، و « توست » (عيش محمّص / ص١٦٦)، و « السَّنَة المكتبية » (أى السنة الدراسية / ص١٢٩. وكان هذا التعبير لا يزال مستخدما فى طفولتى) ، و «أنصاص البيرة» (ص / ١٣٨ ، وقد تكرر فى مواضع أخرى) ، و « القُروشيون » (أى المديون النفعيون الذى لا مبدأ لهم/ ص ٢٥٢) ، و « التِّيز » (le thèse ، أى أطروحة الماچستير أو الدكتوراه / ص ٢٥٣) [1].

ويلاحظ أن كثيرا من هذه الألفاظ قد كُتب كما هو فى لغته

(١) ومن الطريف أن ما اصطُلح عليه بعد ذلك بـ « صكوك الغفران » كان يسميه هو « عقود العفو » (ص / ٢٦٠) . لكن هذا التعبير إنما جاء فيما كتبه عن أدب اللغة الفرنسية مما لا يدخل فى المذكرات ، وإن نُشر معها فى نفس الكتاب (فى القسم الثانى منه الذى يضم إلى جانب ذلك بعض الموضوعات الأخرى).

ولم يترجم . وهذا راجع إلى أن اللغة العربية كانت فى ذلك الحين حديثة عهد بمدلولات هذه الألفاظ ، التى تحتاج وقتاً قبل الوصول إلى مرادف لها عربى . وعلى أية حال فهيكل فى مذكراته التى بين أيدينا كان يبارك اقتباس الألفاظ من اللغات الأجنبية كما هى عند الحاجة إليها ويهاجم بقوة من يعارضون ذلك ويصمهم بالرجعية [١].

www.books4all.net منتدى سور الأزبكية

(١) انظر « مذكرات الشباب » / ١١٧ .

هيكل روائيا

كتب هيكل روايتين هما « زينب » (فى بداية حياته الأدبية) و « هكذا خُلقتْ » (فى نهايتها) . وقد صدرت الأولى لأول مرة عام ١٩١٣م، وإنْ كان قد فرغ من كتابتها قبل ذلك بزمن غير قصير . ويرى عدد من النقاد أنها عمل رائد فى بابه باعتبارها أول رواية مصرية لا تهيم فى أودية الخيال أو التاريخ البعيدة الغريبة عن واقعنا ، كما يتوفر لها بناء فنى سليم متماسك إلى حدّ معقول. والواقع أن رواية هيكل ، رغم أهميتها وما توفر لها من عناصر البقاء كما سأبين فيما بعد ، ليست أول رواية مصرية بالمعيار المذكور آنفا ، فقد سبقتها بعض الروايات التى تستطيع بسهولة أن تجتاز أيضا هـذا المعيـار . مـن ذلك روايـة « فتاة مصر » ليعقوب صروف ، التى ظهرت سنة ١٩٠٥م ، أى قبل رواية هيكل بثمانى سنوات [١]. وقد قرأتها وأنا أحضّر رسالتى للدكتوراه فى أكسفورد فى السبعينات ووجدتها تعرض لبعض القضايا السياسية والدينية الشديدة الأهمية ،

---

(١) فى إحدى المناقشات التى دارت حول رواية « زينب » أثناء احتفالية المجلس المصرى الأعلى للثقافة الخاصة بالدكتور هيكل فى مكتبة القاهرة الكبرى فى ديسمبر ١٩٩٦م ذكرتُ هذه المعلومة ، إلا أن د. صبرى حافظ اعترض بشدة زاعماً أن صدور رواية صروف متأخرة عن « زينب » بزمن طويل . وعبثا حاولت أن ألفته إلى خطئه ، لكننى وجدت منه إصراراً على ما يقول مما دفعنى بعد أن عدت إلى بيتى ليلتها أن أراجع ما قلته فوجدته صحيحاً . وفى اليوم التالى وقبل أن ألقى بحثى لَفَتُّ نظر الحضور إلى ذلك ، لكن د. صبرى حافظ كان قد ترك القاعة . ويبدو أن أحداً قد نبهه إلى خطئه قبلها ، فلذلك انصرف .

إذ تقوم على ما أذكر على زواج فتاة قبطية من شاب إنجليزى يعمل فى مصر (فى عهد الاحتلال) ، كما أن أحد أشخاصها عالمُ دينٍ مسلمٌ عصرىٌّ الآراء والفتاوى اسمه الشيخ أحمد . وقد بدا لى أن المؤلف يرمز بهذا الزواج إلى ما ينبغى فى رأيه أن يقوم بين المصريين والإنجليز من رابطة دائمة تكون لبريطانيا فيها بطبيعة الحال الكلمة العليا ، أما الشيخ أحمد فأغلب الظن أن المقصود به هو الشيخ محمد عبده . وبالمناسبة فلم يحدث أن رأيت بعد ذلك هذه الرواية قطّ . كذلك قرأت رواية أخرى مصرية تتعرض للواقع المصرى آنذاك بأسلوب سلس بسيط وظهرت قبل رواية هيكل بسنوات . وهذه الرواية هى « عذراء دنشواى » لمحمود طاهر حقى[1] ، التى يُفْهَم من المقدمة التى كتبها لها صاحبها أنها نُشِرَتْ فى جريدة «المنبر» مُنَجَّمَةً سنة ١٩٠٦م ، وهى السنة التى وقعت فيها مأساة دنشواى موضوع القصة ، ثم جمع المؤلف فصولها ونشرها فى كتاب فى نفس العام . ذلك أن تاريخ المقدمة هو ١٥ يوليو ١٩٠٦م . ورغم ذلك يؤرخ يحيى حقى هذه الرواية بسنة ١٩٠٩م ، ولا أدرى لماذا [2].

ومن الروايات التى تعرضت للواقع المصرى بل والريفى أيضا ،

---

(١) عمّ الأستاذ يحيى حقى .

(٢) انظر « عذراء دنشواى » / وزارة الثقافة والإرشاد القومى / ١٩٦٤م / أ ، د.

وإن كان على نحو لا يخلو من سذاجة ، روايتا محمود خيرت : « الفتى الريفى » ، التى ظهرت طبعتها الثانية فى ١٩٠٥م ، و « الفتاة الريفية » ، التى صدرت فى ذلك العام نفسه [١].

وقد يمكننا أن نذكر هنا رواية جرجي زيدان « جهاد المحبين » ، التى قرأتها فى صباى . وهى تقوم على قصة غرام بين شاب و فتاة نصرانيين ، وتقع أحداثها فى أواخر القرن الماضى بين القاهرة وحلوان . ومع ذلك لا أجد ضميرى الأدبى يسخو بوضعها فى نفس المستوى من الأهمية والتوغل فى البيئة المصرية مع روايتى صروف وحقى .

وأَرْجَحُ الظن أن هناك روايات أخرى مصرية تصمد للمعيار الذى يرى بعض النقاد أنه يعطى « زينب » حق الريادة ، وإن كنت لم أطّلع على شيء منها بنفسى بل اعتمدت فى هذا الحكم على عناوين الروايات التى نُشِرَتْ قبل رواية هيكل .

والآن مع « زينب » ، التى قلنا إنها صدرت سنة ١٩١٣م . أى أنها قد ظهرت فى وقت كانت الرواية العربية لا تزال فى بدايات عمرها ، ومن ثَمّ فإن الناقد القصصى الآن لا يتوقع أن تكون هذه الرواية خالية من العيوب الكبيرة . ومع ذلك فمن الصعب أن يتخلى

---

(١) انظر د. عبد المحسن طه بدر / تطور الرواية العربية الحديثة / دار المعارف / ١٩٦٣م / ١٣٨ ، ١٤٦ ـ ١٤٧ ، ١٥٦ ـ ١٥٧ ، ١٦٤ ـ ١٦٦ ، ٤١٣ .

الناقد، وهو يتناول « زينب » ، عن المثال الأعلى لهذا الفن .

إن أول ما يلفت نظر الناقد مما فى هذه الرواية من مآخذ أن المؤلف لم يستطع أن يُخْفت صوته فبدا مسموعا بوضوح فى كثير من المواضع ، مما من شأنه أن يحطم لدى القارئ الوهم الذى ينبغى أن يعيش فيه وهو يقرأ أية قصة ، هذا الوهم الذى يخيل إليه أن ما يقرؤه ليس قصة مؤلفة ، وإنما هى حوادث حقيقية تقع لأناس يعرفهم بل يبصرهم ويبصر ما يحدث لهم بأم عينيه ، ويسمعهم وهم يتحاورون ويفرحون ويتألمون ، ويرافقهم فى وحدتهم فى ضوء القمر الساجى أو فى غرف نومهم والأرق يستولى عليهم أو والاحلام الوردية تداعب جفونهم ، هذا الوهم الذى من مهمة القصاص خلْقُه والذى هو المحكّ الحقيقى لموهبته وقدرته . ويخطئ من يظن ، كما ظن كولردج الشاعر والناقد الإنجليزى ، أن تلك مهمة القارئ ، الذى يقول إنه ينبغى عليه وهو مقبل على مشاهدة مسرحية أو قراءة قصة ما أن يطرح عن ذهنه عادته فى تكذيب ما لم يقع من حوادث وما ليس له من الشخصيات وجود : " suspense of disbelief " ، فإن المؤلف القدير هو الذى يخدّر القارئ ويجعله يتخلى عن هذه العادة من غير أن يتنبه لذلك أو يريده .

وهذا العيب يتخذ أشكالا مختلفة لعل أطرفها فلتة اللسان التى أخذت هيكل على حين غرة وهو يتحدث عن ليلة أرق فيها حامد : « فلما بزغت الشمس كان حامد نائما فى مرقده بعد ليل

أَكَدَّه وجاء على قواه ، ولم يَقُم إلا والنهار فى ساعة الزوال أو يكاد . فأخذ طعامه وحده ، ثم خرج إلى جهة المزارع ، حتى إذا كان على مقربة من أرض أبويا خليل جلس إلى ظل شجرة ينتظر أن تمر زينب كعادتها ... » [١]. فانظر كيف تحول الضمير فجأة فى « أبويا » من الغائب إلى المتكلم . إن هيكل يروى أحداث قصة يُفْتَرَض أنه ليس واحدا من أشخاصها (وإن كان حامد فى واقع الأمر يمثله هو شخصيا) ولم يشارك فى أحداثها من قريب أو بعيد . ورواية القصة بهذه الطريقة تقتضى من الكاتب ألا يقول : « أنا » أبدا أو يعلق على شىء يحكيه أو يبدى رأيا أو يظهر عاطفة تجاه أى شخص أو أية حادثة . وليس ينبغى أن يُفْهَم من هذا أن الكاتب ممنوع من بث أفكاره وآرائه فى القصة ، فما القصة فى نهاية المطاف إلا رؤية صاحبها للدنيا والمجتمع والناس ، بل المقصود هو أن عليه ، ما دام اختار رواية حوادثها بضمير الغائب ، أن يقول ما يريد من خلال شخصياتها ومواقفهم والأحداث التى تقع منهم أو لهم ، على شريطة أن يتم ذلك كله فى إطار من الواقعية ومنطق الحياة الذى نعرفه وأن تحتاجه القصة فى عملية التطور والنمو التى تمر بها الوقائع والشخصيات .

---

(١) زينب/ ٢٤٩ .

على أننا ينبغى أن نفرق بين فلتة اللسان هذه على ضآلتها (إذ المسألة فى الظاهر لا تعدو أن تكون تغير ضمير مكون من حرف أو حرفين) وبين فقرة كاملة قد تَقْصُر أو تطول يتحول تيار القصة عندها من السرد (الذى هو وظيفة الراوى ، أى المؤلف) إلى ما يشبه أن يكون « حوارا داخليا » تناجى فيه نَفْسَها الشخصيةُ التى كان الراوى يتحدث عنها . ولا شك أن هذا الحوار الداخلى يُحْسَب لهيكل ، إذ إنه فيما يبدو لى قد سبق بذلك عصره ، وإن أتى هذا العنصر الفنى ، فيما أرجح أيضا ، عفوا من غير أن يقصده (الذى أعرفه أن تيار الوعى كان شيئا جديدا فى القصة الفرنسية فى ذلك الوقت ، أما فى القصة الإنجليزية فلمّا يَكُنْ قد ظهر كعنصر فنىّ يقصده القصّاص قصدا . وأرجو ألا أكون مخطئا فى هذا) . ويمكن أن نجد مثالا على هذا (وهو قليل على أية حال) فى الفقرة التالية: « ها هو عيشى طيب راضٍ ، والحياة أمامى سهلة هينة ... إلخ »[1]، وكذلك فى الفقرة التالية : « فى أحضان زوجها ؟ ما أقساك ياليل ! »[2].

وهذا التدخل من المؤلف قد يكون تعليقا ساخطا على حال

(١) ص / ٢٤٤ .

(٢) ص / ٢٤٩ .

الفلاحين ، الذين يَشْقَوْن فى الحقول ليقطف ثمار شقائهم فى نهاية المطاف مالكُ الأرض ، الذى يستغل الفلاح نظير قوته الحقير ولا يدور بخاطره يوما أن يمد له يد المعونة ، غير عالم « أن هذا المجموع العامل يكون أكثر نفعا كلما زادت أمامه أسباب المعيشة وتوافرت عنده دواعى الطمع فى أن يحيا حياة إنسانية ... إلخ »(١).

إن هذا كلامٌ حَسَنٌ ، لا أمارى فى ذلك ، وإن لم يكن أكثر من كلام . ذلك أن حامدا ، الذى يمثل فى القصة هيكل ، لم يتصرف قطّ فى أى موقف من مواقف هذه الرواية تصرفا يدل على تعاطف حقيقى مع هذا الفلاح الشقى ، بل اتسمت علاقته به بالأنانية والاستغلال . ألم يكن كل ما كان يريده من زينب أن تسلمه جسدها يعبث به ، وإن خادع نفسه قبل أن يحاول أن يخدعنا عندما كان يضفى على هذه الرغبة الجنسية الآثمة غلائل من الخيال والعاطفة المجنحة والفلسفات العقيمة ؟ قلت إن هذا بلا ريبٍ كلامٌ حسنٌ ، بيْدَ أن جودة القصة لا تقاس بما فيها من كلامٍ حسنٍ بل بمدى نجاحِ الكاتب فى جعل هذا الكلام جزءا لا يتجزأ من القصة لا عضوا مُجْتَلَبا يراد زرعه فى جسد يرفضه ، وكذلك فى تجسيده فى تصرفات ومواقف طبيعية مقنعة أو إدماجه فى حوار حى متلائم مع شخصية قائله ... وهكذا .

---

(١) ص / ٢٢ ـ ٢٣ .

بل إن مثل هذا التدخل السافر قد يهبط أحيانا إلى درك تفسير كلمةٍ مثلا ، كالاستطراد أثناء وصف حصاد القمح إلى شرح كلمة « شراشر » على النحو التالى : « فقبضوا بشمالهم على سيقان القمح ... وباليمنى على شراشرهم تلك النصف الدائرة الحديدية ... إلخ »[١] . إن اللفظة فى القصة إما أن تكون مفهومة فلا داعى للشرح ، وإمّا أن تكون غامضة المعنى فعلى الكاتب فى هذه الحالة أن يستبدل بها غيرها ، وإلا فإذا كان مضطرا إلى إثباتها كما هى لدواع فنية ففى الهامش مندوحة لتفسيرها فيه . ذلك أن السرد القصصى لا يحتمل ما تحتمله المعاجم .

على أننا إذا كنا قد رأينا المؤلف ينسى أحيانا أنه ما دام قد اختار أن يقوم بوظيفة الراوى الذى يعلم بكل شيء فعليه أن يتجاهل أنه هو حامد ، فإنه فى أحيان أخرى يتطرف فى اتخاذ الموقف المضاد، إذ لا يعامل حامدا فقط على أنه شخص آخر (فهذا هو المطلوب) بل يجد من واجبه أن يعزّيه ويحاول التسرية عنه حينما يراه متألما شاكيا ، مع أن المفروض أن يظل خارج دائرة الانتباه تماما . ولنقرأ معا الكلمات التالية : « خفِّفْ عنك

(١) ص/ ٢٠ ـ ٢١ .

يا حامد ، فالخطب أهون من أن يبلغ بك اليأس ... » [١]. إن مثل هذا التدخل ، فضلا عن أنه خروج على مقتضيات الفن القصصى وتحطيمه لوهم القارئ الذى يخيَّل له أنه يشاهد أشخاصا حقيقيين ووقائع تحدث أمام عينيه ، هو تدخّل لا فائدة فيه ، فإن حامدا (بوصفه شخصية يتحدث عنها الراوى) لا يستطيع أن يسمعه (إذ المفروض أنه غائب) بل نحن الذين نسمعه ، فهو من ثَمَّ يخطئ إذا تدخّل أيا كان نوع التدخل .

وقد يتخذ هذا التدخل شكل التعليقات المسرحية ، كما هو الحال فى نهاية الفصل الخامس ، الذى هو عبارة عن خطابات متبادلة بين حامد وابنة عمه عزيزة ، إذ ينهيه المؤلف بهذه الكلمات: « نوتة : كل هذه الخطابات منقولة من مذكرات حامد » [٢].

ومن معايب السرد فى هذه القصة اضطراب زاوية السرد ، فبينما نجد الراوى يقص حكايته مركزا عدسة مصوِّرته على شخص ما إذا به ، فجأة وبلا سابق إنذار أو أى مسوغ ، يحول عدسته إلى شخص آخر لا يمكن أن يظهر فى نفس الصورة مع ذلك الشخص الأول فتخرج الصورة مشوشة لا تستطيع أن تحدد أهى لهذا أم لذاك، وإن كان الحق يقتضى أن أقرر أن ذلك لم يتكرر فى القصة كثيرا .

(١) ص/ ٢٢٦ .

(٢) ص/ ٢١٢ .

وأوضح مثال عليه وصف المؤلف لمشاعر حامد حين كان هو وزينب وحدهما فى الطابق الثانى لأحد بيوت القرية ثم تركها حين ناداه صاحب له فنزل السلم وأحس بتلك القداسة التى كانت تشمل كل وجوده حين لفه الليل وهو إلى جوار زينب ، إذ يقول هيكل : « وما لبث أن صار على الطريق من جديد حتى راجعته ابتسامته وصار يضحك هو وصاحبه »[١]. إن العدسة مركزة طول الوقت على حامد ومشاعره ، ومن ثم فنحن نفهم تماما سر ابتسامه . إنه يبتسم للذكرى القريبة حين كان وحده مع زينب يستمتع بوجودها إلى جانبه ، لكن العدسة فجأة تهتز فى يد الكاتب فتظهر فوق صورة حامد صورة صاحبه وهو يضحك . علام يضحك ؟ إننا لا ندرى ، ذلك أن هذا الصديق لم يكن يعلم بوجود زينب فى الطابق الثانى من البيت الذى ذهبا إليه ليشاهدا « الفكة » ، فالمفروض إذن أنه كان يجهل سبب ابتسام حامد . فإذا أراد الراوى أن يجعله يشارك حامدا الضحك فقد كان عليه أن يجعله يسأله عَمَّ يضحك ، فإذا صرح له بالسبب ووجده مضحكا ضحك معه .

كذلك فإن راوى القصة يسهو أحيانا عن مراعاة مبدإ «الانتقاء» ، الذى بدونه لا يستطيع أن يسيطر المؤلف على قصته

---

(١) ص/ ٤١ .

فتنمو نموا متوحشا وتخرج بذلك عن دائرة « الفن » . إن القصة ينبغي أن تكون تصميما محكما لا مجال فيه للاستطرادات العفوية، إذ الكاتب محكوم بألا يورد أى شيء لا يساعد على تطور الأحداث وتعقيدها أو يلقى ضوءا على ما خفى من جوانب شخصيات أبطاله... إلخ . وهذا هو أحد الفروق التى تميز عالم القصة عن دنيانا، التى يتوفر فيها الوقت والفراغ حتى لتستغرق الحكاية فيها أعواما ، ثم هى بعد ذلك ربما لا تبدو لها نهاية ، أما القصة فليس أمامها كل هذا الوقت بل لا بد من أن تصل إلى نهايتها فى مدة لا تزيد عن أيام قلائل أو ربما عدة ساعات من القراءة . كذلك فالقصة فن من فنون الأدب ، الذى تُعورِف على أنه يعوضنا فى عالم الخيال عما ينقصنا فى دنيا الواقع . ومما لا مماراة فيه أن دنيا الواقع تبدو لنا وكأنها لا يحكمها أى نظام ، إذ هى أوسع وأعمق وأطول من أن تستطيع نظرتنا البشرية المحدودة أن تستوعب كل ما تَعِجّ به من تفاصيل وجزئيات أو أن تراها فى إطار متناسق . ومن هنا كان على القصة أن تعوضنا عن هذه الفوضى بالتصميم المحكم بحيث لا تضم من الحوادث والشخصيات إلا ما كانت الحاجة تدعو إليه . فى ضوء هذا يمكننا أن نقرر ونحن مطمئنون أن معظم الصفحة الرابعة والستين وكذلك على الأقل نصف الصفحة التالية لها ينبغى حذفهما ، إذ يكفى جدا أن يحكى لنا الكاتب أن حامدا

وزينب ، فى عودتهما وحدهما من الحقل ، قد افترقا عند مشارف القرية . أما أن يمضى فيحكى لنا أنها حيّت امرأة من نساء القرية وثانية وثالثة ، ومرت على جماعة من الرجال كانوا يلعبون النرد ، وأن أحدهم كان يلبس طربوشا وجلبابا من الكشمير ... إلخ ... إلخ، فهو استطراد لا معنى له مهما تكن قيمته فى نفسه ، إذ الفن لا علاقة له بالنيّات الطيبة (انظر أيضا استطراده إلى وصف المسجد وكيفية إضاءته ، وقراءة الشيوخ الفانين ، على حد تعبيره ، الأوراد فيه ... مما لا علاقة له بمسار القصة) [١].

كذلك أود ألا تفوتنى الإشارة إلى أن البطل فى أحد الفصول القريبة من نهاية القصة يشير ، فى خطابه الذى تركه لأبيه قبل أن يغادر البيت ويختفى فى زحام الحياة ، إلى حادثة يقف عندها محاولا استجلاء مغزاها مما يدل على أنها ليست بالحادثة التافهة فى حياته ، وهو ما كان يستلزم من الراوى أن يذكرها قبل ذلك ، حتى إذا أشار إليها حامد كانت إشارته قائمة على أساس ولم تكن به حاجة إلى التلبث عند تفاصيلها ، ولم تكن كذلك روايتها بالنسبة لنا شيئا نؤخذ به على غرة ونشعر أنه قد اجتُلِب اجتلابا .

---

(١) ص/ ٧٥ .

أقصد وصفه لحادثة نقل العمال الطوب والمشاعر الجنسية التى أحس بها حامد ، الذى كان معهم فى ذلك الوقت ، نحو زينب ... إلخ[١].

على أن هذا الخطاب نفسه ، على النحو الذى كُتب به وبالموضوعات التى طرقها وما يُسَرْبِلُه من أفكار فلسفية ، ينال من قيمة القصة بوصفه شيئا غير واقعى ، إذ لا يعقل أوّلاً أن يكتب حامد خطابا مطولا بهذا الشكل (نحو ثمانى عشرة صفحة[٢]) من القطع المتوسط إلى أبيه ، الذى مهما يكن غنيا وله أولاد فى المدارس فهو فى نهاية الأمر شخص ريفى لا نعرف له أية اهتمامات ثقافية غير قراءة الصحف أو ربما مجرد الاستماع إلى ابنه وهو يقرؤها حين تَرِد من البندر آخر النهار . كذلك ليس من المعقول أبدا أن يجرؤ شاب مصرى فى أوائل القرن بل ولا الآن ، أو حتى يستسيغ ، أن يصف لأبيه مفاتن حبيبته الجسدية وبهذه اللغة الأدبية المتحذلقة من مثل : « وهل رأيت فى حياتى كعينيها تَقَوَّسَ فوقهما حاجبان أشد نفاذا من السهم ، وعلى صدرها ثديان يوحيان رغما عن الثوب الذى يسترهما بكل ما تكنه فتاة فى ثديها من الشباب والرغبة ، وخصر رقيق فوق أرداف تزين عَبَل ساقيها ؟ »[٣] أو

---

(١) ص/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨ .

(٢) من ص/ ٢٦٦ إلى ص / ٢٨٣ .

(٣) ص/ ٢٦٧ .

يحلل له تقلب مشاعره وكأنه يمسك بمسبار نفسى يرصد به ما دق منها وما جل ويفسره [١] مازجا ذلك كله بالتفلسف فى نظام الزواج : « وجعلت فكرة الزواج ، التى يتباهى بها الخلف عن سلفهم ويدعونها أحسن ما أظهرت على الأرض عقول بنى آدم ، موضع النقد المر (ولا أنكر إلى اليوم أنى أعدها نقصا خصوصا على ما هى عليه ، وأعد الزواج الذى لم ين على الحب ويستمر مع الحب زواجا خسيسا) ... أقبل الربيع يحيى القلوب ويبعث الشباب إلى كل موجود فنبه قلبى من غفلته ، وذكرت ريفيتى التى تزوجت أيام الشتاء فتمنيت لها الهناء . ثم راجعنى ذكر ابنة عمى واستولى على نفسى وكل حواسى ، وصرت لا أعرف غيرها ولا أحب إلا هى (كذا) ، ولا مطمع لى إلا أن تكون معى [٢]... وما أظن أن قلبا سريع التأثر والتقلب إلى هذا الحد يكون قد بلغ منه الحب مبلغا عظيما . بل إنى أشك الآن كل الشك فيما لو كان لقلبى دخل فى هذه المسألة وأحسب ذلك مجرد خيال كان يجيئنى لأنى كنت محتاجا إليه . ولكن أليس الحب فى ذاته خيالا يجعلنا نتصور امرأة بشكل نعتقده الجمال كله ونود لو تكون لنا ونعيش سعيدين معا ؟ » [٣]. ونفس الكلام ينطبق على ما أفضى به حامد لشيخ الطريقة [٤].

---

(١) ص/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .
(٢) ص/ ٢٦٩ .
(٣) ص/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣ .
(٤) ص/ ٢٦٠ وما بعدها .

بل إن اختفاء حامد قرب نهاية القصة على هذا النحو هو أيضا حَدَثٌ غير واقعى . فأين يذهب شاب مثله ؟ وكيف سيعيش وهو الطالب المرفَّه الذى تعود على أن يكفل له أبوه الثَّرِىُّ كل ما يحتاج؟ وكيف ييأس أبوه وأمه وإخوته من العثور عليه بهذه السرعة؟ وهل كانت مصر فى ذلك الوقت بالبلد الذى يمكن أن يختفى فيه شاب مثقف كحامد فلا يعرف أهله إليه طريقا ؟

كذلك ليس واقعيا أن تموت زينب بالسل لمجرد أنها قد حُرِمَتْ مرتين من إبراهيم ، الذى تحبه : مرة حين زوّجها أهلها بغيره (والغريب أنها حين شارفت حياتها على المغيب أخذت تعاتب أمها على هذا الزواج مع أنها لم تُبْدِ لهم رغبتها فى إبراهيم ولا ذهب إبراهيم يطلب يدها منهم ، فكيف يكون الذنب ذنبهم اذن ؟) ، ومرة حين سافر إلى السودان لتأدية الخدمة العسكرية . ذلك أن للسل أسبابه الطبيعية التى لم يسق لنا المؤلف منها سببا واحدا ، وإنما نفاجأ بهذا المرض اللعين ينشب فيها بغتةً أسنانه وأظافره حتى يشرب آخر قطرة من دمها . إن الإصابة بالسل ليست مستحيلة ولا مستبعدة فى مصر ذات الجو المعتدل بل والشديد الحرارة فى شهور الصيف ، ولكن كان على المؤلف أن يبين لنا من أين أتى هذا المرض الخبيث . وأكرر القول هنا إن الحياة تمتلئ حتى حافَتها بالحوادث التى لا نستطيع لها تعليلا ، ولكن القصة غير الحياة .

إنها فرصة لتعويضنا عن هذا العجز عن معرفة كل شيء . أما أن يلجأ المؤلف إلى مثل هذه الأحداث غير المفسرة كلما أعوزته المقدرة على أن يسيطر على زمام قصته فهو مما يسيء إلى عمله إساءة شديدة (هل أنا بحاجة إلى أن أعيد ما قلته فى مستهل هذا التحليل من أننى مدرك تماما أن هذه الرواية تنتمى للمراحل الأولى من تاريخ القصة المصرية ، لكن ليس سهلا على الناقد مع ذلك أن ينسى أن وظيفته إنما هى قياس العمل الأدبى إلى ما فى ذهنه من مثال أعلى ؟) .

ومن عجب أن شخصيات القصة ، برغم ما فى اللوحات الوصفية التى صورت ريفنا وحفظته للأجيال المقبلة من شاعرية عبقرية ، هى شخصيات ذات نزعة واقعية ، وذلك على خلاف ما يظن بعض النقاد ، فالحب بين زينب وحامد ، وكذلك بينها وبين إبراهيم ، ليس من ذلك النوع المجنح المرفرف فى أجواء الفضاء بل هو حب ينزل على نحوٍ ما على مقتضيات الغريزة الجنسية ولا يستطيع من ثَمّ أن يعبر عن نفسه إلا من خلال القبلات والأحضان. بل إن هيكل قد أغرق أحيانا فى وصف هذه القبلات والأحضان إلى حد مقزز . إن أحدا لا ينكر أن للمشاعر الجنسية حلاوتها ، بيد أن وصفها بالتفصيل الذى جرى عليه هيكل فى بعض مواضع قصته وتتبع دبيبها فى جسد الشاب والفتاة يقلب هذه الحلاوة إلى شيء منفر ، وقد يجلب الغثيان [1]. ومما يجلب الغيثان أيضا نزعة حامد

(١) انظر أمثلة ذلك فى ص/ ٩٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٣ .

المادية الأنانية ومحاولته تسويغ نيّله من يشتهيهن من بنات الريف (بدون التورط فى الزواج) بالتشدق ببعض الأفكار الفلسفية الفَطيرة التى تَقَمَّمها من هنا وهناك[١] . ومن العجب العاجب أن حامدا يأنس فى نفسه الجرأة على القول بأنه « من جماعة الذين يحتقرون الصلات التناسلية بين الرجل والمرأة ويعُدّون كل ما خرج عن سرور القلب ولذة الروح من حب طاهر أو قبلات متبادلة تدل على عظيم صلة ما بين شخصين تَدَنّياً إلى الحيوانية وإجراما ضد الأبرياء الذين نُنْزِلهم من أجل قضاء شهواتنا من أوج سعادتهم وسرورهم »[٢]، حامدا الذى لا يستطيع على مدار نحو ثلاثمائة صفحة أن يتحكم فى نفسه ، فهو ما بين حاضنٍ زينب أو غيرها أو أرِقٍ مسهّد لأنها منه بعيدة المنال .

حتى الهواء يضفى عليه الراوى أحاسيس جنسية ، إذ يقول عن حامد إنه « يسير حالما ذاهبا فى خيالاته إلا أن يستلفته جمال ما حوله أو الهواء يهب فيرفع من أطراف رؤوس الحَبَرَ فتصيح بعض الفتيات متلفتة تريد أن تتقى هذا المتحسس »[٣] . إنها كلمة واحدة، ولكن لها مغزاها[٤] .

(١) انظر ص/ ١٣٠ ـ ١٣٧ ، ٢٤٢ ـ ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ .

(٢) ص / ٢٧٦ . (٣) ص / ١٦٦ .

(٤) قارن ذلك بالأغنية التى تقول : « الهوا بَعْتَر ضفايرى ... عدّى وهدّا وفك العقدة وقام طاير »!

بل إن أخلاق الشخصيات وتصرفاتهم هى ، بوجه عام ، أخلاقٌ وتصرفات واقعية ، فحامد مثلا برغم حبه لزينب لا يفكر أبدا فى الخروج على مواضعات العرف الاجتماعى والزواج بها . ذلك أنها ، برغم استمتاعه بقربها ولهاثه وراءها وإضفائه هالة شاعرية عليها وعلى جمالها ، ليست فى نظره أكثر من فتاة ريفية فقيرة . وهو لا يكف عن ملاحقتها حتى بعد زواجها من حسن برغم أنها صدَّتْه قبْلاً متحجّجة بأن وضعها الجديد كزوجة يوجب عليها أن تبتعد عنه. أقول « متحجّجة » ، لأن خِطْبَة حسن لها ، وهو صديق إبراهيم، لم تمنعها من أن تترك هذا يقبّلها كلما اختلى بها [1] بل ولا منعها زواجها من حسن أن تغافله عشية سفر إبراهيم إلى السودان قرب نهاية القصة وتتسلل مع هذا الحبيب إلى غرفة فى أسفل الدار لتقبله وتعانقه كما تشاء ، وإن كانا قد مزجا هذه القبلات والأحضان بالدموع والحسرات [2].

على أن هذه الواقعية لا تعنى أن هذه الآثام كانت تمر من غير رد فعل من ضمائر مجترحيها ، فها هو ذا حامد تتعاوره النشوة ولذع الضمير من جراء ما كان يرتكبه من عبث مع الفتيات الريفيات [3].

---

(١) ص/ ١٢٦ .

(٢) ص/ ٢٣٦ ـ ٢٣٨ .

(٣) انظر مثلا ص/ ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ .

بل إن القصة لتوغل فى الواقعية إلى الحد الذى نرى فيه إبراهيم ، برغم لهفته الشديدة على مصارحة زينب بحبه لها وَهُمَا فى طريق العودة ساعة الغروب من الحقل ، يسألها أن تنتظره حتى يخطف ركعات المغرب على حد تعبير الراوى . ولكن ذلك لم يمنعه من أن يمسك يدها بعد ذلك وهما فى المصلّى بل ويضمها إليه منتشيا بجسمها الملتصق بجسده [1] . ولا بد هنا من التأكيد بأن قصة « زينب » هى من القصص المصرية القليلة التى نرى فيها أبطالها ، برغم أنهم شبان ، أى فى تلك الفترة الموارة بالشهوات والعواطف ، حريصين على تأدية الصلاة . وهذه سمة واقعية تُحْسَب لها ، إذ إن تأدية الصلاة ، وإن لم تكن تدل بالضرورة على قوة التدين، كانت ولا تزال من سمات المجتمع المسلم ، فتتجاهل القُصّاص عامدين متعمدين لها يضفى على المجتمع الذى تتناوله القصص المصرية غرابة غير مقبولة . والحقيقة أن المؤلف ، وإن كان جَعَلَ بطل قصته ، بتأثير قراءته فى الفكر الغربى المتحرر ، متأرجحا دائما بين الإيمان والإلحاد ، قد حرص على أن يأتى وصفه للقرية المصرية صادقا فلم يهمل ، فى غمرة انسياقه وراء وصف شهوات أبطاله وعواطفهم ، أن يصور تدين القرية المصرية على ضيق نطاق هذا التدين وسلبيته .

---

(١) ص/ ١١٦ ـ ١١٧ .

فإذا ما انتقلنا إلى تحليل شخصيات القصة لاحظنا كما لو أن زينب وحامدا لم يكونا يعرفان ماذا يريدان . إن من الصعب أن نعرف من القصة ، على الأقل قبل أن تتزوج زينب من حسن ، أكانت زينب تحب حامدا أم تحب إبراهيم ، أم كانت تحبهما معا ؟ وكذلك الأمر مع حامد وتوزع عواطفه بين زينب وعزيزة وغيرهما . ولست أنوى أن أفعل أكثر من سَوْق بعض النصوص التى توضح ما أقول مخلّيا بينها وبين القارئ من غير تعليق ، إذ الأمر لا يحتاج إلى تعليق :

« ... وبعد لحظة سألها : إزيك يا زينب !

ولكن زينب كانت فى تيهاء حتى لم تستطع تمييز ما يقوله لها حامد ، فحولت نحوه عينيها وأجابته بنظرة تحوى من الرقة والألم ما ذهب إلى أعماق نفسه . ولو لم يكن ما فى المكان من ظلمة ليل الشتاء آخر الشهر لذابت لهذه النظرة نفس الوجود ...

ـ وازيك يا زينب !

كرر حامد سؤاله وأخذ يدها وقبلها على صدغها قبلة أخوية . والواقع أنه أحس كأن الفتاة المسكينة تعانى ألما نفسيا لا يعزيها عنه أحد فأخذته الرحمة بها ، وتقبلت زينب ذلك منه بقنُوع وشكر نمّت عنه نظراتها . فلما رآها كذلك زاد عطفا عليها فجذبها وجعل

يلاطفها ، وهى قد تاهت عن نفسها ونسيت الماضى والحاضر ، واستسلمت للطفه ورقته وتركت نفسها مستندة عليه . لكنها لم تلبث أن عرّتها قشعريرة حين ذكرت أن قلبها ليس بيدها ، وفى لحظة غطت عيونها سحابة من الدمع تنمّ عما عرَاها من الحزن وتعبر عن عظيم تقديرها لحامد .

تمر علينا ساعات وقلبنا ملك غيرنا ، ولكن لثالث على نفسنا من السلطان ما نودّ لو أعطيناه كل حياتنا ، فيحزننا الإحساس أنها ليست لنا وأن أيامنا على الأرض وما تكنّه من سعادة وألم وحزن وفرح انتقلت من حوزة يدنا وأصبحت فى حيازة غيرنا » [1].

« والواقع أن زينب لما قامت بعد انتهاء « الفكة » ونادتها أختها جلست كذلك تفكر فى حامد وفى تلطفه فى السؤال عنها وأحست بهزة ميل نحوه . ربما كان صحيحا أن فى النفوس الإنسانية قِسْما إلهيا مطّلعا على ما لا تدركه الحواس هو الذى يهدينا فى آمالنا وميولنا ويرسم لنا طريق الحياة » [2].

« وكانت زينب تجد من السعادة فى كلام حامد ومحادثاته ما يُدْخِل إلى قلبها الهناء الجَمّ . لكن تلك الحاجة عندها لشخص

---

(١) ص/ ٣٩ ـ ٤٠ .

(٢) ص/ ٤٢ .

تعطيه نفسها (ذلك الحب التائه بين الناس وعوامل الخليقة والذى يريد أن يستريح ويريح معه روحها الثائرة بلُقْيا روح أخرى تختص بها وتهبها حياتها) كانت أبعد الأشياء عن حامد وعن التفكير فيه . فإذا مر بخاطرها فى ساعات هيامها كان ، كأى غريب عن روحها ، لا يثير من نفسها أقل التفات . وكأن النفس تطمح دائما فى بحثها عن محبوبها إلى شخص يعدلها فى المكانة لتجد من الحرية معه ما يضمن لها سعادتها ، أو كأنه ذلك الحنين بين أضلعنا إلى النصف الذى انفصل عنا فى الأزل يوم خرجت حواء من ضلع آدم يجعلنا ننظر إلى بنى طبقتنا وطائفتنا دائما كأنهم إخوان ، وبينهم وبيننا من الرابطة ما لا نعرفه قبل الطبقات الأخرى ، فنحن لهم وهم لنا ، وبين قلوبهم وقلوبنا من أواصر الود ما يدفعنا نحوهم ، فمنهم نطلب الصديق والشريك والمحب والزوج لأنهم قبل غيرهم موضع ثقتنا »[1] .

« كان ذلك أول الخريف والوجود يسلم إلى الماضى أيام النشوة والفرح ويأخذ عدّته لصمت الشتاء ، وحامد يرسل على الأراضى وإلى الناس نظرات الوداع ، ويسير جنبا لجنب مع زينب وقد تحركت نفسه وارتاع جنَانه ، وثارت كل حواسه أنْ ذَكَرَ فراقه القريب لتلك الأماكن المقدسة ، لتلك الطبيعة وبناتها ، ولم يملك لسانه أن

(١) ص/ ٥٠ ـ ٥١ .

يقول : وأنا مسافر بعد أسبوع !

وتلا ذلك نظرة تجلت فيها كل إحساساته وما يجيش بصدره أرسل بها إلى الفتاة ، التى لم تجب بكلمة بل أسبلت عيونها وكلُّها الأسى والحزن لذلك الفراق العاجل . وكأنما أحست بهذا اليوم القريب حين تصبح كغيرها من الفتيات ولا حامد إلى جنبها ... فلما انعطفا إلى طريق القرية ، وقد سبقا الآخرين وخلا بهما المكان، مالا إلى مرتفع من الأرض مختفٍ فجلسا فوقه . وبعد برهة أمسك حامد بيد زينب ثم ضم أصابعها ضما شديدا ، ولكنها بدل أن تتألم أو تتأوه أو تسحب يدها طوت هى الأخرى أصابعها على يده وضمتها، وحينذاك مال برأسه نحوها ، وفى شبه الظلمة المحيطة بهما وضع قبلة على خدها ، فما لبثت أن أحست بها حتى عرّتها الرعدة وتلفتت يمينا وشمالا ، فلم يفهم حامد من هذا شيئا وجذبها نحوه فطوقها بذراعيه وجعل يقبلها فى صُدْغها وخدها وعنقها وعلى القليل الظاهر من شعرها . والبنتُ ، كأنما أصابتها جِنّة ، قد استسلمت إليه وتضمّه من حين لحين وتقبّله ، ثم وضعت فمها على فمه وأسبلت عينيها وكاد يغيب رشدها . وأحس حامد فى تخدره كأنما يرشف من لسانها الشَّهْدَ المذاب . وفى هاته الضمة الكبرى تاه رشدهما وبقيا كذلك حينا من الزمن ...

ذكر حامد ذلك فى وحدته ثم سأل نفسه : هل عند الأيام من الجود أن تسمح له بمثل هذه الساعة من جديد ؟ وخيل إليه أن يذهب لوقته فيبحث عن زينب ويجدها أينما تكون . ولو علم ما شغل بالها اليوم وما تكنّ من الحب لإبراهيم لعرف ما بينه وبينها الآن من حجاب . وهل حجابٌ أقوى من الحب يُنسِى صاحبه الأشياء والناس إلا محبوبه وما فى القلب من ذكرى هذا المحبوب ؟ » [1] .

« ... غير أن حامدا يحب عزيزة ويود أن ينفرد بها » [2] .

« وأدهى من هذا وأمرُّ أنه ينتقل كل يوم من واحدة لصاحبتها وينسى الأولى لمرأى الأخرى ، فإذا غابت رجع إليها ، وإن رأى غيرهما من بنات جنسهما هان عليه أن يرتمى فى أحضانها ويسلم وجوده إليها .

تأتى عزيزة إلى البلد فيَعُدّ لقاءها أكبر الأمانى ويتغنى بذكراها ويأتى على محاسنها ، ثم يكتب إليها خطابات كلها الحب ويشكو ما عنده من الجوى واللوعة . فإذا هى تركت البلد رجع إلى زينب والتغزل بها ومقابلتها وسؤالها عن الأيام القديمة ، وإذا قابلته فى

---

(١) ص/ ٩٥ ـ ٩٧ .

(٢) ص/ ١٩٨ .

العاصمة فتاة حسب فيها محبوبا جديدا فتمشّى إلى صدره هواها ووجد من العذوبة فى سماع ألفاظها وفى النظر إليها ما ينسيه كل شجن . ما هذا كله ؟ وأى قلب قلبه الذى يسع حب كل هاتيك الفتيات الناضرات والزهرات اليانعات أمام عينيه ؟ أم أن لكل شهر من شهور السنة بل لكل يوم من أيامها من الأثر فيه ما يوجّه إحساسه إلى جهة جديدة ؟ كلا ، ذلك مرض عالق به متأصلة جذوره فى نفسه ، وأعماله تلك مظهر من مظاهر مرضه العضال » (١) .

ولست بالطبع أقصد من وراء هذا إلى انتقاد عواطف هذه الشخصيات وسلوكها ، إذ ما دام القَصّاص قد صور ذلك كله تصويرا واقعيا فيكفيه هذا ، وإن وَدِدْتُ لو أن الكاتب لم يغرق فى وصف الأحاسيس الجنسية والنيران التى كانت تلهب جسدى حامد وزينب ، إذ إن ذلك معروف لنا جميعا، سواء منا من استعصم بالعفة أو كان متزوجا أو أشبع غرائزه فى الحرام ، ومن ثم فإنه لا يزيدنا بالحياة ولا بالحب خبرة . وكل ما هنالك أنه يستثير الغرائز الجنسية ، التى لا يكسب أحد من وراء استثارتها شيئا . ومن العبث أن نفصل هذا الفصل الحاسم المتكلف بين الأدب (والفن بعامة) وبين الأخلاق ، إذ الإنسان الفرد وكذلك المجتمع كلاهما وحدة

---

(١) ص/ ٢٥٢ .

واحدة لا يمكن فصل الأخلاق فيها عن الفن والأدب . وليس من المعقول أن نعمل جاهدين على صيانة الأخلاق وترقيتها وفى نفس الوقت ندافع عمن يهدم هذه الأخلاق تحت شبهة أنه أديب وأن للأديب الحرية فى أن يقول ما يشاء . على أننى أحب أن أكون واضحا هنا فأؤكد أننى لا أدعو إلى أن يكون الأدب والفن أداتين من أدوات الوعظ والدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، بل كل ما أريده من الأديب والفنان ألا يعملا على هدم الأخلاق . ومن حقهما أن يصورا بعد ذلك ما يشاءان مما يريانه فى واقع الحياة . ولست أظن أنى بهذا أسلب منهما بشمالى ما أعطيتهما بيمينى ، إذ يمكن لكل منهما أن يجعل موضوعه مثلا الزنا ، على ألا ينفقا وقتا طويلا فى وصف تفصيلات بعينها ، إذ من شأن مثل هذا الوصف المفصل أن يخدر القارئ وبدلا من أن يرى فى الزنا إثما فظيعا يحس به شيئا لذيذا مغريا ، وبخاصة إذا كان الأديب من هؤلاء الكُتّاب الحريصين على إحاطة هذه الآثام بالهالات الشاعرية الكاذبة ، اللهم إلا إذا رد الكاتب من هؤلاء علينا بقوله : « وماذا فى الزنا ؟ » ، فهذا شيء آخر ، لأن المسألة عندئذ تخرج من نطاق علاقة الفن بالأخلاق إلى نطاق اختلاف القيم الأخلاقية نفسها بين الفنان أو الأديب من جهة وبين الناقد من جهة أخرى .

على أن هناك بعض التناقض غير المفهوم فى مشاعر بعض

أبطال الرواية وتصرفاتهم . فمثلا زينب ، التى تستحى من تخيل نفسها فى أحضان حبيبها إبراهيم [١] ، هى نفسها زينب التى لا تستنكف أن تترك حامدا يحضنها ويقبلها كما يشاء . بل إنها فى أول فرصة تطوق إبراهيم بذراعيها ويغيب رشدهما رغم أنهما كانا على مقربة من أختها وبقية الفلاحين ساعة القيلولة فى الحقل [٢]. وبرغم هذا لا يلبث الراوى بُعيد ذلك أن يعلق بقوله : « فإذا ما رأته هو (أى إبراهيم) جاءها حياء المرأة الطبيعى فأسلبت عينيها وتمتعت فى نفسها بلذة أشبه شيء بالسكر » [٣].

كذلك من الصعب أن نقتنع بأن فتاة ريفية جاهلة تقضى يومها كله فى الحقل لم تتردد على مدرسة أو تَتَرَبَّ فى بيئة متدينة يمكن أن تطوف برأسها هذه الصورة التى أراد الراوى أن يصف بها مشاعر النفور لديها من زوجها : « تؤمن بالسوء تحمله معها الأيام الآتية إيمانها بالنار وعذابها ، وكأنما دار ذلك الزوج الذى يريدون لها قبر تحتله زبانية الجحيم ، وكلهم ينظرون بعيون براقة يَقُدُّها خط من النار ذات اللهب » [٤].

---

(١) ص / ٥٢ .

(٢) ص / ٥٤ .

(٣) الصفحة السابقة .

(٤) ص / ٦٠ .

ومثلُ ذلك غرابةَ تقبيلُ حسن ، وهو شاب ريفى لا تمتد دنياه لأبعد من الحقل والفأس والمحراث ، يد زينب زوجته (ولم يكن ذلك مرة واحدة بل مرتين) ليسترضيها ويسترحمها ويُدْخِل على نفسها الواجمة البهجة والسرور [1].

ومن التناقض أيضا أن يشعر حامد بكل هذا التأثم بعد الذى حدث بينه وبين إحدى فتيات الحقل [2] مع أنه لم يفعل معها أكثر مما فعله مع زينب مرارا . انظر كيف يبلغ به الإحساس بالذنب لدرجة أنه « لما وصل إلى ترعة فى طريقه رمى بملابسه إلى البر ونزل إليها يطَّهَّر من رجسه ويستغفر الله من زلته ويرمى عن نفسه ذلك الذنب الكبير ، وكلما رأى امرأة سائرة استعاذ بالله من شرها واستنجد الملائكة الأبرار ضدها وكلّم السماء بصوت عال يصعد إليها وسط سكوت الهواء وسكونه » [3]. إن حامدا لم يكن متدينا فى يوم من الأيام ، ومع ذلك فإن الراوى يؤكد أن الناس يعرفون عنه الاستقامة والدين [4]. إنه لا يصلى [5]، بل إنه (على حسب الظاهر على الأقل) لا يؤمن بالآخرة ، فالموت عنده هو « ذلك الداء الأخير نرجع معه إلى العدم الذى خرجنا منه ، عدم الأبدية الخالدة » [6]. وهذا هو اعتقاد زينب فيما يبدو

(١) ص / ١٦٢ .
(٢) ص / ١٧٩ ـ ١٨٠ .
(٣) ص / ١٨١ .
(٤) ص / ١٨١ .
(٥) ص / ١٨٤ .
(٦) ص / ١٩٥ . وانظر كذلك ص ٢٤٦ .

أيضا [١]. بل إن الكاتب ليصوره ، وقد استولت عليه اللامبالاة، على النحو التالى : « يقلّب فى ضميره علّه يجد ما يؤاخذ نفسه به فلا يجد شيئا ، ويعمل ما كان يأنف منه من قبل فلا يجد الأسف إلى نفسه سبيلا. ولو أن الكون دُكّت قوائمه ، والقيامة قامت وجاء النشور وتجلى الخالق جل وعلا حتى بلغ الصراطَ لهبُ النار وأسمعت من قصور الجنة مسمعات الغوانى لما كان أمام ذلك كله إلا هازا رأسه مستغربا ما يأخذ الناس من الوَجَل » [٢]. صحيح أن هذه المبالغة ، التى لا أظننى أعدو حدود اللياقة إذا وصفتها بالوقاحة، هى من كلام الراوى ، بيْدَ أن تخيله رد فعل حامد على ذلك النحو له دلالته ومغزاه . ثم إن رأى حامد فى الزواج كنظام اجتماعى يخالف تماما نظرة الدين إليه [٣]. وهو أيضا لا يجد غضاضة فى أن يُشْهِد الله على قبلته لزينب [٤].

وما دمنا قد تناولنا رسم الشخصيات فمن المناسب أن نتحدث هنا عن لغة الحوار ، تلك التى ما زال الأدباء والنقاد واللغويون والمفكرون العرب يختصمون بشأنها . وبرغم أن كاتب هذه السطور من أنصار الرأى القائل بأن القصة ينبغى أن تكتب كلها سردا ووصفا

---

(١) ص / ٣٢٨ ـ ٣٣٠ .
(٢) ص / ٢٤٣ .
(٣) ص / ١٣٠ ـ ١٣٢ .
(٤) ص / ١٨٧ .

وحوارا بالفصحى ، مع استعمال لغة سهلة بسيطة فى الحوار قريبة من العامية ومطعّمة ببعض عباراتها ، فإننى أكتفى هنا بالإشارة إلى أن الكاتب قد جرى فى قصته هذه على كتابة الحوار بالعامية ، إلا أنه ينتقل فجأة فى أحد المواضع [١] إلى استخدام الفصحى ، مع أنه فى الصفحة السابقة على ذلك مباشرة وفى الحوار الدائر بين نفس الأشخاص قد استعمل العامية . ولا أدرى بالضبط سر هذا التغير المفاجئ . وربما كان لتحول الموضوع من مجرد ملاحظات ساخرة إلى نقاش عميق حول موضوع الزواج دخل فى ذلك ، وكأن العامية لا تستطيع فى نظر الكاتب أن تؤدى هذه الأفكار العميقة . وثمة ملاحظة أخرى فى هذا الصدد ، وهى أن كلام المتحاورين قد يطول مما يجعلنا نفتقد فى هذه المناقشات الحيويةَ التى نجدها فى الحوارات الأخرى . تصور مثلا أن حامدا يظل يتكلم صفحتين ونصفا [٢] من غير أن يقاطعه أحد ولو باستفسار أو استحسان أو حتى بكلمة عابرة تنبهنا إلى أن هناك من يستمع إليه .

أما فى حديثه إلى نفسه فإنه يستخدم الفصحى [٣]، وإن كان استخدام الفصحى هنا راجعا فيما أظن إلى أن معظم الكُتّاب

---

(١) ص / ١٣٣ .

(٢) ص / ١٣٤ ـ ١٣٦ .

(٣) ص / ١٨٢ ـ ١٨٤ .

قد درجوا على التعبير عن خواطر شخصيات قصصهم بها . ومع ذلك فلا شك أن هذا نوع من التناقض ، إذ الإنسان يستخدم فى تفكيره اللغة التى يتحدث بها .

وقبل أن نترك هذه النقطة لغيرها ألْفِتُ الانتباه إلى أن المؤلف فى الحوار يكتب الكلمات العامية عادة كما تُنْطَق ، وذلك مثل « وليّامـدْى » (والايام دى)[1] ، ومثل « بالصُّوط » (بالصوت)[2] ، ومثل « حبة مَوَرْد » (ماء ورد) [3]... وهكذا .

وبعد ، فإذا كانت هذه هى عيوب قصة « زينب » ، وهناك عيب آخر سأتناوله بعد قليل ، فما الذى يجعل القراء يقبلون عليها حتى اليوم هذا الإقبال الكبير ؟ يبدو لى أن هذا راجع إلى العوامل الثلاثة التالية :

الأول هو هذه الصورة الدقيقة والحية لريفنا المصرى فى ذلك الوقت . إن هيكل لم يغادر تقريبا شيئا من عادات القرية وأفراحها وألعاب صبيانها وحيواناتها وطيورها وحقولها ومزروعاتها وأسواقها وأعيادها وبيوتها ، وإن غابت عن القصة عدة أنواع من الطيور التى تعرفها القرية المصرية . لقد أكثر الراوى من ذكر القُمْرِىّ والقُبَّرة

---

(١) ص/ ٧٠ .

(٢) ص/ ٢٠٨ .

(٣) ص/ ٢٠٧ .

والعصفور ، وذكر أيضاً أبا فصادة (فيما تنبهت إليـه) مرة واحدة أو مـرتين ، وكـذلك الحال مع الحمـام . ولكن أين اليـمـام والغـراب والحـدأة والخـفـاش وأبو قـردان والبلبل والكروان وعـصـفـور الجنة والهدهـد ؟ اللهم إلا إذا كان بعض هذه الطيور قد اختفى مؤقتا من مصر فى ذلك الوقت كـما يحدث حينا بعد حين، فإن كـاتب هذه السطور لا يذكر أنه كان يرى الغراب فى السبعينات ، ومع ذلك فقد صـادفتُ عندما عـدتُ من الخارج فى أوائل الثـمـانينات عـددا من الأغربة على أرض الحرم الجامعى فكانت لرؤيتى لها بهجة كبيرة ، إذ أعـادتنى إلى طفـولتى فى الريف حـينمـا كنا نشـاهد هذا الطائر ونسمع نُعَابه فى كل مكان : على قمم الأشجار وفى الحقول وعلى الطرق الزراعية .

لقد وصف هيكل وصفا حيا دقيقا عَمَلَ الفلاحين فى الحقول، سواء وهم يجمعون القطن أو يُنَقّون الدودة أو يسقون الأرض بالطنبور أو بالساقية أو يزرعون البرسيم أو يحصدون القمح أو يدرسونه ، كما استطاع أن يجعلنا نشاهدهم عن كَثَبٍ وبوضوح بل ونسمع لغطهم وهم يتسلمون أجرة الأسبوع من الكاتب ليلة السوق. حتى المسجد لم يفت الكاتب أن يرسمه رسما كله حيوية برغم أن هذا الوصف بالذات لا يندمج مع بقية عناصر القصة اندماجا عضويا .

إن كل صفحة فى القصة تعكس شيئا من حياة الريف فى

الحقول أو فى داخل القرية والبيوت . حتى العشب الذى ينمو على ضفاف الجداول لم يَفُتِ الكاتبَ أن يقف عنده ويضعه تحت أبصارنا بطريقة نحسّ معها أننا يمكننا أن نمد يدنا ونلْمِسه لمسا .

وإنى لأوافق الأستاذ يحيى حقى موافقة تامة على أن « زينب » « لا تزال إلى اليوم أفضل القصص فى وصف الريف وصفا مستوعبا شاملا » ، لا أستثنى من ذلك ولا قصص المرحوم محمد عبد الحليم عبد الله نفسه ، الذى تجرى حوادث كثير من قصصه فى الريف والذى أبدع أيضا فى وصفه ، فإن إنجازه فى أية قصة من قصصه لَيُقَصِّر عما حوته « زينب » فى هذا المجال تقصيرا شديدا .

وهيكل فى رسمه لذلك كله إنما كان عاشقا مدلها فى حب الريف المصرى وجوّه وأهله وحيوانه وزرعه . لقد وصف القرية المصرية فى الفصول الأربعة على مدار السنة ، وهو فى أثناء ذلك لم تفته شاردة ولا واردة من التغييرات التى تصاحب هذه الفصول مهما دَقّت أو جلَت . وهو لم يفعل ذلك مرة واحدة فقط ، فإن زمن القصة يستغرق عدة سنوات ، ومن ثَمّ لم يصف الريف فى ربيع واحد أو خريف واحد أو صيف واحد أو شتاء واحد بل فى عدد من الأصياف والشتاءات والأَخْرِفَة والأَرْبِعَة ، وفى كل مرة يطالع القارئ شيئا جديدا لأن الراوى كان متيقظا أشد اليقظة لما يفعله مرُّ الغداة

وكَرُّ العَشِيّ بالمخلوقات جميعا أحياءً وجماداتٍ ... إلخ [١]. بل إنه لم يحدث ، فى حدود انتباهى ، أن جاء وصف غروب الشمس مثلا متشابها ولو مرة واحدة [٢].

بل بلغ من غرامه بالريف أن القصة امتلأت بالألفاظ والمصطلحات والتعبيرات الزراعية ، مثل « يِطْلَعوا بِالْوِشّ » (أى يصلوا إلى نهاية الحقل فيعودوا أدراجهم إلى أن يبلغوا نهايته من الناحية الأخرى) [٣]، و « أدوار المليّة » (أى الرى) [٤]، و « التّملّيّة » (وهم الفلاحون الأجراء)[٥] و « تجريد البهائم »[٦] و « الفايظ » (الرِّبا)[٧] ، و« التقويز » (والمقصود به التهكم اللاذع) [٨]، و « الفردة والمكسر » (وكلاهما من أجزاء الحقل التى يقسمه الفلاح إليها تسهيلا لعملية الرى بالذات)[٩] ،

(١) انظر مصداق ذلك فى وصف ليالى الصيف ص / ١٧ ـ ٢٢ ، ١١٠ ، ١١٩ ، ١٧١ ـ ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٤ ـ ١٨٥ .

(٢) يمكن للقارئ التأكد من ذلك إذا رجع إلى الصفحات التالية / ٦١ ، ٧٣ ، ٩٣ ، ١١٥ ، ١٢٧ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٧٠ ، ٨٧١ ، ٢١٥ ، ٢٢ ، ٢٢٣ ، ٣٢٢.

(٣) ص / ٢٩ .

(٤) ص / ١٣ .

(٥) ص / ١٥ .

(٦) ص / ٢٢ .

(٧) ص / ٧٢ .

(٨) ص / ١٨٠ .

(٩) ص / ١٣ .

و « خف الذرة » [١]، و « المناهدة » (أى الجدال المزعج) [٢]، و « الشرشرة » [٣]، و « السّلاميّة » [٤]، و « المستوكر فى الدار » (أى الملازم لها) [٥] و « النِّظك » [٦] ، و « الطريق المدقوق » (وهى الطريق التى مهّدها كثرة السير فيها) [٧] ، و « وسواس القطن » [٨]، و« البشت والدّفّيّة » [٩]، و « الوابور » (القطار) [١٠]، و « متأخر » (بمعنى « دنت ساعة وفاته ») [١١]، و « القروة » (طعام التعزية) [١٢] ، و « القُلْقيل » (كتل الطين الجامدة الصلبة) [١٣]، و « الربّة » (آخر بطن فى البرسيم ، وهى التى يتركها الفلاح فى الحقل حتى تجف فيحصدها ويدرسها ليحصل منها على بذرة الزرعة القادمة) [١٤].

هذا ، وقد لاحظت أن هيكل فى الصفحات الأولى من القصة كان يضع الألفاظ والتعبيرات العامية بين قوسين ، ثم أهمل ذلك فيما بعد سهوا أو استسهالا .

---

(١) ص / ١١١ .
(٢) ص / ١٦٩ .
(٣) ص / ١٧٨ .
(٤) ص / ١٧٧ .
(٥) ص / ١٩٢ .
(٦) ص / ١٩٤ .
(٧) ص / ٢٠٠ .
(٨) ص / ٢٢٣ .
(٩) ص / ٢٢٠ .
(١٠) ص / ٢٩٩ .
(١١) ص / ٣١٥ .
(١٢) ص / ٣١٥ .
(١٣) ص / ٣٢٦ .
(١٤) ص / ٣٢٧ .

وثانى هذه العوامل أن الشاعرية ترفرف بجناحيها على كل هذه اللوحات الجميلة التى رسمها هيكل للريف . خذ مثلا حقل القطن، وهو أبعد المناظر الريفية بطبيعته عن الشاعرية ، كيف وصفه هذا الوصف المبدع :

« كان ذلك أول الخريف ، والبنات فى قفولهن يتحدثن عن الجلابيب التى أَعْدَدْنَ أو يُعْدِدْن لجمع القطن ، ويحكين حكايات عن هاته الأيام الجميلة التى مضت حين كن يشتغلن باليومية ، ويَتَسلّيْنَ بالغناء عن تعب العمل فترتفع أصواتهن العالية المرتبة يحيط بها ضوء الشمس ثم تنتشر فى الهواء ، وتهتز أشجار القطن المتوجة بثمرها الناضج الناصع البياض يعطى المزرعة الواسعة معنى المشيب ، وكأنها فى اهتزازها قد أثار هذا الصوت شجنها فطربت وبعث إليها وهى فى منتهى حياتها سرورا لم تعرفه من قبل »[1]. إن خلع « المشيب » على حقل القطن لهو صورة جديدة وجِدّ موفقة ، إذ إن لوز القطن يتفتح فى الخريف ، والخريف يوحى بتقدم العمر وبداية المشيب . وفضلا عن ذلك فإن الكاتب قد مزج بهذه الصورة مشاعر الفتيات وأصواتهن وهن يعملن ، ثم هو لم ينس ضوء الشمس ، فجاءت الصورة مكتملة العناصر لوناً وخطّا وضوءاً وصوتاً وحركةً وإحساسا .

---

(١) ص / ٩٥ .

إن هذا كله لَيَدُلّ على مدى هُيَام هيكل بالريف المصرى . وهو هيام يرى هيكل من خلاله الطبيعة المصرية وكأنها أناس تحس بإحساس الفلاحين فتبتهج لأفراحهم وتأسى لآلامهم وأحزانهم . وقد يقابل المؤلف بين فرحة الطبيعة وأحزان أبطاله ليبرز هذه الأحزان إبرازا قويا شديد التأثير :

« جاء الخريف على كل ذى ساق ، ولم يبق إلا النبت الأخضر يغطى وجه البسيطة وقد انكمشت لمقدم الشتاء ، ومزارع البرسيم تذهب أمام البصر إلى اللانهاية ، وأقفرت الأرض من بنى آدم جماعة العمال وأصبحت مرعى للنَّعَم التى شاركتهم أيام نَصَبهم. وها هى ترتاح أن جادت عليهم الطبيعة ببعض الراحة فتراها فى رعيها وكأنها فى شهور عيدها ترفع رأسها ما بين آونة وأخرى ثم تزعق فتملأ أذن الطبيعة الصامتة . ويجيبها من الجو جماعة الطير من قَطَاةٍ أو قُمْرِيَّة تصُبّ من علوّها أغاريد الشتاء وتصدح بصوتها الرخيم الهادئ فتملأ أذن الطبيعة بما يُذْهب رَوْعها ويرد إليها هدأتها. ثم على مرمى النظر ترى عُشّا من الحطب الناشف أبيض لا غبرة عليه قد غسله المطر والريح »(١).

من هنا فإننا نستغرب اتهام بعض النقاد لوصف الطبيعة فى هذه الرواية بأنه وصف منفصل لا تربطه أية وشيجة بعواطف الشخصيات .

---

(١) ص / ٣٦ .

خذ مثلا :

« سمعت زينب من جديد ما يقال عن زواجها بحسن ... وكأن هذا النبأ قد بقى مختفيا طول الشتاء حيث لا خصب ولا نماء، فلما قدم الربيع استعاد حياته وظهر وانتشر فى الهواء . ومهما يكن من تناسيها إياه فى وحدتها ومن ذكرها الدائم لإبراهيم ومن تشعشع الحب فى نفسها فلقد كان يملك عليها ساعات يدس فيها سمومه ويفسد عليها طعمها . ثم لا تلبث أن تروح بأحلامها إلى جو مملوء بالحب يسرى فيه خيالها كما يحلو له ، وتسير إذ ذاك بين المزارع فَرِحة بكل ما حولها من جمال الوجود وتهيم بالنبات البديع والأشجار الكبيرة قد اتخذها الطير سكنا فهو يقف على فروعها المورقة هادئا مطمئنا ويصب من رفعته أغاريده الحلوة كلها الهيام والحب ...

وبقيتْ فى هاته الأحلام اللذيذة حتى أزعجها عنها تكرار ما يقالُ وسماعها إياه كل يوم ومن كل الناس فداخلها الأسى وأصبح ذكر إبراهيم يضيف مع مخاوفها آلاما إلى آلامها ...

فلما كانت فى بعض الأيام ، وقد سئمت الناس وحديثهم ووجوههم وكل شىء فيهم وتاقت للوحدة والابتعاد عنهم وعن شرورهم وسموم جمعيتهم ، خرجت بعد الظهر على وجهها تريد

الانفراد فى أية مزرعة كائنـة ما كانت فلم يبـق لها بين بنى آدم أنيس .

وقابلتها الحقول لأول ما خرجت قد نما فوقها القطن ولا يزال شجره صغيرا ضئيلا ، والأرض مكشوفة قد كستها شمس الربيع ترسل شعاعها وسط الجو الساكن الهادئ ، والسماء زرقاء صافية يلمع على سطحها العظيم النور الممتد على الوجود . وعلى مرامى النظر تقوم الأشجار تحف بالمزارع ، وقد ابتدأت ريح الأصيل تهز أوراقها فسلكت بينها سكة مدقوقة تركها النور بيضاء سمراء . ولم تَكُ إلا سُوَيْعَة حتى ابتدأ كل ما يحيط بها تدخله الحياة ويستفيق من غفوة الظهيرة ، وابتدأ يقطع صمتَ الجو الأخرس جماعةُ الطير من فروع الشجرة بعد مقيلها ، وتصدح بنغماتها العذبة فتضيف إلى الحياة الوليدة معنى السرور والبهجة ، ويحمل الهواء أغاريدها يوقظ بها الخليقة النائمة المحرورة . وهكذا تنبعث الحياة فى أجزاء الكون وتسرى السعادة فى جميعه : أرضه وسمائه وشجره وطيره وهوائه ، ولا يبقى تحت السماء مما تحيط به دائرة الأفق بائس محزون إلا قلب السائرة فى وحدتها » [1] .

ولن أقف هنا إلا أمام ربط المؤلف بين همود خبر زواج زينب

---

(١) ص / ٥٩ ـ ٦٠ .

من حسن أثناء فصل الشتاء وانتشار هذا الخبر نفسه مرة أخرى مع يقظة الطبيعة فى فصل الربيع ، وإلا أمام اختيار المؤلف الموفق لوقت القيلولة تخرج فيه زينب وقد أثقلتها الأحزان فيكون سكون الحقول وثقل حركة نباتاتها بل هجوعها تحت وقدة الشمس ملائما لما يثقل قلب بطلتنا من يأس . أما حينما تستيقظ الحقول مع مقدم العصر وتعود إلى مرحها وحيويتها فإن زينب تبدو وسط ذلك كله وحيدة غريبة لا تجد من يلتفت إليها ويعطف على آلامها .

ولا يفوتنّك مقدرة الكاتب العجيبة على تجسيد ما لا يُجَسَّد ، وعُدْ بنفسك إلى ما قاله عن ضوء الشمس فى النص السابق ترَ صدق ما أقول : « والأرض مكشوفة قد كستها شمس الربيع ترسل شعاعها وسط لجو الساكن الهادئ ، والسماء زرقاء صافية يلمع على سطحها العظيم النور الممتد على الوجود » .

وقد رأينا من قبل كيف أن الهواء ، حتى الهواء ، تُعْدِيه مشاعر شخصيات الرواية وشهواتها فيعبث بأغطية رؤوس الفتيات عبثا يجعل الكاتب يسميه بـ « هذا المتحسس » .

إن هناك تناغما بين شخصيات القصة (وزينب بالذات) وبين الوجود : « والقمر قد انحدر إلى المغيب ينظر إليها نظرة الصّبّ قد ناله الشحوب فهو ذاهل فى نشوته ، وأحاطت بذلك غيطان القطن

الأخضر ما يزال طفلا .

ها هى ذى زينب فى تلك السن ترنو إليها الطبيعة وما عليها بعين العاشق فتتغضى طَرْفَها حياءً وترفع جفونها قليلا قليلا لترى مبلغ دلّها على ذلك الهائم ثم تخفضها من جديد وقد أخذت مما حولها ما ملأ قلبها سرورا وأضاف إلى جمالها جمالا ورقة ، فزاد الوجود غراما بها وزادها به تعلقا ووجدا » [١] .

ولقد كان الكاتب موفقا غاية التوفيق حينما جعل السماء فى أواخر الرواية ، وقد خرجت زينب فى إحدى نزهاتها المنفردة قبل أن تموت بقليل ، تكفهر بالسحب وتهطل بالمطر . بل إنه جعل أيضا موت شيخ البلد وعويل النسوة عليه إرهاصا بدنوّ أجلها [٢] .

أما العامل الثالث وراء جمال هذه القصة وخلودها (ذلك أنى موقن بأن الأجيال المقبلة سترى فيها هذا الرأى) فهو نفوذها ، برغم أن المؤلف كتبها وهو لا يزال شابا فى السادسة والعشرين من عمره ، إلى سر الحياة وعقدتها بل مأساتها ، وهو كرُّ الغداة ومرُّ العَشِىِّ والبَشَرُ فى أثناء ذلك كله يَرَوْنَ سعادتهم فى متناول أيديهم فإذا مدُّوها فَرَّتْ هذه السعادة أمامهم فلم يستطيعوا عليها قبضا .

---

(١) ص / ٢١ .

(٢) انظر ص / ٣١١ _ ٣١٣ ، ٣١٥ .

إن الرواية تبتدئ وكل شيء بهيج سعيد ، وكذلك أبطال القصة ، إذ الآمال تحدوهم ، والاطمئنان يوشّى حياتهم ونفوسهم ، ولكننا ننظر فى نهاية القصة فنرى ماذا ؟ نرى زينب وقد حُرِمَتْ من إبراهيم وحامد فتحاول أن تحب زوجها الطيب الذى لم يسئ إليها ، بيد أن للقلوب لغتها التى لا يفهمها غيرها . ونرى حامدا وقد صَفِرَتْ يده من زينب وعزيزة كلتيهما . ونرى إبراهيم وقد طوحت به الأقدار بعيدا بعيدا عن حبيبة القلب . ونرى حسنا وقد غضبت منه زوجته الجميلة التى كان يحبها حبا جما والتى لم تكن تبادله هذا الحب بحب مثله . آه من الزمن الدوار الذى لا يبقى ولا يذر ، والذى لا نستطيع أن نوقفه أو نرده على أعقابه حتى نصلح أخطاءه أو نستدرك ما فاتنا ! تُرَى لو أن زينب تزوجت إبراهيم ، وحامدا اقترن بعزيزة ، وحسنا وجد عروسا أخرى يحبها وتحبه ، أكانوا سيظلون سعداء ؟ أكان الفلك الدوار قد أبقى على مشاعرهم وأسباب سعادتهم كما هى ؟ وأين يذهب الملل إذن وهو عنصر أصيل من عناصر الحياة ؟

ثم هناك الأسلوب ، وهو بعامة أسلوب جزل مُوحٍ فيهَ ثراء وتنوع وجِدّة فى الوصف والتصوير . ومما لا شك فيه أن الاقتباسات السابقة قد وضحته توضيحا لا يحتاج إلى مزيد بيان . ومع ذلك فإن لنا ملاحظات أخرى عليه :

فهناك الأخطاء النحوية والصرفية واللغوية والتركيبية من مثل

« أوراه شغله » (والصواب : « أراه ») [(١)]، و « الآلات مشتتة هنا وهناك » (وهو يريد « متناثرة هنا وهناك ») [(٢)]، و « لم يستمروا فى الكلام أن مروا بجماعة » (والصواب : « وما لبثوا وهم يتكلمون أن مروا ... إلخ ») [(٣)]، و « عرّت الجرداء » (وصحتها «عَرِيَتْ») [(٤)]، و « يسقط من أعلى الشجرة عصفور ... ويعتلى الشجرة من جديد » (والدقة تقتضى أن يقول : « يحط ، ويطير » [(٥)])، و « حتى ليكادوا » (وصحتها : « ليكادون » ، لأن اللام قد منعت « حتى » من نصب الفعل هنا)[(٦)] ، و «إخوانهم » (وهى غير دقيقة ، إذ المقصود « إخوته »)[(٧)]، و « أخذ مكانه من بينهم » (بزيادة « مِنْ ») [(٨)]، و «صمّم عزمه» (وهو تركيب غريب ، فإما أن نقول: « صمم » أو نقول : « عزم » ، أما الجمع بينهما على هذا النحو فيبدو لى غريبا) [(٩)]، و « جاءت إلى حلمه » (بمعني: « خطرت بباله ») [(١٠)]، و « التى لا نقدر أمامها دون أن نذهب في سكرات السعادة » (وهو تركيب متهافت

---

(١) ص / ١٥ .

(٢) ص / ٣٥ .

(٣) ص / ٤٨ .

(٤) ص / ٥٧ .

(٥) ص / ٦٠ .

(٦) ص / ٧٦ .

(٧) ص / ٨٩ .

(٨) ص / ١٠٤ .

(٩) ص / ١٠٦ .

(١٠) ص / ١٣١ .

يحتاج إلى تقويم بحيث يصبح هكذا : « لا نقدر أمامها إلا أن نذهب ... إلخ ») [١]، و « أن خانا عقدة كانت فيها يد الله » (وهى ركيكة، والمقصود أن يد الله قد اشتركت مع يديهما فى عقدة الزواج)[٢]، و « سعة سعادتهم » (ولا شك أن وصف السعادة بالسعة غير مألوف)[٣] ، و « الهواء الناشف » (والناشف عادةً صفة للأشياء التى تستطيع اليد أن تمسك بها ، فكان ينبغى أن يقول : «الهواء الجاف ») [٤]، و « وحامد وإن لم ... إلا أنه ... » (وهو خطأ شائع صوابه : « وحامد وإن لم ... فإنه »[٥])، و « الشُّبه مظلمة » (وصوابها « شبه المظلمة »)[٦]، و « كان ما أحلى ذلك » (وصحتها « ما كان أحلى ذلك»)[٧]، و « نحن بنو آدم بين الملائكة والبهائم » (وصوابها : « نحن بنى آدم ... إلخ ») [٨]، و « ما كان ذلك ليدعها أن تحسب فىَّ صديقا » (والمراد : « ما كان ذلك ليجعلها تحسبنى.. »)[٩]، و « فى محاجرها الجميلة » (وهو خطأ وخشونة ذوق ، إذ المقصود: « من عيونها الجميلة»)[١٠]، و « ارتفعت زينب من مضجعها »

(١) ص / ١٤٥ .

(٢) ص / ١٤٩ .

(٣) ص / ١٦٠ .

(٤) ص / ١٦٦ .

(٥) ص / ١٧٩ .

(٦) ص / ١٨١ .

(٧) ص / ٢٠٤ .

(٨) ص / ١٨٤ .

(٩) ص / ١٨٧ .

(١٠) ص / ٢٣٨ .

(وهو غير دقيق ، وصوابه : « قامت » أو « نهضت » مثلا)[١].

وهناك ألفاظ يَلَذُّ المؤلفُ استعمالَها دائما ، ككلمة « الناشف » ، التى رأيناه يصف بها الهواء ، كما وصف بها المآقى فى موضع آخر: « مآقيها الناشفة » [٢]، وككلمة « هاته » ، التى استعملها دائما مكان « هذه » ، اللهم إلا مرة واحدة فى حدود ما أذكر ، وككلمة « الحصيد » ، التى استخدمها حينا بمعنى «الحصاد» [٣]وحينا آخر بمعنى « الأرض المحصودة » [٤]، وككلمة « الجمعية » ، التى تعنى عنده (وفى كتابات معاصريه أيضا فيما أذكر) « المجتمع » ، وإن كان قد استخدمها مرة بمعنى « الاختلاط بالناس » [٥]، وككلمة « تيهاء » ، التى تكررت كثيرا جدا .

على أن عنده تركيبا قد جاوز غرامه به الحد المألوف ، إذ إنه يفضل استخدام جملة الحال بدل النعت أو العطف حتى حين يكون هذان أوقع . وهذه أمثلة على ما نقول : « ثم يحمل ذلك كله عنقه الغليظ القصير قام فوق قفص قوى عاش كل هذا العمر... » [٦]، « وإن كان زعبوطه هو الزعبوط لا يعرف ابنه

---

(١) ص / ٢٩٣ .
(٢) ص / ٣٣٢ .
(٣) ص / ١٧ .
(٤) ص / ١٥٩ .
(٥) ص / ٥٩ .
(٦) ص / ١٧٠ .

أيانَ يبتـدئ تاريخه » [١]، « ما هـذان العجـوزان أكـل عليـهما الدهـر ؟ » [٢]، « وفاضـت عليهمـا السعـادة لا يقدرانهـا » [٣]، « والوجود يتقدم نحو الربيع بدأ يزول عنه القطوب » [٤]، وغير ذلك كثير جدا .

إن الغرام بمثل هذا التركيب هو مظهر من مظاهر الحذلقة التى كان ينبغى أن يتخلص منها أسلوب القصة ما أمكن ، إذ هى تناقض ما يهدف القصاص إلى خلقه من جو واقعى ونغمة طبيعية .

وفى الختـام أحب أن أوكـد أن هيكل ، على عكس مـا ادعى يحيى حقى ، لم يغالط نفسه حين ذكر فى مقدمة الطبعة الثانية من « زينب » أن الريف المصرى عنده أجمل كثيرا من الريف الأوروبى . وأرجو من القارئ أن يرجع إلى كتاب المؤلـف الذى جعـل عنوانـه « ولدى » والذى حكى فيه رحلته هو وزوجته لبعض البلاد الأوروبية تسليا عن فقد ابنهما ، فإن كلامه فى وصف انبهاره بمظاهر الجمال فى ريف هذه البلاد لا يلمس قلوبنا بنفس القوة التى يلمسهـا بهـا وصفه للريف المصرى فى روايـة « زينب » علـى رغم أن أسلوبه فى « ولدى » يبلغ قمة التجويد والصقل . ذلك أنه ليس مقبوسا من نار القلب التى قبس منها وصفه لريف بلاده .

---

(١) ص / ٧١ .
(٢) ص / ٨٣ .
(٣) ص / ١١٩ .
(٤) ص / ١٣٩ .

وقبل أن نترك « زينب » إلى « هكذا خُلقت » ، التى صدرت سنة ١٩٥٥ لا بد من بعض التريث عند نقطتين :

الأولى ما ذكرته د. منى أبو سنة فى بحثها « رؤية أدبية مصرية للمرأة الريفية » (الذى قدمته فى احتفالية المجلس المصرى الأعلى للثقافة الخاصة بالدكتور هيكل فى ديسمبر ١٩٩٦م) من أن « الحرام » قد تحكم فى مصير بطلة الرواية ، إذ أصابها السّل وماتت[١]. والباحثة بهذا الاستنتاج تُغْرِق فى النَّزْع ، فزينب لم تجترح الزنا قط . صحيح أنها قد تبادلت القبلات مع حامد وإبراهيم ، بيد أن المؤلف قد خلع على هذه القبلات فى معظم الأحوال غلالة رومانسية ، وجعلها مظهراً من مظاهر الحب الطاهر بل أشهد الله عليها أيضا فى بعض المواضع . ثم إن هيكل إنما جرى فى إماتة زينب فى روايته على نهج بعض الكتاب الرومانسيين الفرنسيين فى بعض أعمالهم الروائية ، كما فعل إسكندر دوماس (الابن) فى روايته « غادة الكاميليا » ، وذلك رغبةً منه فى إثارة حزننا عليها لا فى معاقبتها أو تجريمها على الأقل . فكلام

(١) انظر ملخصات الأبحاث الخاصة بـ « ندوة محمد حسين هيكل وجهود الاستنارة المصرية » / المجلس الأعلى للثقافة / ديسمبر ١٩٩٦ / ٦٨ . هذا ، وهناك تفسير آخر لموت زينب المأساوى بوصفه احتجاجا دراميا على قهر المرأة وتقييد حريتها فى أمر زواجها . وهذا الرأى هو رأى الأستاذ يوسف الشارونى (المرجع السابق / ١٠٤).

الباحثة إذن عن الحرام والتابو ودوركايم وفرويد مجرد قوالب محفوظة لفظًا ومعنى ، وهو كلام لا موضع له هنا ولا علاقة له بالرواية على أى نحو .

أما النقطة الثانية فهى قول د. فاطمة موسى فى بحثها الذى قدمته لندوة هيكل المذكورة إن الباحثين فى تاريخ الرواية المصرية يرون أن « زينب » قد ظلت عَلَماً منفرداً فى تاريخ الرواية فى مصر ، التى ظلت مرتبطة بالمدينة منذ أن كتب هيكل روايته إلى ما بعد ثورة ١٩٥٢م وصدور قوانين الإصلاح الزراعى ، فظهر عندئذ عبد الرحمن الشرقاوى ويوسف إدريس وغيرهما من الروائيين الذين صوّروا الريف فى أعمالهم وتناولوا مشكلات الفلاحين [١] .

والحقُّ أن الأعمال الروائية التى تدور حول الريف ومشكلاته لم تنتظر حتى ظهور الشرقاوى وإدريس ، فقد ظهر لعصام الدين حفنى ناصف فى الثلاثينات رواية ثورية عن الفلاحين والإقطاع بعنوان « عاصفة فوق مصر » [٢] ، وهى رواية مشهورة لا ينبغى أن تغيب عن أذهان الباحثين ، مثلما لا يمكن أن تغيب عن بالهم « يوميات نائب فى الأرياف » لتوفيق الحكيم [٣] أو « البوسطجى» ليحيى حقى [٤] أو « سيد العزبة » لبنت الشاطئ [٥](وهى تدور حول الأوضاع

---

(١) المرجع السابق / ٩٠ . (٢) ظهرت سنة ١٩٣٩م .

(٣) صدرت فى ١٩٣٧م . (٤) صدرت سنة ١٩٣٤م .

(٥) صدر سنة ١٩٤٤م .

الإقطاعية الجائرة فى الريف آنذاك) أو أعمال محمد عبد الحليم عبد الله المبكرة التى ظهرت قبل «الأرض» للشرقاوى و « الحرام » و « العيب » ليوسف إدريس ، وذلك غير الروايات التى تدور حوادثها بين الريف والمدينة ، مثل « عودة الروح » للحكيم (١٩٣٣م) .

ثم ننتقل إلى رواية هيكل الثانية والأخيرة « هكذا خلقت » ، التى تتشابه مع روايته الأولى فى أنها تدور أيضا حول فتاة كبرت وتزوجت ، وإن كانت (على عكس زينب) قد نالت قسطا غير ضئيل من التعليم ، وتنتمى إلى طبقة الأغنياء ، وتعيش فى المدينة ، وامتدت بها الحياة حتى تزوجت مرتين ومات زوجاها وأصبحت أمّا وجدة . كما تتشابه الروايتان فى أن فى كل منهما ذكرا لبعض الكتب المهمة التى كان لها تأثير شديد فى تطور الفكر والذوق الأدبى وقتها . ومن الكتب التى ذُكِرت فى الرواية الأخيرة «التربية» و « المرأة الجديدة » و « عيسى بن هشام » .

أما اختلاف الروايتين فيتمثل فى أن راوى « زينب » ، كما رأينا ، هو الراوى المطلع على كل شىء من أحداث وأفكار ومشاعر ، أما راوى « هكذا خلقت » فهو بطلتها نفسها . ليس ذلك فقط ، بل يذكر د. هيكل فى مقدمتها أنها هى التى كتبتها بقلمها ، إذ إنها (كما قال لنا فى نفس المقدمة) رواية واقعية بالمعنى الحرفى

لهذه الكلمة ، أى رواية وقعت فعلاً لامرأة حقيقية . فأما أنها رواية حقيقية فقد أخبرنى ابنه الأستاذ أحمد هيكل فى بعض ما دار بيننا من أحاديث على هامش احتفالية والده رحمه الله أن بطلة الرواية هى سيدة من معارف الأسرة . لكن هذا شىء ، والاقتناع بما قاله د. هيكل من أنها مكتوبة بقلم هذه البطلة شىء آخر . ذلك أن الأسلوب الذى صيغت به هو هو نفسه أسلوب الدكتور هيكل كما حلّلته فى نقدى لرواية « زينب » وفى دراستى لأدب الرحلة عنده . إنه أسلوب الدكتور هيكل بشحمه ولحمه ويستحيل أن يكون لشخص آخر ، فضلاً عن أن يكون هذا الشخص امرأة ، إذ لا توجد امرأة ، حتى لو كانت أديبة كبيرة ، تستطيع بسهولة أن تكتب بمثل هذا الأسلوب الفحل الذى كُتِبَتْ به الرواية . ويذكّرنى هذا الصنيع بما فعله المرحوم مالك بن نبى فى مفتتح كتابه « مذكرات شاهد القرن » ، الذى ترجم فيه لنفسه ، إذ قال (حسبما أذكر الآن ، بعد أن قرأت ذلك الكتاب فى ١٩٧١م) إنه كان يصلى العصر فى أحد مساجد مدينته فأحس بشخص يأتى إلى جانبه ويترك بعض الأوراق ثم ينصرف ، وهى الأوراق التى يتكون منها الكتاب المذكور . يريد أن يقول إن هذا الكتاب ليس سيرته هو الذاتية بل سيرة شخص آخر مجهول له تماما ، وإن لم يجهّل هيكل بطلته كل هذا التجهيل ، إذ ذكر أنها أرسلت إليه فى الفندق الذى كان ينزل فيه فتاة تحمل إليه أوراق قصتها .

وأحسب أن فلتة من فلتات لسان هيكل (أم هل ينبغى أن نقول « فلتة من فلتات قلمه » ؟) قد كشفت الحيلة ، إذ وجدناه يُعَنْوِن الرواية بالإشارة إلى بطلتها بضمير الغائبة : « هكذا خُلِقَتْ » ، مما يدل فى نظرى على أنه لم يستطع أن يمضى فى الحيلة إلى آخر المطاف وإلا لجعل العنوان « هكذا خُلِقْتُ » مثلا . على أن هذا ليس آخر ما ينبغى أن يقال فى هذه المَسألة ، إذ إن الواقعية كانت تقتضى أن يخفف د. هيكل من جزالة أسلوبه وفحولته كى يناسب شخصية البطلة ما دام قد لجأ إلى الحيلة المذكورة وأراد أن يوهمنا أنها هى التى كتبت قصة حياتها بنفسها .

ومما تختلف فيه الروايتان أيضا أنه فى الوقت الذى نجد كل شخصية من شخصيات « زينب » معروفة باسمها فإن شخصيات « هكذا خُلِقَتْ » كلها غُفْل من التسميات . وبالمثل فإن اللوحات الطبيعية الفاتنة التى تزدان بها رواية « زينب » تنعدم أو تكاد فى رواية « هكذا خلقت » ، إذ لا يوجد فيها من مناظر الطبيعة إلا وصف موجز لليلتين مقمرتين فى الصحراء قرب الأهرام حيث قضت بطلة الرواية مع زوجها وبعض أصدقائهما ساعات هنيئة ساحرة [١] . ومن الفروق بينهما أيضا اختفاء القبلات والأحضان ووصف الأحاسيس الجنسية من رواية « هكذا خُلِقَتْ » . كذلك فإنه إذا كانت زينب فتاة كسيرة الجناح مغلوبة على أمرها فإن بطلة « هكذا

(١) انظر ص / ١٣٨ ، ١٤٠ من « هكذا خلقت » / مطابع الأخبار / بدون تاريخ .

خلقت » امرأة قوية الشكيمة طاغية الشخصية استطاعت بغرورها وعنادها أن تحصل على كل ما تريد على رغم غرابته وقسوته الفظيعة فى غير قليل من الأحايين .

وبالمثل فرغم اشتمال كل من الروايتين على بعض النظرات الاجتماعية والنفسية فإننا نشعر أن هذه النظرات قد جاءت فى « هكذا خلقت » فى موضعها دون افتعال ، إذ تأتى على لسان البطلة راوية القصة منبثقةً من ظروفها الشخصية[1] لا مُجْتَلَبة اجتلابا على لسان راوى « زينب » المحايد الذى كان ينبغى عليه ألا يطلّ برأسه ويلفتنا إلى حضوره .

وإلى جانب ذلك فإن أسلوب هيكل ، الذى رأيناه يعانى فى أولى الروايتين من بعض الركاكة وتبرز فيه الأخطاء اللغوية ، قد صار فى الرواية الثانية أمتن وأصقل ، فاختفت منه الركاكة تماماً وتوارت أخطاء اللغة إلى حد بعيد [2]. كذلك فإن الحوار فى روايتنا هذه قد

---

(١) انظر مثلا ص / ٤٣ ، حيث تتحدث البطلة عن اتخاذ الرجل امرأة ثانية فى حياة زوجته الأولى أو بعد وفاتها .

(٢) وهذه هى الأخطاء التى تنبهت إليها فيها : « آويت إلى غرفتى » (ص/ ٣٧ ، وصوابها : « أويت ») ، و « تسيئنى بكلمة » (ص/٤١ ، بدلا من « تسىء إلىّ ») و « ليس ما به إلا سوء هضم بسيط » (ص / ٥١ ، وصحتها: « بسيطا » ، إلا إذا حملناها على الجوار كما جاء فى بعض الشواهد الشعرية القديمة) ، و « لا يكادون يروننا حتى يهتفون » (ص / ٥٨ ، بدل أن يقول : « حتى يهتفوا ») ، و « بإفاضة وحماسة يشهدان » (ص / ٦٣ ، وحقها =

صار يُكْتَب بالفصحى على خلافه فى « زينب » ، إذ هو فيها بالعامية ، اللهم إلا فى موضع واحد انتقل فيه فجأة من اللهجة العامية إلى اللغة الفصيحة حسبما بيّناً قبلا وقلنا إنه ربما كان لتحول موضوع الحوار من مجرد ملاحظات ساخرة إلى نقاش عميق حول الزواج دخل فى ذلك ، وكأن العامية لا تستطيع فى نظر الكاتب أن تؤدى هذه الأفكار العميقة . وفضلا عن هذا فإن كلام المتحاورين فى « هكذا خلقت » لا يطول إلى حد الإملال كما هو الحال مثلا فى ص / ١٣٤ ـ ١٣٦ من « زينب » ، حيث ظل حامد يتكلم على مسافة صفحتين ونصف لا يتوقف (ولو ليسعل مثلاً) أو يقاطعه محدثه . وأخيراً فإن هيكل لم يضمّن روايته الأخيرة أية ألفاظ أو تعبيرات عامية إلاّ كلمة واحدة فيما أذكر جاءت عَرَضاً وأراد الكاتب عن طريقها الإيحاء بشىء رأى فيما يبدو أن الفصحى لن تستطيع التقاطه .

وتدور رواية « هكذا خلقت » حول فتاة من أسرة غنية زوّجها أبوها (الذى كان قد تزوج بعد وفاة أمها بامرأة أخرى أنجبت له

= أن تكون « تشهدان ») ، و « لولا هذين الطفلين ... » (ص / ٩٩ ، واسم الإشارة هنا حقه الرفع على الابتداء) ، و « تكاد عيناه لا تنظر (بدل « لا تنظران ») لغيرى » (ص / ١١١) ، و « رفعتُ كفأى (يقصد « كفّىّ ») المرتعشتين » (ص / ١٩٩) .

طفلا) من الطبيب الذى كان يعالج هذا الطفل والذى كانت هى قد أخذت تشعر نحوه باهتمام ومودة وترقب . وسارت سفينة الحياة بالزوجين يحوطها الصفاء وهناء البال والسعادة ، إلا أن الزوجة الطموح كانت تريد من زوجها أن ينتقل إلى العمل بالسلك الدبلوماسى حتى تعيش فى أوروبا على الدوام ، لكن زوجها لم يوافقها على ذلك ، وهى المرة الوحيدة التى لم ينزل فيها على رغبتها . ثم حدث أن ترمّلت صديقة لها جميلة واحتاجت إلى من يعاونها لاستخلاص حق أطفالها فى الميراث من أيدى أهل زوجها فأوعزت البطلة إلى زوجها وصديقٍ له كان يتردد على بيتها أن يساعداها ، لتبتدئ العواصف فى حياة الزوجين بعد قليل ، إذ اتهمته بأنه مغرم بصديقتها بل واتهمت صديقه بنفس التهمة ، وشرعت تنغّص على زوجها حياته وتتأبّى عليه وتُثْقِله بالمطالب والمصاريف الباهظة التى لم يقصّر يوماً فى توفيرها لها من أجل رحلاتها فى داخل مصر وفى أوروبا . كما كانت تجد لذةً شديدة فى أن تكون محطّ أنظار الرجال واهتمامهم بل فى أن تكون نجماً تدور كواكبهم حوله لا يستطيعون منه فكاكاً ، وبعد أن كانت تصلّى وتتدين صارت تَغْشَى مجالس الرجال بل وتراقصهم . وانتهى بها الأمر ، بعد أن أَصْلَتْ زوجها الإرهاق ثم الحرمان والإهانة ، إلى أن طلبت منه الطلاق وحصلت عليه بعد أحداث متشابكة مطوّلة ثم

تزوجت صديقه ، الذى كانت قد أبعدتـه عن صديقتهـا وأفسـدت ما كـانا ينويانه من زواج ، وزادت على ذلك فغيـرت اسمى ابنهـا وبنتـها ونَسَبَتْهُما إلى زوجها الجديد ، وإن كانا قد عادا إلى اسمى أبيهما بعد ذلك . وكانت فى تلك الأثناء ترى شبح زوجها فى المنام وهو يهددها بأنه لن يتركها تهنأ فى عيشها . وينتهى بها المطاف إلى أن تذهب لحج بيت الله الحرام ، وهناك تجيش بنفسها الرغبة فى أن تبقى إلى جوار قبر رسول الله ﷺ إلى نهاية عمرها ، لكنها تُضْطَرّ إلى العودة إلى مصر إثر برقية جاءتها بأن صحة زوجها فى خطر ، ويموت زوجها بين يديها لأول وصولها إلى البيت . وفى العامين التاليين تذهب للحج عن زوجيها الثانى والأول تباعاً وتستغفر ربها مما اجترحت يداها وتعمل على التطهر من غرورها وعنادها . وكانت العلاقة بينها وبين صديقتها القديمة قد عادت إلى سابق عهدها القديم من الصفاء والمودة . وهكذا انتهت حياتها بوجدان السعادة فى أحضان الدين والتفاف ولديها وحفيديها حولها .

والقصة مملوءة بالتحليلات النفسية العميقة ، وبخاصة تلك التى تلقى الضوء على نفسية الزوجة وزوجها الأول الطبيب [1] ، وكيف

---

(١) انظر مثلاً تحليل البطلة لمشاعرها حين تتحدث عن الأسباب التى تدفعها إلى الاهتمام بتطبيب أخيها الصغير ، وهل هى يا ترى عاطفة الأخوة ؟ أم هل هى فطرة الأمومة لدى كل فتاة عندما ترى طفلاً جميلاً وتضمه إلى جسمها؟ أم هل هى =

أنها قد استرقّته بجمالها وغرورها وعنادها الطاغى وقَبِل هو هذا الرقّ، بل واستعذب ما جرّه عليه من هوانٍ بالغٍ حتى إنه ، وهو على فراش الموت ، أرسل يستدعيها (رغم أنها كانت طلّقت منه على كرهه الشديد لذلك وتزوجت من صديقه) لا لشىء إلا ليقسم لها أنه لم يحبّ غيرها فضلا عن أن يكون قد خانها مع صديقتها وليلتمس منها الصفح والغفران (عن ماذا ؟ لا أدرى) ، مما يدل على أنه شخصية مازوكية (وهى الشخصية التى تتلذذ بما ينزله بها محبوبها من ألم وهوانٍ وتستزيد منه). ولا شكّ أن هذا الخضوع المخزى من جانب الزوج هو الذى مدّ للبطلة فى حبال الغرور والطغيان والتمادى فيهما . ولو كانت قد وجدت أمامها زوجاً قوى الشكيمة يوقفها عند حدّها ويَقْمَع نزواتها الغريبة المخيفة فى مهدها لتراجعت عن كثير من التصرفات الخرقاء التى حوّلت حياة زوجها وولديها وحياتها معهم إلى جحيم فى كثير من الأوقات .

وقد كان لهذا التمرد الذى اتّسَمَتْ به البطلة جذوره فى صباها، إذ نجدها تعترض على قضاء الله سبحانه فى وفاة والدتها وتفكير والدها فى الزواج بأخرى بعد فترة [1]. كذلك من مظاهر قوة

= الرغبة فى لقاء الطبيب الشاب الذى كان يعالجه ولَفْت نظره إليها ، وهو الطبيب الذى سرعان ما خطبها وتزوجها ؟ (ص / ٤٦) .

(١) ص / ٣٢ ـ ٣٥ .

شكيمتها المبكرة رفضها للحمل بعد المرة الثانية رغم رغبة زوجها الشديدة فى ذلك ورغم أن فكرة الاقتصار على طفلين لم تكن قد عُرِفت بَعْدُ فى المجتمع المصرى ، إذ كان زواجها فى أوائل القَرن [١] . على أنه ليس من السهل الاقتناع بأن امرأة مثلها لم تُتِمّ تعليمها [٢] ولا كانت تتصل بالأجواء الثقافية ، إذ كانت مجرد ربّة بيت تحب القراءة ، يمكن أن تعكف على تعلم اللغة الألمانية وتتقنها حتى لتقرأ بها أعمال كبار أدبائها ومفكريها لمجرد أن تثبت لزوجة السفير الألمانى التى لقيتها فى أحد الاجتماعات النسائية وتصورت أنها تتعالى عليها أنها لا تقل عنها [٣] ، فنحن نعرف مقدار الصعوبة التى يلقاها الشخص فى تعلم لغة أجنبية لا علاقة بينها وبين لغته ، وبخاصة إذا لم تكن من اللغات المألوفة فى مجتمعه كاللغة الألمانية بالنسبة إلينا ، وكذلك طول الوقت الذى ينبغى إنفاقه فى هذا السبيل .

وإن الإنسان ليعجب من ضخامة التطور الذى لحق بالبطلة وتصرفاتها ونظرتها إلى الحياة ، ويشتد هذا العجب عندما يفتقد الأسباب الكافية لهذا التطور . ذلك أن البطلة بعد أن كانت تحتجب عن الرجال نفاجأ بعد زواجها بفترة أنها لم تَعُدْ تجد حرجا أو ترددا

---

(١) ص/ ٦٥ ـ ٦٧ .

(٢) إذ كانت قد تركت المدرسة قبل أن تكمل المرحلة الثانوية .

(٣) انظر ص/ ٧١ . وقد كانت تقرأ أيضا بالإنجليزية والفرنسية .

فى محادثة الرجال فى غياب زوجها بل والخروج معهم أو قبول دعوة رجل أوروبى غريب إلى الشاى فى أحد الفنادق أو استقبالها لصديقاتها وأزواجهم بحجرة نومها وهى ممددة فى السرير فى قمصان نوم فاتنة فاخرة [١]... إلخ .

كذلك فالعجب لا ينقضى من تلك الزوجة التى مصّت دم زوجها واضطرته ، وهو الغنىّ أصلاً والطبيب الذائع الصّيت الذى يكسب من عمله كثيرا جدا ، إلى بيع أملاكه والاستدانة من المرابين، ثم هى تنحى عليه باللائمة وهو فى مرض الموت متهمة إياه بأنه بدّد كل شىء دون أن يفكر فى ولديه منها ولا فى أنه سيتركهما فقيرين لا يستطيعان حيلة ولا يهتديان سبيلا ! ولكن ماذا نقول وهذه طبيعة بعض الناس : يظلمون ثم يشكون من مظلوميهم ، وذلك على حدّ قول الشاعر : « يَرْضَى القتيلُ وليس يَرْضَى القاتلُ » ؟

ومما نأخذه على الرواية أيضا اختفاء كل أثر لأخى البطلة من أبيها وكذلك أمه ، إذ لم نعد نسمع عنهما شيئاً ، وهو ما يصدق إلى حدّ كبير على أبيها أيضا . فهل من المعقول أن علاقتها بأبيها

---

(١) انظر ص / ٨٣ ـ ٨٤ ، ١٠٠ ، ١٠٢ مثلا . وانظر كذلك تحليل البطلة المفصل للفروق التى تميز شخصية الرجل عن شخصية المرأة والتى توجب على الأخيرة ألوانًا من السلوك تجاه زوجها كى تكسب قلبه وتحافظ على بيتها من الانهدام (ص / ٢٤٨ وما بعدها) .

وأخيها وأمّه قد انتهت بمجرد خروجها من بيت الأسرة إلى عش الزوجية ؟

وأخيرا فهناك وجه شبه واضح لا تخطئه العين بين حديث البطلة عن حجها لبيت الله الحرام وحديث المؤلف نفسه عن ذات التجربة كما سجّلها فى كتابه « فى منزل الوحى » ، وهو دليل آخر على أن هيكل رحمه الله هو مؤلف الرواية لا السيدة التى تؤدى دور البطولة فيها .

هذا ، وقد تمنت تلك السيدة عند رؤيتها لأول مرة للمدينة المنورة « لو كانت أدق نظاما وأحسن عمارة » ، وكانت تدعو الله فى صلاتها « أن يهيئ لها من يحسن عمارتها ومن ينهض بكل مرافقها إلى مستوى الحضارة فى أرقى صورة »[1] . وقد استجاب الله هذه الدعوة وحقق أمنية صاحبتها ، إذ أضحت مدينة الرسول عليه السلام الآن على مستوى كبير من النظام والنظافة وأناقة الشوارع والمنازل ، وإن كان هذا لا يعنى أنها بلغت شأو نظيراتها من مدن الدول الغربية المتقدمة ، فلا يزال أمامها شوط طويل ، لكنها بكل تأكيد أفضل كثيرا جدا من مدننا المصرية التى تسودها الفوضى والقذارة والقبح والضجيج ولا يعترف سكانها بأى قانون أو قيد ،

---

(١) ص / ٢٤٤ .

وكأنما هناك مباراة بينهم فى توسيخها وتلويثها وتشويهها . أما المسجد النبوى فقد اتسع اتساعاً هائلاً بعد الإضافة الضخمة الأخيرة وأصبح تحفة رائعة ، على ساكنه أفضل الصلوات وأطيب التسليمات .

أدب الرحلة عند هيكل

نصيب الرحلة فى كتابات هيكل رحمه الله نصيب غير قليل ، إذ بينما يبلغ عدد كتبه التى صدرت له حتى الآن تسعة عشر كتابا فيما نعرف نجد أن أربعة منها فى الرحلات كاملة هى حسب ترتيب طبعها : « عشرة أيام فى السودان » (١٩٢٧م) ، و « ولدى » (١٩٣١م) ، و « فى منزل الوحى » (١٩٣٥م) ، و « شرق وغرب » (١٩٩٤م) ، فضلا عن المقالات الموجودة فى كتابيه : «فى أوقات الفراغ» (١٩٢٥م) ، و « الشرق الجديد » (١٩٦٣م). وقد زار د. هيكل كثيرا من بلاد العالم فى أفريقيا وأوروبا وآسيا وأمريكا ، وإن لم يكتب عنها كلها ، إذ قال فى مقدمة كتابه « عشرة أيام فى السودان » : « لقد سافرت قبل اليوم إلى غير السودان من بلاد مجاورة لنا يعنينا أمرها عناية كبرى وفكرت فى أن أكتب شيئا عنها ثم ترددت وانتهى بى التردد إلى الإحجام » [(١)] . ومع هذا فإن ما كَتَب عنه من البلاد التى ارتحل إليها ليس بالقليل ، علاوة على تنوعه ما بين بلاد عربية وبلاد أوروبية شرقية وغربية ، إلى جانب الولايات المتحدة الأمريكية والهند .

وقد كان ، رحمه الله ، يستمتع بالارتحال أيما استمتاع ،

(١) عشرة أيام فى السودان / سلسلة « كتب للجميع » (العدد ٢٣) / نوفمبر ١٩٤٩م / ٦ .

ويظهر ذلك فى كتاباته عن أسفاره ، إذ نرى عينيه وأذنيه وعقله وقلبه مفتوحة على آخرها لكل ما يقع عليه الحسّ والإدراك بحيث لم يكن يفوته شىء دون أن يلتقطه ويتذوقه ويسجله بقلمه السيال وأسلوبه الرصين الفخم (أو « الفخيم » ، وهى الصيغة التى كان كثيرا ما يكررها) ، لا فرق فى ذلك بين البلاد التى زارها زيارة عمل كالسودان وفنلندا والهند وتلك التى زارها بغية الترويح عن النفس والأهل كتركيا والمجر وبريطانيا وفرنسا وأسبانيا والولايات المتحدة الأمريكية . لا ، بل لقد كانت تنتاب الدكتور هيكل فى كثير مما كتبه عن رحلاته حالة أشبه بحالة الوجد الصوفى تُعْدِى بقوتها بل بعنفوانها من يقرأ هذه الكتابات .

وأدب الرحلة عنده لا يهتم بشىء دون شىء . إنه يصف الشوارع ووسائل المواصلات ، والمتاجر والمتاحف ، والمساجد والكنائس وسائر المبانى الهامة وفن العمارة بوجه عام ، وكذلك المسارح أبنيةً وفنًّا ، والحدائق والمناظر الطبيعية من حقول ووديان وتلال وجبال ، والأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية ... إلخ .

لنأخذ رحلته إلى السودان مثلا ، حيث يصف الطريق من القاهرة إلى الخرطوم وصفا جغرافيا دقيقا ، ذاكرا الصحارى التى مرّ بها ، والوديان والتلال والجبال والنباتات والأشجار التى رآها ، وطبيعة نهر النيل ووسائل المواصلات والمدن والقرى ومحطات السكة

الحديدية والآثار فى كل مرحلة من مراحل الطريق . وهو لا ينسى أثناء ذلك أن يتحدث مثلا عن سعة قضيبى القطار أو ضيقهما والخدمة التى تُقَدَّم لركابه ، ولا عن الشلالات والجنادل فى قلب النهر ... وهكذا .

وعندما يصل إلى السودان لا يترك شيئا مما يشاهده أو يسمعه أو يحسّ به إلا ذكره ، متحدثا عن النشاط الزراعى والصناعى وأصناف المزروعات والمصنوعات ، والقبائل وأسمائها ، وملامح السكان وأصولهم ، والاحتفالات السياسية والدينية ، وأحوال المدن والقرى ، والحكم الإنجليزى المصرى ، والطريقة التى يدير بها الإنجليز الأمور هناك ، وطبيعة العلاقة التى تربطهم بشركائهم من المصريين ورعاياهم من سكان البلاد ، والعادات والتقاليد ، والأسواق والبضائع ... وهذا كله إلى جانب مسائل الرى وما يرتبط بها من المشروعات التى كان الإنجليز ينشئونها هناك فى ذلك الوقت كى يزيدوا مساحة الأرض الزراعية ، وبخاصة تلك التى يراد زراعتها قطنا . وهو ، أيضا هنا ، حريص على وصف خزان سنار وصفا مجسما يترك القارئ وكأنه قد ذهب بنفسه إلى هناك وشاهده .

كذلك كان حريصًا ، كلما واتته الفرصة ، على أن يصف مشاعر المصريين والسودانيين تجاه بعضهم البعض دون أن يجد فى هذا حرجا . وبالمناسبة ، فقد كان فى حديثه عن خزان سنار

وموضوعات الرى المرتبطة به وتأثير ذلك على مقدار المياه الذى كانت تحظى به مصر محايداً تماماً كأنه قاضٍ لا تربطه بأىٍّ من طرفى القضية قرابة ولا مصلحة ، بل كل ما يهمه هو إصدار حكم عادل . ومن ثمّ فإنه لم يرَ فى هذا السدّ وأمثاله أى ضرر يلحق بمصر ، إذ إن الجزء الأكبر من مياه النيل كان ولا يزال يضيع فى البحر المتوسط دون أن ينتفع به أحد . كما أن الخزان لم يُشيَّد إلا بعد أن قامت الحكومتان المصرية والسودانية بعمل مباحث مستفيضة عنه وعن سائر مشروعات الرى الأخرى وبعدما أجريت تجارب كثيرة لمعرفة مبلغ صلاح أرض الجزيرة لزراعة القطن ذى التيلة الطويلة ثبت نجاحها ، وعندئذ أقدمت حكومة السودان على إنشاء الخزان كما ذكر [1].

وهيكل حين يتناول شيئا فإنه يحرص على وصفه فى دقة وتفصيل [2]. وإذا كان لابد من تشبيه عمله هذا بفن من الفنون فهو إلى النحت أقرب منه إلى التصوير ، إذ إنه يجسم الموضوع تجسيما ، وذلك بسبب خطوطه الوصفية البارزة وألوانه القوية وإحاطته بجوانب الشيء الذى يتناوله بالوصف . لنسمع مثلا حكايته لبحثه هو وزوجته عند إحدى الغابات القريبة من لوزان

(١) المرجع السابق / ٨٢ ـ ٨٣ .

(٢) يقول د. طه وادى عند حديثه عن كتاب هيكل « عشرة أيام فى السودان » إن « الكاتب لا يترك شيئا مما يدعو إلى النظر أو التفكير إلا وقف عنده ووصفه بعين الرائى وحلله ببصيرة الواعى » (الدكتور محمد حسين هيكل ـ حياته وتراثه الأدبى / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٦٩م / ١٠١) .

بسبويسرا فى صيف ١٩٢٦م عن مكان يتغدّيان فيه : « سألْنا فدلّنا رجل ، هو وحده الذى استمر معنا إلى غاية ما وصل إليه الترام ، على مكان قال إنه الوحيد فى الناحية . وقطعنا إليه مسيرة ربع الساعة ، فإذا هو كوخ ما كنّا لنرضى أن نجتاز بابه لو لم يضطرنا إليه ألاّ سبيل إلى غيره . ودخلنا إلى صالة فسيحة كثيرة النوافذ بها بار وبها بضع مناضد حولها كراسىُّ من الخشب المكسوّ بالقش من ذلك النوع الذى عفا ولم يعُدْ يُرَى إلا فى أحياء العَوَز والمتربة . ولم يَكُ إلا دقائق حتى دخل إلى المكان عدة أشخاص فى قبعاتهم ريشة خضراء وهم يلبسون لباس الصيد ويحمل كل منهم بندقيته ويتكلمون لغة لا نكاد نفهمها . وجاءت خادم سألناها عما تستطيع أن تقدمه لغدائنا ، فعلمنا أنها تصيد السمك من نهر قريب ولكن صيدها لم يكن فى ذلك اليوم مثمرا . وكنا قد رأينا حول المكان دجاجا فسألنا : أتستطيعين أن تَطْهِى لنا منه شيئا ؟ فترددت ثم أجابت رغبتنا بعدما أخبرتنا أن الطهى يحتاج إلى ساعة أو نحوها ، فوافقنا على ذلك وخرجنا نقضى هذه الساعة فى الغابة الهائلة الممتدة إلى ما لا نعرف حدوده نجد خلالها روعة جمال وبديع متاع. وعدنا بعد انقضاء أكثر من ساعة فقدمت الخادم الطعام إلينا دجاجا وبطاطس أقبلنا على التهامه بشهية ، ووجدنا فيه لذة لم نجدها فى أفخر طعام تقدمه أعظم الفنادق ، مما جعلنا نأنس إلى هذا الكوخ الذى كان موضع ازدرائنا وتقززنا حين وقع نظرنا عليه ساعة

مجيئنا » [١] . تُرَى هل غادر هيكل شيئا مما حدث له أو رآه دون أن يرويه رواية دقيقة مفصلة؟ لقد كان مثلا يستطيع أن يتحدث عن الكوخ مباشرة دون أن يذكر لنا أنهما سألا عن مطعم فدلهما رجل عليه ، فضلاً عن أن ينص على أن ذلك الرجل كان هو الرجل الوحيد الذى بقى معهما من رُكّاب القطار إلى نهاية الخط . كما كان يستطيع أن يغفل تحديد الوقت الذى مشياه حتى بلغا الكوخ . وكان يستطيع كذلك أن يركز كلامه على الخادم والطعام ، وهما ما يعنيانهما من المكان ، لكنه أبى إلا أن يقص دخول مجموعة الرجال الكوخ آنذك ، ويذكر أنهم يلبسون قبعات ، وأن فى كل قبعة ريشة، وأن الريشة خضراء ، وأنه كان مع كل منهم بندقية صيد ، وأنهم كانوا يتكلمون لغة لم يفهماها (آسف : « لم يكادا يفهمانها ») . وكان يستطيع أيضا أن يقول إنهما بعد أن تجولا فى الغابة عادا فوجدا الطعام جاهزا ، دون أن يحدد الوقت الذى أنفقاه فى تجوالهما بأنه « أكثر من ساعة » ... إلخ . لقد كان يستطيع هذا وذاك وذلك ، لكن حبه للتفصيل والاستقصاء والتجسيم قد أملى عليه ما قال فجاء وصفه ينبض حياة ولمعانا وتألقا .

وتتجلى نزعة التدقيق والتحديد والتفصيل فى أدب الرحلة عند هيكل أقوى ما تتجلى فى وصفه للطبيعة ووصفه للعمارة والآثار .

(١) د. محمد حسين هيكل / ولدى / ط ٣ / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٦٦م / ١٠١ .

وأنت واجد من ذلك الشيء الكثير فى كتبه التى ذكرناها فى صدر هذه الدراسة . أما مقالاته التى دبّجها فى وصف الآثار المصرية فى الأقصر حين ذهب لزيارتها عقب اكتشاف كنوز توت عنخ آمون (١) فلا تتبدى فيها هذه النزعة . ذلك أن هذه المقالات هى أقدم كتابات هيكل فى أدب الرحلة فى حدود علمنا ، وهذا هو السبب فيما يبدو وراء خلوها من هذه النزعة التجسيمية عنده ، إذ لم تكن قُوّته الوصفية قد اسْتَحْصَدَتْ بَعْدُ . ويماثلها فى ذلك مقاله الذى تحدث فيه عن رحلته إلى الهند فى أخريات حياته عام ١٩٥٥م (٢)، فإنه قصير جدا بالنسبة إلى تلك البلاد الشاسعة الأرجاء وبالقياس إلى ما كتبه عن مشاهداته فى أوروبا وجزيرة العرب ، كما يفتقر إلى الحرارة والحماسة اللتين نجدهما فى وصف تلك المشاهدات حتى لتبدو وكأنها نتاج عقله وحده . وأسلوبه فى هذا المقال ليس بالفخامة التى نلقاها فى رحلاته الأخرى . كما أن المقال يخلو تقريبا من وصف الطبيعة والآثار ، إذ ليس فيه فى الغالب إلا كلام عام يُقْصَد به إلى إيصال المعلومات وكفى ، ونفتقد فيه ذلك الانبهار الذى يأخذ بأنفاس الدكتور هيكل حين يصوب باصرته إلى مناظر الطبيعة أو

---

(١) وهى موجودة فى كتابه « فى أوقات الفراغ » / ٢٤٦ وما بعدها (ط ٢ / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٦٨م) .

(٢) يجد القارئ هذا المقال فى كتاب « الشرق الجديد » / ٢٢٩ وما بعدها (ط ١/ مكتبة النهضة المصرية / ١٩٦٣م) .

العمائر أو الآثار فى الحجاز أو دول أوروبا . وقد يكون مرجع ذلك إلى أنه لم يكن للهند فى قلبه ما لأوروبا ، التى زار عددا غير قليل من بلادها وتكررت زيارته لبعض هذه البلاد وكانت له فيها ذكريات لصيقة بنفسه ، علاوة على ارتباط المشرق العربى ، ومصر بالذات ، بأوروبا تاريخيا واقتصاديا وسياسيا وثقافيا . ودعك من الحجاز ، الذى هو مهوى فؤاد كل مسلم والذى لم يزره د. هيكل ويكتب عنه إلا بعد وقوع ذلك الانقلاب الروحى الضخم فى حياته مما حوّل أفكاره وآراءه فى كثير من الشؤون من النقيض إلى النقيض . ولعله ينبغى أن نزيد على ذلك أن زيارته إلى الهند إنما تمت فى آخر حياته ، وكان سببها سياسيا ، فقد كان واحدا من المشاركين فى الندوة الخاصة بغاندى وأفكاره وتعاليمه سنة ١٩٥٥م . وقد ينضاف إلى هذا أن الهند بلاد فقيرة مُدْقِعَة الفقر تسودها القذارة والفوضى ، مما يفسد على السائح ، وبخاصة إذا كان مثقفا من طراز رفيع كهيكل ، متعته بما يوجد بين تلك القذارة والفوضى من آثار فخمة جليلة .

والآن لنقرأ ، مصداقا لهذه السمة فى أدب هيكل ، السطور التالية ، وهى فى وصف غروب الشمس بين طهطا وسوهاج من نافذة القطار الذاهب بهيكل إلى الأقصر ليشاهد قبر توت عنخ أمون ويكتب عنه : « تدركت الشمس إلى المغيب وقد ارتكز عندها مثلث من السحب ملأ الغرب وتشرذمت حوافيه . وكنت تحسبه أدكن

اللون قاتما فلا تكاد ترى مخرجا لِلْوَدْق من خلاله . فلما تدلت الشمس طوقت حوافيه القرية القريبة منها بسوار من ذهب ، ثم ولّت إلى مغيبها فلم تَكُ إلا دقائق بعد ذلك حتى سكبت فى السماء وراءها لهباً دامياً ودماً ملتهبا ، وصرت ترى الذى كان قتاماً داكنا قد استحال إلى لهب اشتعلت به السماء فغطت النيران مثلث السحاب الذى ملأ الجو . وتشهد فَحْمَةَ القَتَام بعد اشتعالها وكأنك نيرون يشهد روما فى احتراقها . لكن نيرون كان يشهد جريمته فيوقّع على القيثارة أنغاما يسلّى بها نفسه عن وخز ضميره . أما من شهد ذلك المنظر الفذ من صنع يد القدر فكان لا يستشعر سعير اللهب المحرق ، بل كان يحس فيما يرى ببرد وسلام يهبط على البسيطة ويشعر فى حنايا فؤاده بترداد حنين الإعجاب والشكر على أن شاركت روحه الصغيرة فى كل تلك المعانى التى لا تؤديها هينمة ولا ترنُّم ، وإنما تؤديها نغمة سماوية من نغم موسيقى الموصلى أو بتهوفن .

وخبا اللهب وتبينت قطعة السحاب التى حجبت المغرب وقد امتدت خلالها من الشمال إلى الجنوب تعاريج متوازية من الأحمر القانى متتابعة من فوق جبال ليبيا إلى منتصف السماء حيث يمتد من أثر الشمس المولية مسرعة ظلٌ ضافٍ متورد كأنه بقايا قُبْلة وداعها لهذا العالم الذى ظلت تشهده أعيننا من ساعة إضاءته فى شروقها ، وها تشمله كِسَفُ الليل بعد إذ تركته مُدْبِرة . وظلت هذه

التعاريج المتوازية البديعة النظام تغالب الليل ويغالبها وتَفْنَى فيه رويدا رويدا حتى كلّ بصرى وصرت لا أرى منها شيئا ولا أرى إلا الليل قد كسا الوجود ولا أدرى متى كسا أمواج النار والذهب » [١].

ولنقرأ كذلك هذا الوصف للكعبة المشرفة : « الكعبة بهو رفيع خال من كل زينة وزخرف ، وسقفها يعتمد اليوم على ثلاثة عُمُد من الخشب الضارب لونه إلى حمرة تشوبها صفرة . ويرجع العهد بهذه العمد إلى أجيال طويلة خَلَتْ ، فعبد الله بن الزبير هو الذى وضعها حين جدّد بناء الكعبة ولم يصب هذه العُمُدَ فسادٌ على طول العهد بها إلا ما كان منذ خمسين سنة أو نحوها حين تآكل أسفلها فشُدَّت بدوائر من خشب طُوِّقت بها وسُمِّرت عليها . وتعلو هذه الدوائر عن أرض الكعبة ما يزيد قليلا على ثلاث أذرع . وأرضها مفروشة برخام أبيض عادىّ قُصِدَ منه إلى المتانة ولم يُقْصَد إلى الزخرف .

فأما الجدار فأحيط أسفله برخام ملون زُرْكِشَ بنقوش لم تعمل فيها يد ذوى الفن ولم تُخْرِج بيت الله عن بساطته .

وغُطِّيَتْ جدران الكعبة بستر من الحرير قيل إنه كان أحمر ورديا فى زمانه ثم أحالته السنون إلى ما يشبه الرمادى الضارب إلى الخضرة . ولقد أنبأنى السادن أن هذا الستر الذى شُدَّ إلى جدرانها

(١) فى أوقات الفراغ / ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

فى عهد الخليفة العثمانى عبد العزيز منذ ستين سنة أو يزيد قد أثار قِدَمُه واستحالةُ لونه العاهلَ النجدى عبد العزيز بن سعود فأمر بصنع غيره ليُسْتَبْدَل به . وهذا الستار القديم قد زُرْكِش بالنسيج الأبيض طُرِّزت عليه عبارات وألفاظ توائم روح العصر الإسلامى الذى كتبت فيه من حيث دلالتها ، فمنها : « سبحان الله وبحمده . سبحان الله العظيم » و « يا حنّان يا سلطان . يا منّان يا سبحان » . وهذه العبارات الأخيرة مكتوبة داخل دوائر من النسيج الذى طُرِّزت به . ولست أدرى أية عبارات طرّزت على الستر الذى أمر ابن السعود بصنعه والذى يكسو اليوم جدار الكعبة فى جوفها : أهى آيات قرآنية تتصل بالبيت وإقامته أم بالتوحيد وصفاته وقوته ؟ أم هى أحاديث الرسول فى يوم الفتح ؟ أم هى ألفاظ تعبُّدية كالألفاظ التى كانت على الستر يوم رأيته ؟

يختلف الركن الأيمن مما يلى باب الكعبة حين دخولك منه عن سائر جُدُرها وأركانها ، ففى هذا الركن يقوم الدَّرَجُ الصاعد إلى سطح الكعبة وقد وُضِع عند باب هذا الدرج ستر أسود مطرز بالقصب الفضى المموّه بالذهب من نوع الستر المنسدل على باب الكعبة .

هذا كل ما فى الكعبة من داخلها ، وهو لا يغيّر من بساطتها شيئا كما ترى . فهذا الستر الذى يكسو جُدُرَها ليس منها ، وهو بعْدُ كل ما فيها من زخرف . أما ما وراءه فالبساطة كل البساطة ،

البساطة القوية التى تأخذ بمجامع النفس ، البساطة الجديرة بهيكل التوحيد فى بداهته وصفائه وقوته » (١).

ولا يكتفى د. هيكل بهذا التفصيل والتدقيق والتجسيم فى وصف الأشياء التى يشاهدها أو يسمعها ، بل يصف أيضا بنفس البراعة مشاعره وأحاسيسه تجاه ما يشاهده ويسمعه (٢). وهو يخلط وصفه الموضوعى بوصفه الذاتى خلطا يجعلهما سبيكة واحدة . وتتكرر عندئذ فى أوصافه ألفاظ الخشوع والجلال والإبداع والروعة والمتاع والبهر وغيرها ، وبخاصة اللفظتان الأخيرتان اللتان قلما يستخدمهما غيره من كتّاب العصر الحديث .

علـى أن هناك مواضع تبلغ فيها هذه السمة قمة لا تعادلها قمة ، ومن هذه المواضع النص التالى الذى يصف فيه هيكل ، لا بل ينحت فيه نحتاً ، ما شاهده هو وزوجته فى باريس فى سفرتهما إلى أوروبا (للتعزّى عن فقدان وحيدهما الصغيـر) فى سنة ١٩٢٦م :

---

(١) فى منزل الوحى / ط ٢ / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٥٢م / ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

(٢) أشار أنور الجندى إلى ما ينطوى عليه هيكل من شاعرية ومقدرة على وصف مناظر الطبيعة ووقعها على نفسه فى قـوة ووضوح (انظر كتابه « من أعلام الفكر والأدب » / الدار القومية للطباعة والنشر / سلسلة « مذاهب وشخصيات » (العدد ٩٨) / ١٩٦٤ م / ١٦٥) ، وإن كان قد وصف أسلوب هيكل قبل ذلك بأنه أسلوب قانونى (ص / ١٦١) بناء على ما قاله هيكل نفسه عن أسلوبه . وواضح أن المقصود بذلك هو أسلوبه العلمى لا الوصفى .

« وكما أنك تتخطى طريق الأوبرا ما بين معبد الموسيقى (الأوبرا) ومعبد التمثيل (الكوميدى فرانسيز) فإنك إذ تسير فى اتجاه الطريق نفسه ما تلبث بعد خطوات أن ترى أمامك المعبد الأكبر للنقش والتصوير ، إذ تقابلك البوابات الضخمة المؤدية إلى الفناء الفسيح ، فناء متحف اللُّوفْر ، وإلى حدائق التويلرى البديعة الجمال بقوس نصر الكاروسل وبالتماثيل الكثيرة الجميلة المنثورة فيها ، وبأشجارها المكتملة النماء ، وبَفسْقيّات الماء يدور حولها الأطفال يلعبون . وكنت قد رأيت منذ نزلنا باريس أنه لا يَجْمُل بنا أن نزور مُتْحَف اللُّوفر فى أيامنا الأولى وألا نزوره قبل زيارة غيره من المتاحف ، بل رأيت ألا نعجِّل بزيارة المتاحف ، ففيها دائما هيبة ورهبة ، ونحن بحاجة إلى رُوَاء وبهجة . كذلك اخترقنا التويلرى أول زيارة لنا إياها ميمِّمين ميدان الكونكورد . وتقوم وسط جوه الأوروبى الكثير التقلب مِسَلّة الأقصر الفرعونية التى لم تعرف قبل انتقالها إليه ما تقلُّبُ الجو وما عَبَثُه ، وإن عرفَتْ مدى ألوف السنين التى شهدت كيف تطل على معبد آمون وعلى معبد الأقصر وعلى آيات من مجد الفن الخالد الباقى . ووقفنا على إفريز حديقة المسلة نسرِّح البصر فى الميدان الفسيح تقوم فى جوانبه التماثيل الكبرى ، ومن بينها تمثال مدينة ستراسبور ، الذى كان إلى ما قبل الحرب الكبرى متشحًا جانبه بالسَّواد . وها هو ذا اليوم كغيره من التماثيل قد زال عنه

السواد منذ استردت فرنسا الألزاس واللورين واستردت ستراسبور معها. وتقوم مع التماثيل نافورتا المياه البديعتان ترسلان بالمياه صوب السماء من أفواه السباع المتقابلة . وولينا وجهنا نحو الشانزليزيه مقابل حديقة التويلرى فلم يبلغ البصر مدى هذا الطريق العظيم عند قوس النصر الأعظم . وعن يميننا امتد شارع رويال منتهيا بكنيسة المادلين المهُوبة العمارة فى غير جفوة ولا قسوة . وعن يسارنا تخطى البصر نحو السين ليقع على قصر بوربون دارِ مجلس النواب الفرنسى. ما هذا كله ؟ أين هذا فى مصر ؟ وأين هذا فى أوروبا بل فى العالم كله ؟ ما هذا الجمال والجلال ؟ وما هذه العظمة الباسمة اختيالا وتيها ؟ إن هذه المجموعة التى نشهد لَمجموعةٌ فذّة فى عالم العمارة وفنها . وهى بحاجة ، لكى تنال النفس رِيَّها من بهائها ، إلى عشرات بل مئات من الزيارات لا تزداد النفس بعدها إلا تعلقا بها وشغفا باستجلاء بديع الدقائق فى صنعها . مع ذلك فهذا الميدان الفسيح المحيط بكل هذا الجمال قَلَّ من يقف فيه اجتلاءً لجماله إلا الذين قدموا باريس وزاروه للمرات الأولى ، فهو (على أنه متحِف تماثيل وعمارة ، وهو متْحَف فى الهواء الطلق) هو متحف فى وسط هذه الحركة العنيفة ما تكاد فى ساعة من النهار تهدأ . ولذلك يمر الناس به سراعا تطير السيارات بمن تُقِلّه منهم ، ويسرع المشاة إلى تخطّيه لئلا تحطمهم السيارات ومن فيها . على أنى بينما أشارك زوجى فى

الإعجاب بروعة الميدان وما فيه أسرعتْ بذاكرتى لفتة إلى الماضى حين كان الكونكورد بعض الميادين التى خطا بباريس فيها شبابى ، وحين كانت المادلين أول عمارة باريسية فخمة وقع عليها بصرى . وما عسى أن تفيد الذكرى أو ينفع رَجْعُ الشباب فى مثل موقفى ؟ فَدَلَفْنا متَّقين العجلات إلى الشانزليزيه متخطين إياه إلى الطريق المحاذية لا يفصلها عنه فاصل وتزينها الأشجار تكاد تحسبها غابة لا يصل نظرك إلى آخرها . وألقينا عصا التسيار غير بعيد أن طال بنا السير فاستوقفنا عربة أنزلتنا حيث نتناول طعام الغداء .

وعدنا بعد ذلك مرات بل عشرات المرات إلى التويلرى فالشانزليزيه ، وعدنا إليهما فى ساعات مختلفة من الليل ومن النهار. أتراني أستطيع وصف ما تقع عليه العين منهما وما تنقله للنفس من إحساسات ومشاعر ؟ من العبث أن أحاول وصف مجموعات العمارة مما تقع عليه العين فى الشانزليزيه عند تقابل القصرين الكبير والصغير يمر الشارع الذى يفصلهما لينتهى إلى جسر الإسكندر أبهى جسور السين وأروعها بنسوره المحلّقة يلمع فى الهواء لونها المذهب . ويسير الطريق من بعد الجسر حتى ينتهى إلى الأنفاليد مثوى نابليون ومستقرّ رفاته « بين أمة الفرنسيس التى أحب حبا جمّا » كما كُتب على باب قبره . ومن العبث أن أصف قوس النصر الأعظم غاية الشانزليزيه وملتقى شوارع باريس الاثنى عشرة

الكبرى، ومن بينها طريق پولونيا الذى ينتهى بك إلى مسرح ما فى باريس من حياة وفن وعاطفة وشعر ورغبة . من العبث أن أصف لك هذا وكلٌّ من القصرين والجسر والقبر وقوس النصر يحتاج كل واحد منها إلى دراسة فى الفن ودراسة فى التاريخ لوصفه ، ويحتاج إلى أن نقف لذلك عنده الساعات تباعا ، ونحن أشدّ حاجة إلى السلوى منا إلى الدراسة وأشد حاجة للمتاع بما تنقله إلى النفس هذه المجموعة الفذّة فى مجموعها من إعجاب بها وبما تشتمل عليه من حركة دائمة النشاط حتى لَخُيِّل لزوجى أول مرة رأتها أنها فى يوم عيد ، أو على حد تعبير سيدة مصرية جليلة أنها فى مولد النبى . والحق أن هذا النشاط الدئم الحركة فى هذا الحى البديع من أحياء باريس يشعرك أنك فى مثل يوم الحشر . أنت فى كل لحظة فى وجل من العجلات ، فإذا أنت ركبتها رأيتها مضطرة لأن تقف هنيهة بعد هنيهة خضوعا لنظام حركة المرور ولأن تدفع من البنزين ومن الجاز ما يضيق له فى كثير من الأحيان صدرك ويزكَم له أنفك . ثم إنك بالكونكرد والشانزليزيه ما مررت بهما صدَرَ الليل أكثر متاعا . فى هاتة الساعات حين يبدأ شىء من السكون ينسل إلى شوارع باريس وميادينها يمْسِى الكونكورد والشانزليزيه بحراً لجيّا من ضياء المساء يكسو المارّ بهما من غير أن يغرقه ، ويبتعث خيالاته إلى كل ما ينطوى عليه الليل من نعيم ومسرة ، ويدعوه ليستمتع بنور الليل الذى لا تعرفه مدينة ما تعرفه مدينة النور » (١) .

---

(١) ولدى / ٣٨ ـ ٤١ .

إن من الصعب جدّ الصّعب أن نعثر على مثل هذه السطور فى روعة وصفها لجمال باريس وإبرازه على هذا النحو الممتع الفاتن العجيب ، وبهذه الفخامة والجلال . وإن مشاعر المؤلف لتسرى وتنساب في خلال هذا الوصف : تارة على نحو مباشر ، وأخرى على نحو خفىّ . انظر مثلا كيف يسمى كلا من الأوبرا والكوميدى فرانسيز ومتحف اللوفر بـ « المعبد » : فهذا « المعبد الأكبر للنقش والتصوير » ، وذاك « معبد التمثيل » ، وذلك « معبد الموسيقى » . ولفظة « المعبد » تَنْفَح بالقداسة والهيبة والرهبة والجلال . وهذا الاستعمال المجازى للكلمة يُوَطِّئ للاستخدام الحقيقى لها بعد عدة أسطر حيث يذكر الكاتب « معبد آمون » و « معبد الأقصر » ، كما يتناغم معه . ومن هنا لا يجد القارئ أية غرابة فى أن تُسَمَّى دور الفن الثلاث السابقة بـ « المعابد » . وقد كثّف استخدام المؤلف للعبارات التالية : « ما تلبث بعد خطوات أن ترى أمامك ... إذ تقابلك ... » ، و « اخترقنا التويلرى ... ميممين ميدان الكونكورد » ، و « تقوم وسط جوه الأوروبى ... » ، و « ولينا وجهنا نحو الشانزليزيه مقابل حديقة التويلرى فلم يبلغ البصر مدى هذا الطريق العظيم » ، و « عن يميننا ... » ، و « عن يسارنا ... » شعور القارئ بأنه يجوس معه عالما حاشدا بآيات الفن وضروب الإبداع ، إذ يرى أنه أينما اتجه وفى أية ناحية نظر أو سار قابلته تحفة من تحف الفن ورائعة من روائع الإبداع : من يمينه ومن

يساره ، ومن أمامه ، ومن خلفه ، وعلى مَدّ بصره ، وحوله من كل جانب . ثم هذه الأسئلة المتلاحقة التى تجسم الإعجاب والافتتان والحيرة والانبهار : « ماهذا كله ؟ أين هذا فى مصر ؟ وأين هذا فى أوروبا بل فى العالم كله ؟ ما هذا الجمال والجلال ؟ وما هذه العظمة الباسمة اختيالاً وتيها ؟ » . على أن المؤلف لا يقتصر على تكثيف شعور القارئ بأنه يجوس خلال عالم حاشد بأفانين الخلق وروائع الإبداع ، بل يكثّف شعوره أيضا بأن عالم الحياة اليومية من حوله هو كذلك عالم حاشد . حاشد بحركة المشاة والسيارات المنطلقة فى سرعة مخيفة . إن الحشود هنا ليست حشودا فنية فقط ، بل هى حشود حركية بشرية أيضا . إنها داخل النفس وخارجها فى آن . وانظر كذلك قول هيكل إن زوجته قد خُيِّل لها عند رؤيتها هذه المشاهد لأول مرة أنها فى يوم عيد أو فى مولد النبى، وهما اليومان اللذان لا يعرف العام كله مثلهما عند المسلمين حركة وبهجة واحتشادا . لا ، بل إنه قد وجد أن تعبيرى « يوم العيد » و « مولد النبى » لا يكفيان للتعبير عن الزحام والاضطراب المائج فى تلك الأماكن فقال إن الإنسان ليشعر هناك بأنه « فى مثل يوم الحشر » . لكن مهلا ، إذ ليس هذا كل شىء ، فالمؤلف حريص على أن يذكر أنه وزوجته قد زارا هذه البقاع عشرات المرات وفى ساعات مختلفة من الليل والنهار ، مما يوحى أقوى إيحاء بشدة

انبهارهما بها وضخامة استمتاعهما بما تحويه من كنوز الفن ومشاهد التنسيق العمرانى . كما أنه يؤكد أن كل أثر من هذه الآثار يحتاج إلى دراسة فى الفن ودراسة مثلها فى التاريخ كى يستطيع الإنسان أن يصفه ، ولا بد له مع ذلك أن يقف أمامه الساعات الطوال . كذلك فالنور المنبعث من المصابيح يجعل ميدان الكونكورد والشانزليزيه « بحراً لُجيًا » من الضياء « يكسو » المارين هناك . ومن العجيب بعد ذلك كله أن نسمع المؤلف يقول إن من العبث أن يحاول وصف هذا . إذن فما الذى كان يصنعه طوال الوقت ؟ ومن أين أتتنا هذه المتعة الفاتنة والبهجة الغامرة إلا من وصفه له ذلك الوصف الفذّ البديع ؟ على أن إقرار المؤلف بعجزه عن نقل ما يريد إنما هو دليل على تطلعه إلى الكمال ، فهو رغم هذه القدرة العظيمة يحس أنه لا تزال هناك أشياء لم تُحِطْ بها الصفة كما كان قدماؤنا يقولون ، أى أشياء لا يمكن التعبير عنها بغير آهات الإعجاب والدهشة وما إلى ذلك . بيد أن هذا أمر طبيعى يجده كل أديب وفنان ، ومن ثم فلا غرابة أن نجد أديبنا فى عدة مواطن يصرح بعجزه عن قول ما فى نفسه فى وصف مشاهداته .

وسِمَةٌ أخرى من سمات أدب الرحلة فى كتابات هيكل هى أنه كثيرا ما يرتدّ ، وهو يصف ما حوله ، إلى الماضى يَمْتَح من بئر الذكريات ما له علاقة بهذا الذى بين يديه : فقد يكون رآه هو نفسه

من قبل ، أو رأى شيئا يشبهه أو تصله به ملابسة من الملابسات .

وهذه السمة نجدها منذ أول رحلة كتب عنها فيما نعرف ، وذلك فى مقالاته التى وصف فيها زيارته لمقبرة توت عنخ آمون فى وادى الملوك بالأقصر ، إذ جاء فى أول مقال منها أن الدعوة إلى تلك الزيارة قد أذكرته « تمثال إيزيس الصغير قائما فى بلوره بين التماثيل الضخمة فى الصالة المصرية من صالات المتحف البريطانى محدّثا ما حوله من التماثيل الضخمة بحكمهم على الكون والكونُ فى أحلام خلقــه ، ومتسخطا على الذين كشفوا عن الموميات ليجعلوها موضع لهوهم وكأنما الأموات متــاع العيون » [١] . وحين كــان فى السودان وحدّثه بعض المصريين هناك عن سذاجة سكان جنوب السودان وبدائية تفكيرهم وحياتهم ، ومنها اغتباط أحد سلاطينهم ببعض المرايا وقطع الورق المفضض الذى تُلَفّ به قطع الحلوى اغتباطا عظيما ، نراه يذكر « چان چاك روسو ورَجُل الطبيعة الذى صوره فى كثير من كتبه والذى جعله المثل الأعلى للسعادة وودّ معه أن تعـود الإنسانية إلى احتـذاء مثاله » ، ثم يتساءل مبتسما : « أيرضى روسو بمثل عيش هذا السلطان وجنوده ؟ » ليسارع بالتعقيب قائلا إن ابتسامه سرعان ما زال حين سمع محدثيه يذكرون بعض القصص عن شهامة هؤلاء الزنوج وبسالتهم واحتقارهم للحياة وإقدامهم على

---

(١) فى أوقات الفراغ / ٢٤٧ .

الموت طائعين ، وتخيل روسو يقول له فى لهجة المنتصر : « أرأيت يا صاح أنهم سعداء لأن مطامع الحياة وشهواتها لم تكتسح من نفوسهم أسباب العظمة الحقة التى تصل الإنسان بالطبيعة وتجعله جزءا منها سعيداً بها مطمئنا إليها ؟ » [(١)] ... إلى آخر ما جال بخاطره مما استدعته هذا الذكرى . وعندما قرر السفر لتأدية فريضة الحج وأخذ القلق ينتاشه خوفا من الإصابة بمرض هناك أو نشوب الحرب بين إيطاليا وبريطانيا واحتمال هجوم الطليان على الباخرة وهم على متنها فى عُرْض البحر تذكّر كيف أنه قد سبق له أن سافر هو وصديق له محام إلى لبنان غداة اندلاع الحرب فى أوروبا فى ١٩١٤م غير مباليين بأخطار الحرب التى كانا يقدران أنها قد تمتد إلى حوض البحر المتوسط ، ولا بالحرب نفسها حين اندلعت نارها فى المنطقة وهما لا يزلان يصيفان فى لبنان . وعندئذ استغرب هذا القلقَ وذلك الخوف بسبب سفره لأداء الفريضة واسترجع الأخطار التى تعرض لها ونجّاه الله منها ، كسقوطه من أعلى دارهم وهو صبى صغير ، وانقلاب السيارة به وبأولاده قبل رحلة الحج تلك بزمن غير بعيد [(٢)]. هذا ، وما أكثر الذكريات التى تنثال عليه فى رحلاته إلى البلاد الأوروبية التى كان قد زارها من قبل ، وبخاصة باريس حيث قضى صدرا من شبابه أيام الدراسة وعاد إليها مع

---

(١) عشرة أيام فى السودان / ١١٦ .

(٢) فى منزل الوحى/ ط ٨/ دار المعارف/ القاهرة/ ١٩٨٦م/ ٣٦ ـ ٤٣ .

زوجته ثم مع أولاده بعد ذلك مرات .

على أن الذكريات التى تثور فى ذهنه وهو يسجل حوادث رحلاته ويصف مشاهداته فيها ليست كلها ذكريات شخصية ، بل كثيرا ما تكون ذكريات تاريخية . وفى كتابه « فى منزل الوحى » من ذلك شىء غير قليل : فهو يتذكر حجة الوداع ، وما وقع لهاجر وابنها فى بادية الحجاز فى قديم الزمان ، وخلاف قريش عند تجديد الكعبة حول من ينال شرف نقل الحجر الأسود من موضعه ، وعمرة القضاء ، واختباء النبى والصدّيق فى غار ثور... إلخ [١]. وبالمثل نراه، وهو يروى لنا رحلته إلى جنوب إسبانيا حيث بلاد الأندلس والآثار التى خلّفها المسلمون وراءهم فيها ، يتذكر واشنطن إرفنج الدبلوماسى الأمريكى والكاتب الذى خلّد قصر الحمراء فى كتاب له مشهور [٢] ، وكذلك أبيات أبى البقاء الرندى الشاعر الأندلسى المعروف فى رثاء الأندلس [٣].

وهذه الذكريات ، الشخصى منها والتاريخى ، من شأنها أن تزيد متعة القارئ ، وذلك بمراوحتها بين الحاضر والماضى وتغييرها من وتيرة ما يتابعه مع الكاتب من مشاهد . علاوة على أن العنصر الشخصى فى تلك الذكريات يضفى على الرحلة مزيدا من الدفء

(١) المرجع السابق / ٤٧، ٧٨، ٧٩ ، ١١٢ ، ٢١٧ ، ٢٦٨.
(٢) شرق وغرب / كتاب الهلال (العدد ٥١٩) / مارس ١٩٩٤م / ٣٠٨ .
(٣) المرجع السابق / ٣٢٦ ـ ٣٢٧ .

والحميمية ، ويقوى الوشيجة التى تربط القارئ بالمؤلف .

على أن هناك وسيلة أخرى فى رحلات هيكل تزيد هذا الدفء وتلك الحميمية حتى لتتحول الوشيجة التى تربط القارئ بالمؤلف إلى توحّد بينهما . وتتلخص هذه الوسيلة فى أن الدكتور هيكل بينما يكون ماضيا فى وصف ما شاهد وقصٍّ ما وقع له من أحداث إذا به فجأة وبدون مقدمات يترك ضمير المتكلم إلى ضمير المخاطب ، وبدلا من أن يقول : « لقد فعلتُ » نسمعه يقول : « ها أنت ذا تفعل » ، مستبدلا ، كما ترى ، المضارع بالماضى . وبهذا يتحول القارئ من متابع لما يقول الكاتب عن الشىء الذى يتحدث عنه إلى متابع لذلك الشىء ذاته . إنه لم يعد يقرأ بل يشاهد ويسمع ويمشى ويدخل المسرح ويتجول فى الحدائق ويحادث هذا وذاك من شخصيات الرحلة . وبهذا الإيهام تزداد متعته ، إذ لم يعد بينه وبين الأشياء حجاب من المؤلف وكلامه ، بل أصبح يتصل بها اتصالا مباشرا . وكما يقولون : « ما راءٍ كمن سَمِعا » . وبذلك يصبح هو نفسه الرحالة ، لكنه ليس رحالة عاديا بل رحالة له عقل الدكتور هيكل وشعوره وحواسه المثقفة المصقولة المصفاة .

اقرأ مثلا النص التالى ، وفيه يصف بعض مشاهداته فى إيطاليا:

« وقام القطار بعد الزوال بخمس دقائق وبلغ ميلانو فى الساعة الثانية والربع ، وفيه انتقلنا إلى قطار آخر قام الساعة الثالثة والثلث . وفى هذه الساعات الثلاث كان الحر أشد ما يلهب الأنفس وتضيق به

الأنفاس. ولقد ظل كذلك طيلة مسيرة القطار من ميلانو إلى أن وصل شواطئ لوجانو إحدى البحيرات الإيطالية الكبرى . هنالك تلطّف بعض الشيء ، وهنالك بدت تباشير الألب ، هذه الجبال البديعة التى تحيل الصيف شتاء والماء ثلجا . على أن لطف الجو لم يقترن بجمال المنظر حتى تخطينا سمبلون وصرنا فى أرض سويسرا ، فى هذه الفلذة الأخرى من فلذات الجِنان هوت إلى أرضنا لتكون للعالم متاعا وسحرا . لست أدرى كيف صُنِع بالجبال فى هذه البقعة من بقاع الأرض لتبلغ من الجمال هذا المبلغ الذى ينسيك كل متاعب جسمك وهموم نفسك ، والذى يقصر معه خيالك عن أن يجد لوصفه ما يضارعه روعة وبهرا، والذى يشد إليه بصرك وأنفاسك وأعصابك وكل وجودك ، فما تكاد تعود إلى نفسك أو إلى رفيقك لتحدثه عن هذا الجمال هنيهة حتى تتجلى صورة أخرى من صُوره فتقطع عليك حديثك وتجرّك إلى نافذة القطار يجرى فيشق النفق بعد النفق ، ويريك بعد كل نفق جمالا جديدا ، جمالا يجمع إلى العظمة الروعة ، وإلى السحر البهر: جبال تحجب الشمس وقد كست الخضرة كل سفوحها ، وتوّج الثلج هاماتها ، وجرت المياه فى أخاديدها فأسمعك خريرها أنغاما عذابا ، ورأيت من اجتماعها نهرا يجرى ماؤه صافيا سلسبيلا. وتنفسح الجبال عن غُوطة كست الزروع أرضها من الخضرة ألوانا متفاوتة ، وكست الأزهار خضرتها بالبنفسجى وبالأصفر وبالأحمر ، وكل واحد منها مختلف ألوانه . ويتعاقب ذلك بعضه فى أثر بعض كأنك تشهده فى « السينما » .

ولكن أى سينما ؟ سينما الخالق العظيم . سينما الوجود الحىّ بعظمته وجلاله. ويزداد الجلال وتتعاظمك العظمة كلما انحدرت الشمس وراء سلاسل الجبال فلا تكاد أنت تحقق أخيالا ما ترى أم حقيقة » [١]. أرأيت إلى هذا المهرجان الجمالى الذى تتعاقب فيه مواكب الفتنة الشادهة الباهرة موكبا إثر موكب ؟ أرأيت إليه وهيكل يضعه بين يدى القارئ ملكا خالصا ، هبةً وهبتها إياه نفسه الكريمة ؟ وذلك كله بتحويل الضمير فقط من « أنا » إلى « أنت » ، وزمن الفعل من الماضى إلى المضارع .

وقد يتخذ الأمر صُوَرا أخرى لا تصل إلى درجة التوحد بين الكاتب والقارئ بل تقف عند إشراك الأول للثانى فى مشاهدة بدائع ما يصف ، مثل قوله مخاطبا إياه : « انظر إلى الشىء الفلانى ... » أو « وأنت إذا رأيت ... » ، أو « ألا ترى أن ... ؟ ». إن الدكتور هيكل ، وهو فى بدر أثناء رحلته الحجازية يجوس خلال المواضع التى شهدت أول غزوة فى الإسلام ، سرعان ما ينخرط كعادته فى أحاديث الذكريات (التاريخية) آخذا فى استرجاع وقائع الغزوة . ثم فجأة يلتفت إلى القارئ بجواره ينبهه إلى ما يشاهد رغبةً منه فى إشراكه فى الاستمتاع بما يرى ، قائلا له : « انظر كرة أخرى ! فالآن يتخذ كل فريق فى زحفه مواقف الاشتباك بخصمه ويكادان

---

(١) ولدى / ٢٥٤ ـ ٢٥٥

يلتحمان . والآن يقف رسول الله وَجِلاً مشفقا مستقبلا القبلة متجها بكل نفسه إلى ربه يناجيه ويخاطبه : « اللهم هذه قريش قد أتت بخُيلائها تحاول أن تكذّب رسولك . اللهم فَنَصْرَك الذى وعدتنى . اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعْبَد » . ألا تراه ؟ إنه يمد كلتا يديه ويهتف بربه مستغفرا تائبا داعيا مبتهلا ... انظر إلى وجهه. إن أساريره لتنبسط وثغره لتضيئه ابتسامة الظفر ... عد بنظرك الآن إلى العريش . لقد انتبه رسول الله من نومه ... »[1]. ويجد القارئ من هذه الصور المختلفة من إشراك الكاتب إياه معه والتوحيد بين نفسه وبينه الكثير فى ما خطّته يراعة الدكتور هيكل من أدب الرحلات ، لا يشذ عن ذلك إلا ما كتبه عن الهند ، وهو قليل كما ذكرنا ويفتقر إلى الروعة الغامرة الموجودة فى رحلاته الأخرى .

ومما يقابله القارئ كثيرا فى رحلات د. هيكل مقارناته بين مشاهداته وتجاربه فى بلد من البلاد التى يزورها ومثيلاتها فى بلد آخر، وبخاصة مصر بلده . إنه مثلا فى « عشرة أيام فى السودان » يذكر طول الرحلة بين حلفا والدامر ، تلك الرحلة التى استغرقت ثمانى عشرة ساعة ، ثم يعلق قائلا إنها تعيد إلى الذهن سياحات مثلها أو أطول منها فى أوروبا ، مع الفارق الكبير المتمثل فى أن أكثر السياحات الأوروبية تمر بك بين جبال شاهقة وسط جو سريع

(١) فى منزل الوحى / ٦٤٣ _ ٦٤٤

التقلب وغابات وسفوح ناضرة تنفح بالعطر وتتزين بالزهور ، على عكس هذه السياحة السودانية وسط القفار الشاسعة العابسة والوحدة المطلقة والفضاء الصامت حيث لا تسمع هسيسًا ولا ترى طيرا أو حيوانا ، ولا نباتا أو شجرا إلا فى النادر [١].

وحين يرى الجموع الحاشدة تخرج بطبولها ومزاميرها لإعلان ابتهاجها ببناء خزان سنار رغم أن معظمهم ، كما يقول ، لايعرفون شيئا من أمر الخزان بل ربما اعتقدوا أنه وبال عليهم ، يتذكر الجموع المصرية التى تحتشد فى مثل هذه المناسبات ، مؤكدا أن هؤلاء وأولئك إنما خرجوا بأمر الحكومة التى حشرتهم حشرا دون أن يكون لهم فى الأمر رأى أو قرار [٢] .

وهو يلاحظ أن العمائر فى أثينا ليست فى عظمة أشباهها فى لندن وباريس والمدن الكبرى التى أرادت اليونان محاكاتها [٣]. وعند مروره هو وزوجته بالجمارك فى تركيا يجدان دفاتر قُيِّدت فيها الأسماء ، وأمام كل اسم نحو عشرين خانة عليهما ملؤها ، فلا يملك نفسه من المقارنة بين هذا الوضع المعقد المرهق وبين السهولة المتناهية فى الإجراءات الجمركية فى فرنسا وبريطانيا وسويسرا وإيطاليا ، حيث لا يزيد الأمر عن السؤال عن سبب الزيارة والمدة

(١) عشرة أيام فى السودان / ١٧ ـ ١٨ .

(٢) المرجع السابق / ٦٦ .

(٣) ولدى / ١٤٠ .

التى ينوى المسافر قضاءها هناك ، وإن كان قد حاول إيجاد العذر للأتراك فى أنهم قريبو عهد بالحروب ومحنها مما يدعوهم إلى كل هذا الاحتياط والتدقيق (١).

أما فى برلين فتلفت نظره شدة نظافة الشوارع وسعتها مما لا تدانيها فيه شوارع باريس ولا لندن . وهو يرجع ذلك إلى أن برلين مدينة حديثة وأن ميزانية بلدتها وحدها من الضخامة بحيث تكاد تبلغ ضعفى ميزانية مصر كلها آنئذ (٢).

وفى كتابه « فى منزل الوحى » نراه يعقد عدة مقارنات بين البساطة البدوية التى تسود علاقة الملك عبد العزيز برعيته والديمقراطية ، وبين صلاة المسلمين فى مساجدهم وصلاة النصارى فى كنائسهم من حيث أثرهما فى النفس ، وبين قبر الرسول عليه الصلاة والسلام وقبور الملوك والفراعين والأباطرة (أو البراطرة كما يقول !) وسائر العظماء من جهة الجلال الروحى الذى يشعر به الزائر حيال كل منها ، وبين المسجد والكنيسة باعتبار البساطة والتعقيد والحسية والتجريد ، وبين وقعة بدر ومعركة واترلو فيما خلفته كلتاهما من أثر فى حياة الإنسانية . وكل هذه المقارنات هى دائما لصالح الأطراف الأولى فيها (٣). ونحن نوافقه على ذلك ،

---

(١) المرجع السابق / ١٤٨ .

(٢) السابق / ٣٠٠ ـ ٣٠١ .

(٣) فى منزل الوحى / ١٢١ ، ١٨٠ ، ٤٦٨ ، ٤٩٠ ، ٦٤٧ .

لكن بالنسبة للمقارنة الأولى نرى أنْ ليست العبرة فى علاقة الحاكم والمحكوم بتلك الشكليات التى أعجبته هناك ببساطتها وتلقائيتها ، بل فى قدرة الرعية على اختيار الحاكم الصالح وتغييره إذا انحرف واشتراكها فى تسيير شؤون البلاد ومراقبتها لميزانية الدولة وأمنها على نفسها وحريتها فى الاعتقاد والتفكير والتعبير ، واختلاط الحاكم وأولاده بها اختلاطا حقيقيا لا شكليا بحيث تشعر أنهم منها وأنها منهم ... إلخ .

ومن ملاحظاته أيضا فى هذا السبيل أن مبانى جدة تبدو للمقبل عليها من البحر من بعيد وكأنها خُطِّطت تخطيطا جميلا وبُنِيَتْ على النظام الحديث كنظائرها فى نابولى أو مرسليا أو بيروت ، لكنه ما إن ينزل إلى الشاطئ حتى يرى أن الأمر ليس كذلك [١] . ومنها مقارنته بين طريقة الأكل فى السعودية وطريقته عندنا ، فهم هناك يأكلون بأيديهم من الأرز الموضوع فوقه الضأن المسلوق أو المشوى فى قصعة ، بخلاف طريقتنا الحديثة التى تكثر فيها الأطباق وألوان الطعام وتُسْتَخْدَم فيها الملاعق والشوك والسكاكين . وقد أعرب عن سروره بتناول الطعام بيده على الطريقة العربية ، إذ تذكّر أيام صباه الأول حين كان يأكل بنفس الأسلوب فى قريته [٢] . لكنه يبدى أسفه لتعفية الوهابيين دُورَ المسلمين الأوائل ، مقارنا فى

(١) المرجع السابق / ٧٠ .

(٢) السابق / ١٣٧ .

حسرة بين ذلك وبين عمل الحكومات الأوروبية على صيانة دُور عظمائها بكل سبيل (١). وهو نفس ما يشعر به إذ يقارن مدافن البقيع حيث لا يوجد أثر واحد يذكّر بمن دُفنوا بها وبين الپانتيون في باريس أو كنيسة وستمنستر في لندن ، مؤكدا أن الإنسان حينما يذهب لزيارة قبور المشاهير والعظماء الذين دُفنوا بها لا يجول بذهنه أى معنى من معانى العبادة على الإطلاق (٢). كما يؤلمه أن المسلمين ليس لهم أى تأثير فى العصر الحاضر رغم كثرتهم الهائلة ، وذلك على عكس اليهود ، الذين لا يزيدون عن خمسة عشر مليونا ، ومع ذلك « تهتز لمطالبهم جوانب البرلمان البريطانى وأرجاء عالم المال فى أمريكا وتقوم عصبة الأمم لمطالبهم وتقعد » . إن المسلمين ، كما يقول ، هم مجرد « أرقام ضخمة لا تعدو أن تكون أرقاما » (٣). وهى ملاحظة ما زالت للأسف تصدق عليهم بحذافيرها حتى الآن رغم جعجعاتهم وجعجعات حكامهم ، هذه الجعجعات التى لا تستطيع قتل ذبابة أو حتى بعوضة والتى لو اتُّخِذْت ولو ليوم واحد مقياسا لتقدم الشعوب وعظمتها لأتى المسلمون فى المقام الأول بين سائر الأمم .

وتعجّ مقالاته فى كتاب « شرق وغرب » بأمثال هذه المقارنات ، كمقارناته بين الكوميدى فرانسيز قبلا وبينها هى نفسها أثناء زيارته

(١) السابق / ٢٢٣ .

(٢) السابق / ٥٥٣ .

(٣) السابق / ٦٢٢ .

لها فى ١٩٣٧م ، والمقارنة بين شلالات النيل وشلالات نياجرا وشلالات شافوزن ، والمقارنة بين مواعيد الطعام ونوم الأطفال فى أسبانيا وإنجلترا ، والمقارنة بين فن ساروليا المصور الإسبانى وأمثاله فى أوروبا ، والمقارنة بين أعمدة مسجد قرطبة ونظائرها فى مساجد مصر وبخاصة الجامع الأزهر [١].

وفى زيارته سنة ١٩٥٥م للهند نراه يقف مقارنا بين التثليث الهندوسى والتثليث المصرى القديم والتثليث المسيحى من حيث التشابه فى الشكل والاختلاف فى الرمز والمضمون ، وإن كانت مقارنة سريعة ليس فيها شىء من التفصيل [٢].

وهذه المقارنات ، بالإضافة إلى كثرتها ، تتميز بالتنويع ورحابة المدى الذى تجول فيه ، مما يدل على اتساع ثقافة كاتبنا وعمق معارفه ، وكثرة التجارب التى مرّ بها والبلاد التى زارها : فمن مقارنات سياسية إلى أخرى اجتماعية إلى ثالثة دينية إلى رابعة فنية ... إلخ . وهى عنصر مهم جدا فى الوصف والتوضيح ، إذ بالضدّ تظهر ملامح الضد ، كما أن المعلومات التى يتلقاها القارئ بهذه الطريقة تثبت فى ذهنه ولا تبارحه بسهولة . ثم إن هذه المقارنات تدل على النزعة العالمية فى تفكير هيكل رحمه الله ، إذ يزْوَى له العالم

(١) شرق وغرب / ٢٠ ، ١٨٩ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٣٠٦ على الترتيب .

(٢) الشرق الجديد / ٢٣٧ .

وتتقارب البلاد والشعوب فيأخذ فى الربط والمقارنة بينها .

ويجنح الدكتور هيكل فى رحلاته إلى التأملات الفلسفية كلما سنحت فرصة . إنه لا تستغرقه اللحظة الحاضرة وما تعج به من مناظر ومشاهد وتجارب ، بل عنده القدرة على انتزاع نفسه من كل هذا والتحليق بذهنه فى عالم التأملات . ومن ذلك كلامه ، عند الآثار الفرعونية فى الأقصر ، عن الحاضر وعلاقته بالماضى والمستقبل(١) ، ومقارنته فى السودان بين العيشة الطبيعية كما كان ينادى بها روسو والحياة المتحضرة مع تفضيله للأولى (٢) ، وتأملاته، فى رحلته هو وزوجته إلى أوروبا نشدانا للسلوى بعد وفاة وحيدهما ممدوح ، عن القدر ووجوب الاستسلام له ومجالدة ما يجلبه من آلام مادام تغييره غير مستطاع ، والسبب الذى من أجله يأنس الإنسان إلى ظلام الصحراء ولا يأنس لظلام العمران ، ورأيه أن ليس فى القُبلة بين شاب وفتاة من حرج ، مع حملته على الاعتبار الجنسى (الوضيع كما يقول) فى نظرة أهل الشرق إلى هذا الرمز ، ومقارنته بين الطبيعة والخيال الإنسانى ، وقوله إن جمال الطبيعة والعمارة لا يتم إلا إذا تبدّى فيه جمال المرأة ، وتشكيكه فى مقدرة أيه نهضة على الاستمرار إذا كانت مفروضة من أعلى وليست منبثقة من

(١) فى أوقات الفراغ / ٢٥٢ .

(٢) عشرة أيام فى السودان / ١١٦ .

الشعب نفسه (١) ، وتصوُّره ، وهو في الحجاز ، الوجودَ متصلا في وحدة روحية هي نفسها دليل على وحدانية الله ، وتحليله للأخوّة التي تربطه بالمسلمين جميعا على اختلاف جنسياتهم وقومياتهم ، وتحليله كذلك لشعوره بالألفة تجاه المسجد الحرام رغم أنه لم يكن رآه قبل ذلك ، وتعليله عزة الأم بما يقوم به أبناؤها من تضحيات(٢) ، وتفضيله الطبيعة البكر التي من صنع الله على تلك التي تدخلت فيها يد الإنسان ، وحملته على الفكرة القومية ، التي أصبح يراها ضعيفة ذات بريق خادع ، وتأكيده أن العلم الحديث قاصر عن إسعاد الإنسان وأنه لا بد من الاستعانة بالدين ، وتساؤله عما كان يمكن أن يحدث لأوروبا والأمريكتين والعالم أجمع لو أن الإسلام بقي في إسبانيا ولم يخرج منها (٣) . وغير ذلك كثير .

وتعكس رحلات الدكتور هيكل تطوره الفكري والروحي : ففي رحلته إلى الأقصر تتبدى حماسته الفائقة للتاريخ الفرعوني والحضارة المصرية القديمة ، التي يقول إنها كانت قمة عادت بعدها المدنية القهقرى ولم تستطع بَعْدُ أن تبلغها ثانية بل لن تبلغها إلا إذا استعادت مصر مجدها وقادت العالم . وهو يرى أن مصر

---

(١) ولدي / ٦ ، ٢٠ ، ٢٣١ ـ ٢٢ ، ٢٦ ، ١١٢ ـ ١١٤ ، ١٥١ ، ١٦٥ .

(٢) في منزل الوحي / ٥٠ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ٥٧٣ .

(٣) شرق وغرب / ١٧ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٣٢٦ .

الحديثة لا بد أن تكون امتدادا لمصر القديمة [١] . وقد كان هيكل في ذلك الوقت يدعو إلى الفرعونية كما هو معروف ، وكان من نتيجة هذا الاتجاه عنده في ذلك الوقت أنْ كَتَبَ بعض القصص القصيرة من وحى التاريخ المصرى القديم ، مثل « أبيس » و « سميراميس » [٢] و « إيزيس » و « راعية هاتور» [٣] .

وفى « عشرة أيام فى السودان » يبدو كما لو كان يدافع عن السياسة الإنجليزية فى تسيير دفة المستعمرات اعتمادا على ما يقوله لورد كرومر فى كتابه « عباس الثانى » ، إذ يفضلها على السياسة التى تتبعها غيرها من الدول الاستعمارية فى مستعمراتها . كما يأخذ فى الحديث المستفيض عما يفعله الإنجليز فى السودان فى مجال السكان والصحة والاقتصاد ، وإن كان ينتقد مع ذلك أشياع الإنجليز هناك على مبالغتهم فى الزراية على الحكم المصرى والعربى قبل ذلك [٤] وكذلك نجده يسلّم بمصالح الإنجليز فى السودان ولا يرى أى غبار على سعى بريطانيا فى هذا السبيل ، مع مناشدتها فى نفس الوقت العمل على ارتباط مصر والسودن واتحادهما [٥] .

ترى أمن الممكن تفسير ذلك فى ضوء اتجاه حزب الأحرار

---

(١) فى أوقات الفراغ / ٢٥٣ ـ ٢٦٨ .

(٢) المرجع السابق / ٢٦٩ وما بعدها ، و ٢٨٨ وما بعدها .

(٣) وذلك فى كتابه « ثورة الأدب » / ١٤٠ وما بعدها ، و ١٥٥ وما بعدها .

(٤) عشرة أيام فى السودان / ٤٤ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ .

(٥) المرجع السابق / ١٢٦ ، ١٣٠ ـ ١٣١ .

الدستوريين ، الذى كان ينتسب هيكل إليه والذى لم يُعْرَف عنه عداوة للإنجليز كالحزب الوطنى مثلا ؟ لقد كان أستاذه لطفى السيد مثلا لا يجد غضاضة فى الفكرة القائلة بأنه إذا لم يكن استقلال مصر ممكنا وكان لا بد من أجنبى يحكمها فالإنجليز خير الحاكمين (١). صحيح أن هيكل ، حسبما كتب فى مذكراته عن السياسة المصرية ، قد رفض هذا النهج وردّ عليه بمقال فى « الجريدة » لسان حزب الأمة ، الذى ليس « الأحرار الدستوريون » سوى امتدادٍ له ، ولكن ذلك كان منذ وقت بعيد (٢)، فضلا عن أن الرقابة قد حذفت هذا المقال ووجهت اللوم إلى المشرف على « الجريدة » فى فترة غياب أحمد لطفى السيد آنذاك ، وهو عبد الحميد حمدى (٣). وربما أمكننا أن نضيف إلى هذا أيضا الزلزال الذى أصاب دنيا السياسة فى مصر ، على حد تعبير فتحى رضوان ، بسبب مقتل السير لى ستاك سردار الجيش المصرى على أيدى بعض الشبان الوطنيين قبل سفر هيكل إلى السودان بأكثر قليلا من

(١) انظر فتحى رضوان / عصر ورجال / مكتبة الأنجلو المصرية / ١٩٦٧م / ٤٨٨ ، ود. محمد الدسوقى / طه حسين يتحدث عن أعلام عصره / سلسلة « اقرأ » (العدد ٥٧٨) / ٢٧ ـ ٢٨ . وانظر كذلك فى موقف حزبى الأمة والأحرار الدستوريين من الإنجليز د. محمد سيد محمد / هيكل والسياسة الأسبوعية / ١٠٧ .

(٢) فى بداية الحرب العالمية الأولى .

(٣) فتحى رضوان / عصر ورجال / ٤٨٨ ـ ٤٨٩ .

عام [1]، إذ دخل لورد ألنبى المندوب السامى البريطانى على رأس جيش إلى مكتب سعد زغلول رئيس الوزراء فى ذلك الوقت وهو يكاد ينفجر من الغضب وسلمه إنذارا عنيف اللهجة طلبت فيه بريطانيا من الحكومة المصرية أن تدفع لها نصف مليون جنيه وتسحب الجيش المصرى من السودان مع إطلاق يد الحكومة البريطانية فى زراعة أرض الجزيرة هناك [2]. علاوة على أن سفره إلى السودان إنما كان بدعوة من الحكومة الإنجليزية هناك لحضور الاحتفالات التى كانت ستقيمها بمناسبة افتتاح خزان سنار .

وفى « ولدى » نراه يفلسف لزوجته القُبلة بين الشاب والفتاة فى الشارع ، وهو المنظر الذى صُدِمت به عندما رأته لأول زيارتها لفرنسا ، قائلا لها إن هذا المنظر لا يجرح حياء أحد وإنه مجرد قبلة أخوية تعبيرا عن إحساس جميل وعاطفة نبيلة ، وإن العبرة بالنية على كل حال ، وإن الحرية التى لم تحصل عليها أوروبا إلا بعد جهاد طويل وعنيف قد قضت على الاعتبار الجنسى الوضيع الذى يجعله المصريون والشرقيون عموما فى المقام الأول ، وإنها تفترض في الناس الطهر والبراءة [3]. كما نراه يشرب البيرة دون

(١) تم اغتيال لى ستاك فى خريف ١٩٢٤م ، وسافر هيكل إلى السودان فى أوائل يناير ١٩٢٦م حسب ما هو مذكور فى « عشرة أيام فى السودان » / ٣٥ .

(٢) فتحى رضوان / عصر ورجال / ٥٠٨ ـ ٥٠٩ .

(٣) ولدى / ٢٦ ـ ٢٧ .

أدنى تأثم (١)، بل إنه ليتحدث عن النبيذ وأنواعه حديثا قد يوحى بأنه بذلك الموضوع من العارفين (٢). وهو يدخل المساجد فى تركيا لا للعبادة بل لتذوق جمال عمارتها (٣) ، ويتهكم من طَرْفٍ خفىّ بالحديث المنسوب إلى النبى عليه السلام والذى رواه عكرمة من أن الشمس لا تطلع أبدا حتى ينخسها سبعون ألف ملك ... إلخ ، وذلك عند تأمله لغروبٍ بديع على الحدود بين المجر والنمسا (٤). كما نجده يؤمن بوحدة الوجود (٥)، ويرى فى الإيمان بالغيب والاستعانة به ضعفا لا يليق بالنفس التى تؤمن بالعلم ، قائلا إنه ما دام العلم فالوجود كله للإنسان (٦) . ثم إنه يعلل تصفيق مسلم ومسلمة فى الكوميدى فرانسيز إعجابا بأداء ممثل فرنسى يقوم بدور شارلمان فى رواية تاريخية ويشتم المسلمين ودينهم واصفا إياهم بالكفار وداعيا إلى قتالهم بأن « سموّ فن الكاتب وعظمة الممثل وبراعته قد أنست السامعين كل ما سوى الفن والإعجاب به . ذلك

---

(١) المرجع السابق / ٣١ .

(٢) السابق / ٥٧ ، ٢٢٨ .

(٣) السابق / ١٥٥ .

(٤) السابق / ٤١٢ . وقد سبق أن حلّل هذا الحديث تحليلا أكثر تفصيلا فى مقال مستقل يجده القارئ فى ص/ ١٩٤ وما بعدها من كتاب « فى أوقات الفراغ ».

(٥) ولدى / ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥٣ .

(٦) السابق / ٢٩٧ .

بأنه أخذ بالمشاعر جميعا فأنساها الحياة الوضيعة وسما بها إلى حيث لا تقدر شيئا غيره كائنةً ما كانت المعانى التى يعبر عنها والصور التى يجلوها والعواطف التى يجيشها » [١].

أما فى كتابه « فى منزل الوحى » فإن الأمر يختلف ، إذ بدلا من « وحدة الوجود » أصبحنا نسمع كلاما عن اتصال الوجود فى وحدة روحية هى دليل على وحدانية الله [٢] . كما أنه حريص على تأدية الصلاة وتفصيل القول فى ذلك [٣]. وعلى عكس اغتراره بقوة الإنسان بالعلم وعدم حاجته إلى الاستعانة بالغيب نجده يعلن أن الإنسان ضعيف وأن العلماء أصبحوا يعترفون بعجزهم ويفيئون إلى الله نابذين غرورهم بما عندهم من ذلك العلم [٤]. كذلك نراه فى موقف من مواقف الخطر فوق أحد الجبال بالسعودية يسلم أمره إلى الله مطمئنا نفسه بأن لكل أجل كتابا وأنه « لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » [٥]. وفى موقف آخر يعبر عن إيمانه المطلق بالغيب حاملاً بعنف على من لا يعتبرون إلا بالمحسوسات [٦]. وعند تصويره

(١) السابق / ٣٧ .

(٢) السابق / ٥٠ ، ١٧٢ .

(٣) انظر مثلا ص / ١١١ ، ١٧٨ ، ٣٢٠ ، ٣٤٤ ، ٦٢١

(٤) انظر مثلا ص / ٢٧ .

(٥) ص / ٣٦٩ .

(٦) ص / ٨٢ .

لما خالجه من مشاعر فى وقفته أمام قبر الرسول عليه السلام يؤكد أنه قد لقى ملوكا وتحدث إليهم فلم يجد للقياهم مثل هذه المهابة التى أحس بها آنذاك ، وأنه قد وقف أمام قبور لملوك وفراعين وأباطرة (أو « براطرة » كما قال) فلم يشعر بشىء من الجلال الروحى الذى أخذ على تفكيره المسالك وهو فى ذلك الموقف [١]. وفى نهاية الكتاب يتحدث عن يقينه بأن تأمُّل سيرة الرسول وتعاليم الإسلام هو خير ما يهدى الإنسانية إلى سبيل الحق والخير والجمال ويرقّيها رقيا عظيما [٢].

فإذا انتقلنا إلى كتابه « شرق وغرب » ، وهو يحوى وصف رحلاته التى قام بها بعد تأديته فريضة الحج ، فإننا نشاهده يصلى ويدعو الله ويناجيه بحجرته بأحد الفنادق فى ستراتفورد بلدة شكسبير[٣]. كما نجده يهتم بالأقليات الإسلامية فى أوروبا ويدعو إلى مدّ يد العون لهم [٤] ، ويحمل على الفكرة القومية واصفا إياها بالضعف والزيف [٥] ، ويؤكد أن العلم الحديث عاجز عن توفير

---

(١) ص / ٤٦٨ . وقارن هذا بعبارات الإعجاب الشديد بمقابر الفراعين وكنوزهم الفنية فى كتابه « فى أوقات الفراغ » / ٢٥٨ وما بعدها .

(٢) ص / ٦٧٤ .

(٣) شرق وغرب / ١٣ .

(٤) المرجع السابق / ٤٥ ـ ٥٤ ، ٢٣٤ ـ ٢٣٧ .

(٥) السابق / ٥٦ وما بعدها .

السعادة للإنسان ومـن ثم فلا بد له مـن الاستعـانة بالديـن [١]، ويتألـم أشد الألـم لضياع الأندلس من أيدى المسلمين[٢]. كما يحمـل على ديانـة مصر القديمة ، التى كانـت تؤله فرعـون ومظاهر الطبيعة ، واصفا إياها بالوثنية [٣]. ومما له دلالته أنه لم يجد ما يشبّه به تمثال « عروس البحر » القائـم على شاطئ كوبنهاجن إلا بإنسان جالس يقرأ التحيات فى صلاته [٤]. وهو فى زيارته للهند فى آخر حياته يبدى اهتمامـا خاصا بجامعـة إليجار الإسلامية ، مُبرِزا مكانتها الهامة فى مجال العلوم الدينية والعلوم الطبيعية على السواء [٥].

ويتميز أسلوب هيكل فى رحلاته بوجه عام بالفخامة والجلال والاحتفاء بالصياغة رغم أنه أسلوب عصرى فى وضوحه وبعده عن المحسنات والزخارف والتعقيدات والألفاظ الوعرة . وهذه الفخامة وهذا الجلال يرجعان ، فيما يبدو لى ، إلى الآتى :

فهو يطعِّم لغته بين الحين والحين بصيغ لفظية ليست شائعة فى أساليب العصر الحديث ، ولكنها مع ذلك صيغ رشيقة ومفهومة

(١) السابق / ٥٧ .

(٢) السابق / ٣٢٧ ـ ٣٢٨ .

(٣) السابق / ١٦٧ .

(٤) السابق / ٢٥٧ .

(٥) الشرق الجديد / ٢٣٥ وما بعدها ، ٢٤٤ .

تماما . إنه كثيرا ما يتجنب مثلا كلمة « المتعة » أو « الاستمتاع » لحساب كلمة « المتاع » (التى لا يعرف القرآن الكريم غيرها) كما فى قوله : « وما لبثت أن وجدت فى منزلى وما حوله ... سلوى حببت إلىّ الخرطوم وجعلتنى أرى فيها متاعا وروعة »(١) ، « وتخطر الباخرة الضخمة بعد بُون والناس مطمئنون لما يجدونه فيها من كل ألوان المتاع »(٢) ، « ولو لم نكن أسرى هذه المصالح إلى حد الخوف عليها دون الخوف من الموت لوجدنا فى ثورة الطبيعة متاعا نفسيا يعدل هذه المنافع أو يزيد عليها »(٣) ، « لأنك واجد فى كل ساعة منها متاعًا تَرِد منهله »(٤). كما أنه مغرم بترديد لفظة « البهر » بدلا من « الانبهار » ، وهو ما لا أذكر أنى وجدته عند غيره من الكتاب المحدثين . ومن أمثلة ذلك قوله: « وجاهد الذهن يريد أن يقف مما رأت العين وتأثرت به النفس واهتز له القلب عند فكرة فكان أكثر منها جميعا بهرا وحيرة

(١) عشرة أيام فى السودان / ٣٠ . وانظر كذلك ص / ٣١ ، ٦٤ ، ٧٣ مثلا .

(٢) ولدى / ٢٨٠ ، وكذلك فى الصفحات التالية على سبيل المثال / ٥ ، ١٩ ، ٢١ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٩ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٨٢ ، ٩٢ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٥٦ ، ٢٥٢ .

(٣) فى منزل الوحى / ١٠٣ . وانظر ص / ٩ ، ١٤ ، ١٨ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٢٠٥ ، ١٦١ ، ٢٨٧ أيضا .

(٤) شرق وغرب / ٣٠ ، وكذلك ص / ٣١ ، ٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢١٥ ، ٢٤٤ ، ٢٩٨ ، ٣٠٥ ، ٣١٥ ، و « الشرق الجديد »/ ٢٣٤ .

واهتزازا » ، « ويُعْجَب الناس بصور ميكلانج وبنقوشه ، ويذهب بهم الإعجاب إلى حدّ البهر وإلى حد الهيام » ، « ولكنى لا أستطيع أن آتى على الوصف الذى يبعث إلى نفسك الإجلال والبهر اللذين ملآ نفسى حينما كنت بين هذه الآثار » (١) .

ومن هذا البـاب أيضا استعمالـه أحيانا صيغة « مَهُوب » بدل « مَهِيب » ، التى لا يستخدم غيره سواها : فكنيسة المادلين فى باريس « مهوبة العمارة » ، والظلمة « مهوبة »، والمكان « مهوب »، وجبال الألب « مهوبة » ، والمعنى « مهوب » (٢)، وهذه مجرد أمثلة من كتاب « ولدى » فقط . كذلك فعندمـا يريد وصف شىء ما بـ « الفخامة » نراه يراوح بين صيغتى « فخم » (وهى الصيغة الشائعة) و « فخيم » ، التى ليس لها شيوع الأولى . والشىء نفسه يصدق على أسماء الإشارة للمفردة المؤنثة ، إذ يستعمل إلى جانب «هذه» صيغتى « هاته » و « هاتيك » على نحو لافت للنظر .

---

(١) فى أوقات الفراغ / ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ . وانظر « عشرة أيام فى السودان » / ١٢ ، و « ولـدى » / ٢١ ، ٥٠ ، ٦٩ ، ١٥٢ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٣١ ، ٢٥٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٧٣ ، ٣١٣ ، و « فى منزل الوحى » / ٢٤٩ ، ٣٣٩ ، ٤٧٥ ، و « شرق وغرب » / ١٩٥ ، ١٣٢ على سبيل المثال . وبالمناسبة فهناك أيضًا لفظتان تترددان فى كتابات د. طه حسين على نحو لافت للنظر ، وهما « النُّجْح » و « السَّرَف » (بدل « النجاح » و « الإسراف ») .

(٢) انظر « ولدى » / ٣٩ ، ٩٨ ، ١٠٥ ، ١١٣ ، ٣٠٨ .

ومن الألفاظ التي تكررت عنده كلمة « هسيس » (أى الكلام الخفى) [١]، و « هتَنَ » ومشتقاتها (للدلالة على هطول المطر) [٢]. وهناك ألفاظ وصيغ لم تتكرر عنده ، أو لم تتكرر بشكل يجعلها فى ذاتها علامة من علامات أسلوبه ، ولكنها تُعَدّ مع غيرها دليلا على اتجاه الأسلوب عنده فى بعض الأحيان نحو الألفاظ والصيغ التى سقطت من الاستعمال العصرى كما شرحنا ، مثل « البرابى » (وهى المعابد والقصور القديمة)[٣]، و « احتفر » (بدل « حفر ») [٤]، و«أضالع» (بدل « ضلوع »)[٥]، و « تَرِبٌ » (بدل « مُتْرِب ») [٦] ، و«التفكرة» (بدل «التفكير») [٧]، و « أصَارَ » (بدل «صيَّر») [٨] ، و «الممارسة» (بدل « المساومة ») [٩]، و « عِيَاب

---

(١) فى أوقات الفراغ / ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، وعشرة أيام فى السودان / ١٨ ، وفى منزل الوحى / ٩٦ مثلا .

(٢) انظر مثلا « ولدى » / ٩٨ ، ٩٩ ، و « فى منزل الوحى » / ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٧٩ ، ٤٤٢ ، و « شرق وغرب » / ١٠٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٧ .

(٣) فى أوقات الفراغ / ٢٥١ .

(٤) عشرة أيام فى السودان / ٢٦ .

(٥) المرجع السابق / ٤٠ .

(٦) السابق / ٤٨ .

(٧) ولدى / ١٧ .

(٨) المرجع السابق / ٢٠ .

(٩) السابق / ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ .

المتاع » (بدل « حقائب السفر ») [١] ، و « ادّكَر » (بدل « تذكّر »)[٢] ، و « المُئون » (بدل « المئات ») [٣] ، و «يتنطّس أخبار فلان » (بدلا من « يتحسس »)[٤]، و « أهبَّ فلانٌ فلانًا من نومه » (بدلا من « أيقظه ») [٥] ، والمزوِّر » (من «الزيارة» ، بدلا من « المطوِّف ») [٦] .

ويكثر فى رحلات كاتبنا استخدام « إذ / إذا » الفجائية وتَتَابُعُها كثرة شديدة . وربما كان مرجع ذلك إلى أن كثيرا من الأشياء والأمور التى يقابلها السائح تكون غريبة عليه لأن لكل بلد عاداته وتقاليده وأوضاعه التى تختلف عما فى بلد السائح . ويكثر استعمال هيكل لـ « إذا » أو « إذ » هذه على وجه خاص فى التركيبين التاليين : « وإنّا لـ ... إذ / إذا » و « بينما / فيما نحن ... إذ/ إذا » ، مثل قوله : « وإنّا لفى مسيرتنا إذ استوقَفَنا بناء جميل فخم كله الرهبة والجلال »[٧] ، « وفيما اليأس يعمل

(١) فى منزل الوحى / ٤٥ .

(٢) المرجع السابق / ٥٦ ، ١١٩ ، ٤٣٥ ، ٤٥٦ .

(٣) السابق / ٨٣ ، ٦٥٧ .

(٤) السابق / ١٨٦ ، ١٩٨ .

(٥) السابق / ٢٦١ .

(٦) السابق / ٤٦٨ .

(٧) ولدى / ٢٥ .

فى النفوس إذا برق يخفق يخطف سناه الأبصار »[١] ، « فبينما الجو صحو فى الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم والبحر ساكن والشمس تنعكس أشعتها على صفحة الماء إذا ضباب يهبط دفعة واحدة حتى حجب الشمس وملأ الجو كريح الدخان »[٢]. والصورة الأولى بالذات من هذا التركيب تعبق بعطر الأساليب القديمة الفخمة .

وهناك تركيب آخر عنده يحمل عبق الأسلوب القديم الجليل أيضًا ، وهو يقوم على فكّ الإضافة وإعمال المضاف (الفاعل أو المصدر) فى المضاف إليه إعمالا مباشرا دون الاستعانة بلام الجرّ . إننا نقول مثلا : « الأسباب المفسدة للشىء الفلانى » و « شُكْرنا لها على ما فَعَلَتْ » ، لكن د. هيكل يؤدى ذلك على النحو التالى : « ثم تكون كل الأسباب الصناعية الطارئة على هذا التضامن والمفسدة إياه موقوتة مرهونة بالزوال »[٣] ، و« هى معطاء وهوب ،

(١) المرجع السابق / ٩٨ .

(٢) السابق / ٢٤٢ . وتجد أمثلة أخرى فى ص / ٣٦ ، ٨٠ ، ٩٨ ، ١٥٥ ، ٢٠١ ، ٢١٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٣١٤ ، وكذلك فى كتاب «فى أوقات الفراغ» / ١٢٥ ، و « عشرة أيام فى السودان » / ٨٠ ، و « فى منزل الوحى » / ٤١ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ١١٢ ، ٢٦٦ ، ٤٠٤ ، ٤٣٦ ، ٦٦٠ ، و « شرق وغرب » / ١٠٣ ، ٢٢٢ ، ٢٤٨ ... إلخ .

(٣) عشرة أيام فى السودان / ١٢٨ . وانظر كذلك ص / ٦١ ، ٨٩ ، ١١٣ ، ١٣٤ .

وإن كانت آخر الأمر تسترد أكثر مما أعطت عن جزَلٍ منك بما تهبه لك وشكرٍ إياها على حسن قبولها » (١).

ومن هذا الباب أيضا إكثار أديبنا من استعمال النعت والحال السببى ، مثل : « وتمتعتُ فى هذا الوقت الظريف الرقيق هواؤه الهادئة شمسه بمناظر الغزال والنعام » ، « وظهر من وراء السلطان مائتان معْلَمَةٌ رماحُهم » (٢).

كما يتكرر لديه كثيرا انقلابُ الوصف المتكون من اسم موصول وصلته إلى حال (عن طريق حذف الصلة وموصولها) ، كقوله مثلا : « وأذكرتنى (هذه الدعوة) الرحلة الطويلة كنت أمضى فيها بياض النهار وقطعا من الليل وجُلّ مقصدى أن أشهد تلك الموميات الناطقة فى صمت الموت بجلال القدم » (بدل « وأذكرتنى الرحلاتِ الطويلةَ التى كنت أمضى فيها بياض النهار ... ») ، و « ومهما تعزَّيْتَ بمشهد الوادى عن جانبك

(١) شرق وغرب / ٣٠ . وتوجد أمثلة أخرى فى ص / ٢٨ ، ٣٧ ، ٥٩ ، ٧٦ ، ٩٠، ١٢٨ ، ٢٠٧ ، ٢٤٩ ، ٢٦١ ، ٢٩٩ وغيرها ، وفى « ولدى » / ٣٩ ، ٤٠ ، ١٩٤ ، ٢٤٧ ، و « فى منزل الوحى » / ٤٩ ، ١٣٠ ، ١٥٩، ٢٢٠، ٢٧٣ ، ٣١٤ ، ٤١٥ ، ٦٤٢ ، ٦٦٠ ... إلخ .

(٢) عشرة أيام فى السودان / ١٠٠ ، ١١٦ . وانظر أمثلة أخرى فى ص / ١١٣ ، وفى « ولدى » / ٣٩ ، ٩٤ ، ١٣٨ ، ٢٠١ ، ٢٤٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، و « فى منزل الوحى » / ٤٦ ، ٢٠١ ، ٢٣١ ، ٢٥٠ ، ٢٩١ ، ٣٥١ ، ٤٣٠، ٥٥٢ ، و « شرق وغرب » / ٣١٤ ، ٣٢١ ... إلخ .

يشقه القطار فتتتابع صوره أمام نظرك كأنهـا صـور متحركة فإن هـذه الصور بالغة آخر الأمر من التشابه ما لا ترى بعده محلا لاستزادة » [١] (بدل « ومهـما تعزيت بمشـهد الوادى ... الذى يشقه القطار ... ») .

ومثل ذلك إكثاره من استعمال « أَنْ » والفعل الماضى بعدها مفعولا لأجله ، وهو من التراكيب التى يندر أن نقابلها فى الأساليب الحديثة ، مثل : « وهذا طبيعىٌّ أَنْ كان السودانيون قليلين فى الخرطوم جدَّ القِلَّة »و « لعله الشعور بالحرية أنْ ليس بينهم وبين الحكام من الروابط القريبة ما يجعلهم دائمى الإحساس بمراقبتهم إياهم مراقبة ضيقة » [٢]. وكذلك يكثر عنده استعمال هذا التركيب فى مواضع غير المفعول لأجله لا يكثر استعمالها فيها الآن.

ويجـرى فى هـذا المجرى أيضا لجوؤه فى كثير من المواقف إلى « ما » المصدرية الظرفية فـى المواضع التى نستعمل نحن الآن فيهـا

---

(١) فى أوقات الفراغ / ٢٤٧ ، ٢٤٨ . وانظر كذلك ص / ٢٥٠ ، ٢٥٣، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٦ ، و « عشرة أيام فى السـودان » / ١٠، ١١ ، ١٦ ، ٣٧ ، ٥٤ ، ٦٧ ، ٧٣ ، ٨٧ ، ١٢٤ ، و« ولـدى » / ٥ ، ٩ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٧٧ ، ١٠٤ ، ١٥٢ ، ١٩٤، ١٥٤ ، و«فـى منزل الوحى » / ١٤ ، ٣٤٧ ، ٦٣٦ ، و « شـرق وغـرب » / ١٧ ، ٤٠، ١٥٣، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ٣٢٢ ، ٣٠٣ .

(٢) عشرة أيام فى السودان / ٣٢ ، ٦١ . وانظر كذلك « ولدى » / ٥ ، ١٦ ، ٢٤، ٤٠ ، ٦٨ ، ٨١ ، ٨٨ ، ٢١٥٤ ، ٢٧١ ، و « فى منزل الوحى » / ٣٧٢ ، ٤٤٨، و « شرق وغرب » / ٣١٣ .

« ما دام » وما أشبه . ومن ذلك على سبيل المثال قوله : « ينبئنا بأن الإنسانية ستظــل كذلــك ما بقيت » ، « فالأقليــات ضعيفة ما وجدت نفسها فى عزلة » ، « قمعــوها بكل عنف ما استطاعوا قمعها » [١].

ويكثر فى أسلوب هيكل أيضا المفعول معه ، وبخاصة إذا كان ضميراً . وهو يستخدمه حتى حينما يكون المعطوف هو الصواب أو الأصوب على الأقل ، مثل : « قال صاحبــى الذى جــاء وإيــاى مــن الخرطوم : ... » ، « ويطوفون وإياهــم بعــض مزارع القطــن » ، « وجعلنا ننتظر من يجلس وإيانا فيه » ، « من غير أن يشتركا وإياه فيه » [٢].

كما تتكرر عنده عبارة « كلُّه الحسن » أو « كلُّه البلاغة » أو « كلُّه الظَّرف » ... إلخ ، وهى من الاستعمالات غير الشائعة فى الأسلوب العصرى .

---

(١) شرق وغرب / ٥٨ ، ٦١ ، ٧٦ . وهناك أمثلة أخرى فى ص / ١٤٤ ، ١٧٧ ، ٢٠٨ ، و « فى منزل الوحى » / ٢٤ ، ٩٢ ، ١٤١ ، ١٧٧ ، ١٩٥ ، ٣٣٣ ، ٤١٣ ، ٤٢١ ، و « ولــدى » / ٤١ (مرتــين) ، و « فى أوقات الفراغ » / ٢٥٤ ، ٢٦٠ .

(٢) عشــرة أيــام فــى الســودان / ٦٢ ، ٧٠ ، ١٠٨ . وانظر كــذلــك ص / ١٢٤ ، و« ولــدى » / ٢ ، ١٣ ، ٢٨ ، ٣٤ ، ٦٠ ، ٨٧ ، ١٠٤ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، و « فى منزل الوحى » / ٦٣ ، ٦٨ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ١٣٧ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ٢٢٠ ، ٢٤٥ ، ٢٥٨ ، ٣١٣ ، ٦٣٤ ، و « شــرق وغــرب » / ٤٥ ، ٤٩ ... إلخ .

ومما يتكرر عنده أيضا على نحو بارز صيغة التعجب : « ما أفعله » ، التى كثيرا ما تكون فى الزمن الماضى : « ما كان أفعله » . وهذا التكرار أمر طبيعى ، إذ إن جدة المشاهد والمرائى بالنسبة للسائح الغريب من شأنها أن تثير دهشته وحبوره فينطلق لسانه بعبارات الإعجاب والتعجب . وصيغة التعجب الماضوية بالذات من سمات الأسلوب القديم ، والشعرى منه خصوصا .

كذلك يكثر عنده عبارة « ها هو ذا » و « ها هم أولاء » وهى أيضا من عبق الأسلوب القديم الرصين .

وإذا كنا فى العصر الحديث عادة ما نقول : « لَمْ يقم فلان من نومه بَعْدُ » فإن الأسلوب القديم كان كثيرا ما يستخدم فى هذا السياق « لـمّا » بدلا من « لم ... بعد » ، وهو ما نجده عند هيكل أحيانا . كذلك فإذا كنا فى العادة الآن نقول : « أقسم فلان إنه سيفعل كذا » فإن هيكل فى غير قليل من الأحيان يقول كما كان القدماء يقولـون : « أقســم فلان لَيَفْعَلَنَّ كذا » . ثم إنه إذا كان يقال حاليًا: « حدث هذا يوم أن قابلناه » فإنه هو يقول . « حدث هذا يومَ (أو ساعةَ) قابلناه » بإضافة اليوم (أو الساعة) إلى جملة الفعلية التى بعدها مباشرة دون وساطة « أَنْ » فى غير قليل من الحالات .

ومما يُكْسب أسلوب كاتبنا رصانة وجلالا استعانته ببعض عبارات القرآن الكريم وتراكيبه . وهو يختلف عن كثيرين غيره فى

هذا الصدد فى أنه لا يلجأ إلى آيات الأمثال والحِكَم أو الآيات التى تجرى على الألسنة بل إلى آيات ليست لها شهرة هذه ، علاوة على أنه لا يأخذها كما هى بل يطوّعها للسياق الذى يضعها فيه بحيث لا تلفت النظر من أول وهلة . مثال ذلك قوله : « إنه ربما اختلف عن جمال هذا الوطن الذى أنبت شكسبير وأوحى إليه من آيات الشعر الخالد ما أوحى » ، « لكننا نريد لهذه الأقليات الإسلامية فى بيئات الشرق والغرب أن تنبعث من مرقدها وأن تفيق من سبات الجهل » ، « وما أروع هذا المستنيب الذى يستغفر لذنبه » ، « فهى جنّة حقا : مياه جارية ، وشذى يتضوع من نبات شتىً ، وأشجار باسقة تحيط بهذا النبات » [1].

وفوق ذلك كله فإنك لا تجد فى كتابات هيكل ، لا فى الرحلات ولا فى غيرها ، أية كلمة بذيئة أو فِجّة أو عارية أو مفحشة. وكذلك لن تجد له شيئا من التفاهات أو السَخافات التى قد نقابلها عند بعض الكتاب . وهذا من شأنه أن يحافظ على جو الرصانة والفخامة .

. ورغم هذه الرصانة والفخامة فإن أحد الباحثين ينعت أسلوب هيكل فى رحلاته بأنه أسلوب صحفى يفتقر إلى العِمق والثراء الفنى[2] ، وهو حكم يخالف واقع الأمر مخالفة تامة كما يَتضح من التحليل السابق .

---

(١) شرق وغرب / ١٥ ، ٦١ ، ٢١٤ ، ٣١٤ . وفى هذا الكتاب وغيره أمثلة أخرى كثيرة .

(٢) انظر د. محمد سيد محمد / هيكل والسياسة الأسبوعية / ٧٦ .

لكنْ للأسف « الحلو لا يكمل » ، إذ إننا لا نعدم خطأ لغويا بين الحين والحين ، مثل : « نسيت ما نحن منهمكين فيه من أعمال الحياة ، وما نحن مرتطمين فيه من الشهوات السياسية »[١] ، « وجعل اللورد وقرينته يطوفان بالحاضرين عموما وأهل السودان خصوصا يتعارفون بهم ويصافحونهم يدا بيد »[٢] ، « ما بال هذا الرهط أحمر مصبوغ ... ؟ »[٣] ، « على أن لها في تجريدها وإمحالها جلال وروعة كجلال البحر وروعته »[٤] ، « فلا تكاد أنت تحقق أخيالا أم حقيقة ... »[٥] ، «حتى ليظنُّوا أن ...»[٦] ، « مخافة أن يدفعهما الخوف حين يرياه قتيلا ... »[٧] ، « وبه ... مكتبة حوتْ ... سبعا وعشرين ألف مجلد »[٨] ، « ولا تزال في

(١) في أوقات الفراغ / ٢٤٧ . والصواب : « منهمكون » و « مرتطمون » ، إذ كلاهما خبر لمبتدإ .

(٢) عشرة أيام في السودان / ٤٢ . والصواب : « يتعارفان بهم ويصافحانهم » .

(٣) المرجع السابق / ٦١ . والصواب « مصبوغا » بالنصب .

(٤) ولدى / ٢١ . والصواب : « جلالا » لأنه اسم « أن » . ومثلها : « وقد يكون حقا أن بين الإنكليز اليوم وما قبل الحرب فارق في ذلك محسوس » (ص / ٦٣) .

(٥) المرجع السابق / ٢٥٥ . والصواب : « أخيال ... ؟ » لأنه خبر الاسم الموصول الذي يليه .

(٦) شرق وغرب / ٤٨ . والصواب « حتى ليظنون » .

(٧) المرجع السابق / ٢٤٩ . والصواب « يريانه » بثبوت النون ، لأن الفعل مرفوع .

(٨) السابق / ٢٨٤ . والصواب : « سبعة وعشرين ألف مجلد » بتأنيث « سبعة » .

هذه المدن إلي اليوم آثار إسلامية ... كمسجد قرطبة الجامع وقصر إشبلية وقصر الحمراء ذو الشهرة العالمية » (١) . على أن من الممكن أن يكون بعض هذه الأخطاء أخطاءً مطبعية لا يد للكاتب فيها .

وهناك خطأ تكرر كثيرا عنده ، (وإن كان عدد من الكتاب المعاصرين يقعون فيه أيضا) ، وهو استخدام الفعل الماضي «آوى» (بزيادة الهمزة) على أنه فعل لازم فنراه يقول : « آوى محمد إلى منزله » (٢) . وقد قيل لى إنها قد استُخدِمت هكذا فى القرآن في قوله تعالى على لسان ابن نوح : « قال : سآوِى إلى جبل يعصمنى من الماء » (٣) وعلى لسان هود عليه السلام : « لو أن لى بكم قوة أو آوِى إلى ركن شديد » (٤) ، فبينت للقائل المعترض أن الفعل فى كلتا الآيتين مضارعٌ على وزن « أَفْعِل » ، ومعنى ذلك أنه مُجرّدٌ وأن ماضيه هو « فَعَل » ، أى « أَوَى » وليس

(١) السابق / ٣٠٠ . والصواب : « ذى الشهرة » .

(٢) تجد أمثلة على ذلك فى كتابه « فى أوقات الفراغ » / ٢٥٠ (مرتين) ، ٢٥١، و « عشرة أيام فى السودان » / ١٨ ، ١٠٧ ، و « الشرق الجديد » / ٢٣٨ ، و « شرق وغرب » / ٢٧٩ ، ٣٠٤ . وقد استخدمها صحيحة فى كتاب « ولدى » كله ، وفى ص / ٢١ ، ٢٤ من « عشرة أيام فى السودان » ، وص / ١٤٣ ، ٣٠٩ من « شرق وغرب » .

(٣) هود / ٤٣ .

(٤) هود / ٨٠ .

« آوَى » . ولو كـان الفعـل فى الآيتين هو مضـارع «آوَى » لقيل: « أُووِى » .

كذلك تكرر عنـد هيكـل رحمـه اللـه التـركيـب التالـى : « مالبث أن غادر المكان حتى إذا قنبلةٌ تنفجر » [١]. ولا أذكر أنى رأيت مثل هذا التركيب من قبـل، ولا أدرى أثمـة حاجة إلى «إذا» الفجائية هنا مع عبارة « مالبث ... حتى » ، التى تدل هى نفسها على المباغتة .

وأحب أن ألفت النظر إلى العبارات الهيكلية الآتية : « أَردية المقابلـة » [٢] (أى « الملابـس الرسميـة » ، التـى استخدمهـا هـى أيضـا) [٣]، و « عالـم نباتىّ »[٤] (بـدل « عالِـم نبـات ») ، و «معظِّمٌ للصوت»[٥] ، (بدل « مكبر للصوت ») ، و « قنصل بريطانيـا الجنـرال فـى مصـر » [٦] (بدل « قنصـل بريطانيـا العـام ») ، و « فِراش الميلاد » [٧] (أى سرير الوضع) ، و« تزيين

(١) عشرة أيام فى السودان / ٢٣ . وانظر كذلك « شرق وغرب » / ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٨٩ مثلا .

(٢) عشرة أيام فى السودان / ٣٨ .

المرجع السابق / ٣٧ ، ٧٣ .

السابق / ٤٧ .

السابق / ٧٤

السابق / ٨٣ ، ٨٤ .

(٧) ولدى / ٦ .

ذقنك »[1] (يقصد « حلاقة لحيتك ». وأهل الريف يسمون الحلاّق « مزيّنا ») ، و « المقرّبات » [2] (النظارات المعظمة) ، و « تحت الأرض / الأنبوبة » [3] (وهما ترجمة حرفية للتسميتين الإنجليزيتين لمترو الأنفاق : the underground, the tube) ، و « المَشْوَى » [4] (وهى أحسن ما سمعت للدلالة على المطعم الذى يقدم المشويات) ، و « وقاء الكتب » [5] (أى أغلفتها) ، « والهُرْديفْر » [6] (وهى المشهّيات أو المقبّلات أو فواتح الشهية ، وقد أبقاها هيكل كما هى فى الفرنسية) ، و « ملابس الخفْية »[7] (يقصد « الملابس التنكرية ») ، و « المبلّغات » [8] (مكبرات الصوت)، و « فنار السيارة »[9] (مصباحها الأمامى) ، و « البراطرة » [10] (أى الأباطرة) ، والفوتوغرافيا » [11] (آلة

---

(١) المرجع السابق / ١٧ .

(٢) السابق / ٢٢ .

(٣) السابق / ٦٩ .

(٤) السابق / ٥٧ .

(٥) السابق / ١٢٧ .

(٦) السابق / ٥٧ .

(٧) السابق / ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٨) فى منزل الوحى / ٨٧ ، ١٧٩ ، ٤٤٢ .

(٩) المرجع السابق / ٤٣٩ .

(١٠) السابق / ٤٦٨ .

(١١) السابق / ٦٣٧ .

التصوير الشمسى) ، و « مصباح كهربائى » [١] (يقصد إشارة المرور ») ، و« الإكزيستانسياليسم » [٢] (الوجودية) ، و « ألفيت عند الفندق مُشيرا كُتِب عليه كذا » [٣] (أى سهما) ، و« يدير الفرقة الموسيقية » [٤] (أى يوجّهها بعصاه) ، و «سراى البريد»[٥] (مبنى هيئة البريد) .

إن رصد هذه العبارات من شأنه أن يعيننا فى تتبع التطور اللغوى للساننا فى العصر الحديث والاستعمالات التى لم يُكْتَب لها البقاء ، كما أنه يساعد فى وضع المعجم التاريخى للغتنا .

هذا ، وقد قرأت أن « الدكتور هيكل لم يكن يؤلف كتبه ، وإنما كان يكتبها له أناس آخرون ثم ينسبها لنفسه » [٦]، فما مدى صحة هذا الكلام ؟ لقد رأينا لأسلوب الرحلات عنده سمات متميزة

---

(١) شرق وغرب / ٣٨ .

(٢) المرجع السابق / ٢٠٠ .

(٣) السابق / ٢٢٧ .

(٤) السابق / ٢٦٣ .

(٥) السابق / ٢٨١ .

(٦) جاء هذا الكلام على لسان د. طه حسين فيما نسبه إليه د. محمد الدسوقى ، الذى كان كاتبه لمدة السنوات العشر الأخيرة من حياته . ونحن فى الواقع لم نقرأ شيئا من هذا الكلام فيما كتبه الدكتور طه ؛ فالعهدة فيه إذن على الكاتب . انظر د. محمد الدسوقى/ طه حسين يتحدث عن أعلام عصره / ٨٢ .

مطّردة ، مما يدل على أن كاتبها واحد [١] . ولو كان الكاتب شخصا آخر غير هيكل لكان معنى ذلك أنه ظل يقوم بهذه المهمة منذ منتصف العشرينات إلى منتصف الخمسينات ، فأين ذلك الشخص الذى يمكن أن يكتب هذه الأعمال الأدبية الرائعة ثم يرضى أن يبقى فى الظل طيلة هذه المدة ودون أن يقع بينه وبين من ينتحل أعماله أى خصام أو خلاف ؟ ثم ما الذى أسكته منذ موت هيكل حتى الآن فلم يكتب شيئا يضع عليه اسمه ؟ ذلك أن الأسلوب الذى كُتِبَتْ به مؤلفات هيكل لا يوجد له نظير بين الأساليب ، ومعنى ذلك أن هذا الأسلوب قد توقّف بوفاة صاحبه . ثم كيف يكتب لهيكل أحد آخر رحلاته ؟ إن هيكل هو الذى رأى وشاهد وعايش التجربة ، فكيف يصف ذلك كله من لم ير أو يشاهد أو يعش التجربة ؟ والملاحظ أن د. الدسوقى [٢] قد قدّم لذلك الحكم بقوله : « وللعميد رأى فى مؤلفات الدكتور هيكل ، وهو رأى يتعارض مع ما قاله فى رثائه » . كما أنه قد عقب عليه

(١) بل إن هذا الأسلوب هو هو نفسه الأسلوب الذى يقابلنا فى كل ما كتب هيكل. وقد أشرت إلى عدد من سمات هذا الأسلوب فى نقدى لرواية « زينب» فى هذا الكتاب .

(٢) لم يرو د. الدسوقى هذا الكلام الذى نسبه إلى الدكتور طه إلا بعد وفاة العميد ، وعليه من ثم تقع العهدة كلها لأن أحدا غيره لم يسمعه ، وبالتالى لم يروه سواه . بل لقد ذكر أنه كان حريصا أبلغ الحرص على ألا يعرف العميد أنه يدوّن شيئا مما يقول . انظر « طه حسين يتحدث عن أعلام عصره » / ٦ .

قائلا : « وبعد وفاة الدكتور هيكل قال عنه العميد فى حفلة التأبين: ذلّل القصة لكتّابها ، وذلّل السياسة الصحفية لكتابها ، وشارك زملاءه ومعاصريه فى تذليل اللغة العربية وتمكينهـا من أن تكون ملكا للذين يتكلمونها » [١]. ليس هذا فقط ، بل إن د. طه طوال حياة هيكل كان يعامله ويكتب عنه ويشتبك معه فى مطارحات فكرية على أساس كونه كاتبا لا مكتوباً له . كذلك فإن أحدا آخر لم يرو هذا الذى نسبه د. الدسوقى إلى الدكتور العميد .

هذا ، وقد كتب عبد المنعم شميس ذات مرة أنه « سبق أن ادعى أحد المصححين أنه شارك الدكتور محمد حسين هيكل فى تأليف كتابه الشهير « حياة محمد » ، مع أن هذا المصحح لا يعرف حرفا واحدا من الحروف اللاتينية ، ومراجع هيكل فى كتابه بعضها فرنسى أو إنجليزى إلى جانب المراجع العربية » [٢] ، فلعل الإشارة فيما رواه د. الدسوقى إلى هذه الواقعة التى إن صحّ منها شىء فلا أظنه قد تعدّى ملاحظةً أبداها ذلك المصحح للدكتور هيكل أو فكرة راجعه فيها أو مرجعًا ذكر له أهميته بالنسبة لكتابه المذكور مثلا ، وهو ما قد يحدث لأى مؤلف ولا يغض بأية حال من قيمة عمله ،

---

(١) نفس المرجع والصفحة .

(٢) عن كتاب « طه حسين فى معاركه الأدبية » لسامح كريم / كتاب الإذاعة والتلفزيون (العدد ٢١) / ٢٩٢ .

فضلا عن أن يُعَدّ مشاركة له فى التأليف .

والحق أن هذه ليست المرة الأولى التى نسمع فيها عن أحد الكُتّاب ذلك الكلام ، فقد قيل مثله عن رحلة ابن جُبَيْر ، وهو ما فنّدته فى كتابى « رحلة ابن جبير الأندلسى - دراسة فى الأسلوب » (فى الفصل الأول منه) ، وقيل مثله أيضا عن محمود تيمور . بل إن أحد كتبة د. طه ممّن لاوزن لهم فى عالم الأدب والكتابة قد ادعى ، حسبما ذكر سامح كريّم ، أنه هو « صاحب الفضل فى بعض أعمال طه حسين الأدبية : فضل المنشئ أو المستكمل » [(١)]، وهو سخف ما بعده سخف ، إذ أين مولفات هذا الرجل قبل ذلك أو بعده ؟ فضلا عن أن أسلوب طه حسين فى كل كتاباته هو من الأساليب المتميزة تمام التميز فى أدبنا العربى . ومع ذلك فقد أنكر ذلك الرجل فيما بعد ، حسبما ذكر سامح كريّم أيضا ، أنه قد قال شيئا من هذا [(٢)].

(١) انظر سامح كريّم / طه حسين فى معاركه الأدبية / ٢٨٢ وما بعدها .

(٢) يجد القارئ ردّ فريد شحاته على ما نشرته مجلة « الإذاعة والتلفزيون » عن هذا الموضوع فى ص / ٢٩٥ - ٢٩٦ من المرجع السابق .

هيكل الناقد

رغم أن دراسة هيكل الجامعية إنما كانت فى الحقوق ثم فى الاقتصاد السياسى فى الدكتوراه بعد ذلك ورغم اشتغاله بالسياسة والوزارة فقد كان لصيق الاتصال بالأدب والأدباء . ألم يكتب « زينب » تلك الرواية التى تشغل الأجيال جيلا بعد جيل ؟ أليس هو مؤلف « هكذا خُلقَتْ » ؟ أليس هو صاحب المقالات الرائعة فى وصف رحلاته شرقا وغربا ؟ ألم نقرأ له مؤخرا مذكراته الممتعة التى كان يسجلها أولا بأول منذ أن فارق أرض الوطن متجها إلى فرنسا لنيل درجة الدكتوراه حتى عاد؟ لكن ربّما لا يعرف إلا القليلون أن اتصاله بالأدب لم يكن اتصال إبداع وحسب بل كان اتصال دراسة ونقد أيضا . وهذا النوع الأخير من الاتصال بالأدب لم ينتظر حتى كبر هيكل وطارت شهرته فى الآفاق بل واكب بداياته ككاتب، فقد ذيّل مذكراته الباريسية بفصل أوجز فيه تاريخ الأدب الفرنسى فى بضع وعشرين صفحة حوت زبدة هذا التاريخ بأعلامه الكبار واتجاهاته العريضة . وهو فصل يدل على أن كاتبه قد اطّلع على طائفة صالحة من نصوص ذلك الأدب وتَذوّقها تذوقا حسناً ، وأغلب الظن أنه استعان أيضاً فى وضعه ببعض المؤلفات التى أرّخت له، وذلك كله برغم أنه لم يمكث فى فرنسا إلا ثلاث سنوات

ونيفاً كان خلالها مشغولاً بالدرجة الأولى فى تحضير رسالته التى نال بها درجة الدكتوراه فى الاقتصاد السياسى عن دين مصر العام . كما أن له كتاباً موسعاً عن أحد أعلام ذلك الأدب الكبار فى جزأين ، وهو چان چاك روسو ، الذى كان كل ما حظى به فى الدراسة السالفة الذكر صفحتين اثنتين لخص فيهما كاتبنا أهم أحداث حياته والأفكار التى طبعت مؤلفاته بطابع خاص (١) . وقد نقد طه حسين، صديق هيكل الحميم ، طباعة ذلك الكتاب ولغته نقداً شديداً أثار المؤلف ودفعه إلى الردّ عليه فى شىء من الضيق والمرارة (٢). كذلك فقد كتب عن كل من شكسپير وشلى فصلاً طويلاً فى كتابه « تراجم مصرية وغربية » ، وهما من مشاهير شعراء الإنجليز . وفى ذلك الكتاب نفسه فصل طويل أيضاً عن الناقد الفرنسى هيپوليت تين . وممن كتب عنهم من أدباء الغرب كذلك أناتول فرانس وپيير لوتى وپول رينيه . أما الأدباء العرب الذين كتب عنهم أو تناول بالنقد والتحليل بعض أعمالهم فأهمهم جرجى زيدان والبارودى وشوقى وحافظ ومطران وطه حسين والرافعى

---

(١) انظر « مذكرات الشباب » / ٢٦٧ ـ ٢٧٠ .

(٢) يجد القارئ نقد طه حسين وردّ هيكل عليه فى الجزء الثالث من كتاب « حديث الأربعاء » للدكتور طه .

والمازنى ومحمود أبو الوفا ومحمود حسن إسماعيل وعزيز أباظة ومحمد كامل حسين . ويستطيع القارئ أن يجد المقالات والدراسات التى كتبها هيكل عن هؤلاء الأدباء فى الصحف والمجلات المعاصرة له رحمه الله ، كـ « الجريدة » و « السياسة » و«الهلال» و « المصرى » أو فى مقدمة أحد أعمال بعضهم .

وقد جُمعت طائفة من هذه المقالات والدراسات فى كُتُب ، ولا يزال الباقى ينتظر دوره فى الصدور فى مثلها . ومن الصنف الأول ما ضمته كتبه : « فى أوقات الفراغ » و « ثورة الأدب » و « الأدب والحياة المصرية » . وهذا الكتاب الأخير قد صدر لأول مرة فى سلسلة « كتاب الهلال » فى ديسمبر ١٩٩٢م .

كذلك كتب هيكل عن بعض القضايا الأدبية كما هو الحال فى دراسته عن الفن القصصى وتاريخه ، والأدب القومى المصرى ، والصراع بين القديم والجديد ، والنقد الذاتى والموضوعى ... إلخ .

والأدب عند هيكل « فن جميل غايته تبليغ الناس رسالة ما فى الحياة والوجود من حق وجميل بوساطة الكلام » [1]. أما « وسائل

---

(١) د. محمد حسين هيكل / ثورة الأدب / ٢٥ .

عرفان ما فى الحياة من حق وجميل » فهى « العلم والفلسفة »[١]، وعلى الأديب الحقّ أن ينهل من وِرْدَيهما كل ما يستطيع . وقد كان العرب القدماء واعين لهذا فكانوا يقولون إن « الأدب هو الأخذ من كل شىء بطرف » ، ولذلك كانوا يوصون الأدباء بأن يضيفوا إلى معرفتهم بالنحو والصرف واللغة والبلاغة علوما أخرى كثيرة كالتاريخ والجغرافيا ، وهلم جرا[٢]. كذلك فإن أدب أية أمة ، قديمةً كانت أو حديثة ، لا يكفى وحده لتثقيف أدبائها ، بل لا بد لهم أن يطّلعوا على ما لدى الأمم الأخرى . وقد اطّلع العرب القدماء فى عصور ازدهار الحضارة الإسلامية أيام الأمويين والعباسيين على ما عند الفرس والرومان والإغريق من علوم وآداب . وفى العصر الحديث رأينا إرسال البعثات المصرية إلى أوروبا للتغذى بما هناك من علوم وفنون وأجناس أدبية تختلف عما عندنا كالقصص الطويلة والمسرحيات والآداب الاشتراكية والشيوعية ... إلخ[٣]. أما الأديب الزائف فلا يزيد ما يكتبه على « ألفاظ مرصوفة لا يقصد بها إلى معنى خاص ، شأنها شأن تلك

(١) نفس المرجع والصفحة .

(٢) المرجع السابق / ٢٦ .

(٣) السابق / ٢٨ ـ ٣٢ .

البذلة التى توضع فى فترينة التاجر على مثالٍ خشبى سُوِّىَ وجهه بالألوان » (١).

ويفرق هيكل ، رحمه الله ، بين النقد الذاتى والموضوعى بناء على ما قرأ فى الآداب الغربية ، منتصرا للنوع الثانى منه بقوة . والنقد الذاتى لديه هو النقد الذى يستند إلى ذوق الكاتب وميوله فلا يرى جمالاً إلاّ فى لون الأدب الذى يحبّ ، أما فى النقد الموضوعى فإن الناقد يعلو على ذوقه الخاص وميوله الشخصية ويعمل بكل وُسْعه على إدراك الهدف الذى وضعه الأديب أو الفنان نُصْبَ عينيه ومدى توفيقه فى بلوغه . وهو يمثّل هنا بناقدين ، أحدهما ذاتى والآخر موضوعى ، دخلا مُتْحَفاً فنيا يَضمّ آثارا تنتمى إلى العصور والمدارس والاتجاهات المختلفة . فأما الذاتى منهما فلن يلتفت إلاّ إلى الآثار التى تتفق وذوقه ولن يُعْجَب إلا بها ، بخلاف الموضوعى الذى سيؤتى آثار كل عصر وكل مدرسة اهتمامه وسيحاول البحث عن ألوان الجمال فيها بغض النظر عن ميوله الذاتية (٢). وهيكل ينتصر للنقد الموضوعى لأنه أكثر اتزانا وعدلاً ، إذ هو يحترم الأذواق الأخرى ويضعها فى الاعتبار إيمانا منه بأن الحياة تقوم على التنوع

(١) السابق / ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) د.محمد حسين هيكل / فى أوقات الفراغ / ٩ ـ ١٢ .

والاختلاف والتطور الدائب ولا تنحصر فى اتجاه واحد ، وأن الذوق السليم أوسع من أن يحتكره فرد أو مجموعة أفراد أو عصر بعينه ، وإن كان يؤكد مع ذلك أن الناقد لا يستطيع ، مهما حاول ، أن يتخلص تماماً من إسار ذاتيته لأنه لا يستطيع أن يتخلى عن شخصيته (أى سماتها المميزة التى تتحكم فيها ظروف بيئته وتعليمه ولون ثقافته وخبراته الشخصية ... إلخ) ، وبخاصة أن الفن كما يخضع للضرورات والنواميس يتسم فى ذات الوقت باللين والمرونة والسيولة[١] ، أى أنه يجمع بين الجبرية والحرية ، أو بين الخضوع للقاعدة والقابلية للتطور . إنه مثل الحياة ذاتها ، إذ لا هى جبر صِرْفٌ ولا حريةٌ مطلقة بل قَوَامٌ بين هذا وذاك .

وقِوَام الأدب لدى هيكل هو « فى الروح الذى يلهم ما فيه من معانٍ وصور وعواطف وإحساس » ، أما اللغة فـ « ليست إلا الكساء الظاهر لهذا الرحيق الذى يعبّر الأدب عنه » ، وإن لم يستبعد أن يكون « اللفظ لذاته ذا قيمة فى الأدب من حيث موسيقاه وما تهز هذه الموسيقى النفس وما تُعدّ العواطف لاجتلاء المعانى التى ينطوى عليها » ، لكنه يعقب قائلاً إن اللفظ رغم ذلك لا يستطيع أن يسمو بمعنى غير سام بالغا ما بلغ رنينه ورصانته ، « وإن أمكن أن ينزل

(١) المرجع السابق / ١٠ وما بعدها .

اللفظ المبتذل والناشز الرنين بالمعنى السامى أو الصور الجميلة ، أو يترك على الأقل من سوء الأثر فى النفس ما يجعلها تأسَى وتأسف ألا يكسو المعنى الجميلَ لفظٌ جميل »[١] . وعنده أيضا أنه ما دام الأديب قد مثّل بيئته وعصره وأثار خيال القارئ وأشعل عواطفه فحينئذ لا يهم أكان الأسلوب قديما أم حديثا ، بل المهم هو صحته واستقامته وجماله فقط .

وهو يرى أن لكل عصر أسلوبه المتميز ، وكذلك الحال مع البيئة : فأسلوب الجاهليين غير أسلوب الأمويين غير أسلوب العباسيين ، والأسلوب الأدبى العربى فى البيئة المشرقية غيره فى بيئة الأندلس ... وهكذا . كذلك يؤكد أن اللغة إذا ظلت تقلّد القدماء صدئت وماتت ، ولا بد إذن من تجديدها . وهذا التجديد يحتاج إلى مرانة طويلة ومتكررة على أيدى أدباء يحاولون أن يعيشوا عصرهم حتى تستطيع مواكبةَ العصر والتعبيرَ عن حضارته وثقافته[٢] . وهذا كلام طيب ، ولكننا مع ذلك نتساءل : إذا كان لكل عصر أسلوبه الأدبى المتميز فكيف يقول هيكل إنه يكفى فى الأدب أن يمثل بيئته وعصره ويشعل خيال القارئ ويثير عواطفه ، ولا يهم بعد ذلك

(١) ثورة الأدب / ٣٦ ـ ٣٧ .

(٢) فى أوقات الفراغ / ٣٤٦ ـ ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

أكان الأسلوب قديما أم حديثا ؟

وخير لغة فى رأى هيكل هى التى تكشف عما وراءها من المعانى والصور مثل ملابس العصر الحديث البسيطة التى تختلف تماما عن ملابس الماضى المثقلة بالزخارف [١]. فهل معنى هذا أن هيكل يعيب الأدب القديم ، الذى يصف أسلوبه بالتعقيد وكثرة الحلىّ والزخارف ؟ لكن أليس هذا يناقض ما قاله من أن لكل عصر أسلوبه المتميز ؟ وهذا طبعاً إن كانت كل الأساليب القديمة بهذا التعقيد الزخرفى الذى يذكره كاتبنا ، وهو ما لا يَصْدُق إلا على بعضها فقط .

واللغة التى يعترف بها د. هيكل هى اللغة الفصحى ، أما العامية فهو ضدّها . ذلك « لأن لكل إقليم لغة كلام تختلف عن لغة الإقليم الذى يبعد بعض الشيء عنه ، واختلاف لغات الأقاليم التى تتكلم العربية يجعل من المحال وضع قواعد تنظم هذه اللغات المختلفة » ، إلى جانب أن اللهجات العامية « لم يدوَّن بها أدب له من الاحترام ما يجعل بعثه موضع فخار ومجد » [٢]. لا بد إذن من اصطناع الفصحى ، على أن تكون قريبة من فهم الجمهور . وقد كان هذا الأمر هو مدار الخصومة ، كما يقول ، بين القدماء

---

(١) ثورة الأدب / ٣٩ .

(٢) المرجع السابق / ٨ .

والمحدثين [١]. ليس ذلك فقط ، بل هو يرى أن الدعوة إلى العامية هي إحدى العقبات التي وُضِعت في طريق الأدب العربي [٢]. لكنه بالنسبة للمسرح لا يجد بأساً من كتابته بالعامية اعتماداً على أن انتشار التعليم سيقضي على الأمية ويرتقي بلغة الكلام إلى مستوى لغة الكتابة ، وعندئذ سيكتب المؤلفون المسرحيون في جميع البلاد العربية أعمالهم بالفصحى [٣]. وأغلب الظن أن هذا الاستثناء راجع إلى أنه لا وقت عند المتفرجين العوامّ كي يتمعّنوا في لغة المسرحية الفصحى التي يشاهدونها ويفهموها ويتذوقوها كما ينبغي ، بخلاف ما لو كانت ناطقة بالعامية التي يتكلمونها ويفهمونها دون أدنى صعوبة .

والأدب ، عند كاتبنا ، هو مرآة للعصر الذي يظهر فيه [٤]. ولعله من أجل هذا كان يرى أن الكاتب أو الأديب لا يمكن فهم أسلوبه وأفكاره إلا بمعرفة أحوال الوسط الذي عاش فيه بالإضافة إلى الأوساط الأخرى التي قد تكون أثّرت عليه ، وكذلك حالته النفسية حتى يمكن معرفة أثر هذا الوسط أو هذه الأوساط عليه [٥].

---

(١) السابق / ٩ .

(٢) السابق / ١٥

(٣) السابق / ٩٧ .

(٤) السابق / ٤٢ .

(٥) في أوقات الفراغ / ٩٨ .

والمقصود بالوسط طبيعة البلد الذى عاش فيه الأديب وجغرافيته وكذلك البيئة الاجتماعية التى تقلّب فيها [١]. وقد أثنى هيكل على د. طه حسين لأنه اتبع هذا المنهج فى دراسة أبى العلاء المعرى وابن خلدون ، كما وصف هذا المنهج بأنه هو « الطريقة العلمية التى تبعث للنفس صورة صحيحة من شخص الشاعر أو الكاتب أو الفيلسوف الذى يراد تحليله. ذلك بأن الفرد لا وجود له بذاته وإنما وجوده بالوسط الذى يعيش فيه ، فتفهُّم ومعرفة البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية والحالة التاريخية وما كان على أثر ذلك من عقائد وعوائد وأفكار وعواطف واتجاهات ، ذلك كله وذلك وحده هو الذى يسمح لنا بفهم أى كاتب أو شاعر أو فيلسوف أو أى رجل آخر له صلة بالمجموع فتأثر به وأثّر فيه » [٢].

وهذا الكلام يشبه إلى حد كبير ما نادى به الناقد الفرنسى هيپوليت تين ، الذى تكلم عنه د. هيكل فى بضع فقرات من خلاصته عن الأدب الفرنسى ثم عاد فتوسع فى دراسته عنه فى الفصل المطوّل من « تراجم مصرية وغربية » ، والذى كان يُرجِع أدب الأديب إلى الجنس والبيئة والزمن .

(١) المرجع السابق / ٩٨ وما بعدها .

(٢) السابق / ١٧٨ .

وإذا رجعنا إلى دراسات هيكل عن قاسم أمين والبارودى وشوقى وحافظ ، وهم الأدباء المصريون الذين كتب عنهم بتوسع ، نجد أنه طبّق عليهم هذا المبدأ : ففي حديثه عن قاسم أمين يقول : « لهذا نرى للوصول إلى تفهم أسلوب قاسم أمين وأفكاره أن نحلل حالة الوسط الذى عاش فيه والأوساط الأخرى التي قد تكون أثّرت عليه فى حياته ، ثم نبحث من بعد ذلك حاله النفسية الخاصة . فإذا تهيأ لنا من ذلك ما أردنا كان لنا أن نحلله ككاتب وأن ننظر فى كتبه من جهة أسلوبها ومن جهة الأفكار التى وُضِعت فيها . حينئذ يكون قاسم قد ظهر لنا ككاتب ومفكر ظهورا تاما ونكون فى حلّ من الحكم على قيمة كتبه وما لها فى الوجود من حق البقاء » [١]، ثم يأخذ فى درس « الأوساط التى أحاطت بقاسم » : وهى الوسط الطبيعى (المصرى) ، والوسط الاجتماعى (فى مصر) ، والوسط الفرنسى ، لينتقل من بعدُ إلى دراسة شخصية قاسم أمين تحت عنوان « الرجل » ، ثم يدرس بعد ذلك مؤلفاته محللا ما فيها من أفكار ومرجعاً لها إلى أصولها من حياته وشخصيته [٢].

وفى مقدمة ديوان البارودى يكتب هيكل ما نصه : « شِعرُ

---

(١) السابق/ ٩٨ .

(٢) انظر المرجع السابق / ٩٨ ـ ١٤٣ .

البارودى حياتُه ، فكل قصيدة فى ديوانه صورة لحالة نفسية من حالات هذا الشاعر الملهم . والديوان فى مجموعه صورة للعصر الذى عاش فيه ، وللبيئة التى أحاطت به ، وللنهضة المتوثبة فى الحياة حوله ، وللثورة التى تمخّضت عنها تلك النهضة ، وللنكسة التى أصابت النهضة والثورة كلتيهما والتى نقلت الشاعر من وطنه إلى منفاه ليقيم به سبعة عشر عاما وبعض عام يستأثر الشّعْر بها جميعاً ». وبعد أسطر يعود إلى هذه النقطة ثانية ليقول : « أما ديوانُ البارودى حياتُه فلا بد فى تقديمه من وصف هذه الحياة ، ومن تصوير البيئة التى عاش فيها . وليس يتسع التقديم للإفاضة فى الوصف والتصوير ، فلنتناول من جوانب هذه الحياة ومن نواحى هذه البيئة ما يجلّى أمامنا الحالات النفسية التى أملت على الشاعر شعره . وسنرى أن هذا الوصف كثيرا ما يوضح أغراض الشاعر فيعيننا على إدراكها كاملة ويجلو لنا العمل العظيم الذى أتمّه البارودى فبعث به الشّعْرَ العربى واللغةَ العربية ومهّد لنا من ألوان المتاع بهما والانتفاع بتراثهما ما يرفع ذكره فى الخالدينَ »[(١)] . ثم يشرع فى تفصيل القول فى وصف عصر البارودى وبيئته والحالات النفسية التى أملت عليه ما نظم من شعر ، واصفا ديوان الشاعر فى

(١) الأدب والحياة المصرية/ كتاب الهلال (العدد ٥٠٤)/ ديسمبر ١٩٩٢م / ٢٨ ـ ٢٩ .

نهاية المطاف بأنه « صورة صادقة لحياة صاحبه » [١].

ونفس الشيء يفعله هيكل مع حافظ ، الذى كتب عنه عدة فصول أولها بعنوان « حافظ إبراهيم - حياة نفسه فى شعره » ، وهو عنوان واضح الدلالة على ما نقول . وفى هذا الفصل يقول إن « حافظ إبراهيم شاعر كبير ، لكنه على عظمته كشاعرٍ موجزُ تاريخِ الحياة ... على أن هذه الحياة الموجَزة التاريخ كانت زاخرة بفيض قوى من حيويةٍ هى التى أوحت لحافظ شعره كله . وشعره هو المظهر الأول والآخِر لحيويته ، فمن شاء أن يلتمس ترجمة نفسه ففى هٰذا الشعر يجب أن يلتمسها ... هذه الصورة القوية الحافلة من حياة نفس حافظ هى ما نريد فى هذا الفصل أن نستعين بشعره لإبرازها » [٢]. ثم بعد ذلك يمضى إلى دراسة أحوال العصر الذى عاش فيه حافظ والأحداث التى وقعت له وتأثيرها على نفسه وشاعريته وأدبه .

وفى المقدمة التى كتبها لديوان شوقى نجده يبدأ بتجلية العوامل السياسية والاجتماعية التى أحاطت بأمير الشعراء وتأثرت نفسه وحياته وشعره بها ، ثم يذكر تأثير الوسط الفرنسى أيضا فى شخصيته وشعره ، مبينا لنا أن مراجعتنا لشعره تكاد تُشْعِرنا وكأننا « أمام

---

(١) المرجع السابق / ٦٨ .

(٢) السابق / ٧٠ ، ٧٢ .

رجلين مختلفين جدّ الاختلاف لا صلة بين أحدهما والآخر إلا أن كليهما شاعر مطبوع يصل من الشعر إلى عُلْيا سماواته وأن كليهما مصرى يبلغ حبه مصر حدّ التقديس والعبادة . أما فيما سوى هذا فأحد الرجلين غير الرجل الآخر : أحدهما مؤمن عامر النفس بالإيمان ، مسلم يقدم أخوّة المسلمين ويجعل من دولة الخلافة قُدْسا تُفيض عليه شؤونه وحوادثه وَحْيَ الشعر وإلهامه ، حكيم يرى الحكمة ملاك الحياة وقِوامها ، محافظ فى اللغة يرى العربية تتسع لكل صورة ولكل معنى ولكل فكرة ولكل خيال . والآخر رجل دنيا يرى فى المتاع بالحياة ونعيمها خير آمال الحياة وغاياتها ، متسامح تَسَعُ نفسُه الإنسانيةَ وتسع معها الوجودَ كله ، ساخر من الناس وأمانيهم ، مجدِّد فى اللغة لفظا ومعنى » [١] . ثم يرد هذا الازدواج إلى أنه كان فى مطلع شبابه رسول الحياة المتغنى بمباهجها ، لكنه بعد أن عاد من بعثته إلى فرنسا لدراسة الحقوق اتصل بالخديوى عباس، الذى كان بينه وبين الإنجليز صراع على حين كان التعاطف قائما بينه وبين الأتراك ، مما جعل عواطف شوقى متفقة مع عواطف المسلمين ، الذين كانوا يرون الترك حينذاك الموئل الأخير للإسلام وأممه [٢] . أى أن شعر شوقى قد اختلف باختلاف البيئة : فقبل

---

(١) السابق / ١٢٢ ـ ١٢٧ .

(٢) السابق / ١٣٠ ـ ١٣١ .

الاتصال ببيئة القصر كان حرا طليقاً يتغنى بالحياة ومتعها وممارسته لتلك المتع ، أما بعد اتصاله بتلك البيئة فقد انصرف إلى الخديوى والخليفة والتغنى بآمال المسلمين وآلامهم وتمجيد الدولة العثمانية والحملة على الاحتلال وشروره (١).

وقد دعا هيكل منذ وقت مبكر (سنة ١٩٢٥م) إلى الاهتمام بالأدب القومى لمصر ، إذ أبدى دهشته من أنّ دروس الأدب التى تُلْقَى فى الجامعة المصرية تخلو تماماً من الحديث عن الأدب المصرى قديما كان أم حديثا وعن كيفية تمثله لما مرّ عليه من حضارات الشرق والغرب . وهو يؤكد أن هذه الدراسة تُعَدّ عند كل الأمم المتحضرة أساسا من الأسس القومية التى من شأنها تمتين رابطة الولاء للوطن فى نفوس أبنائه ، ضاربا المثل فى ذلك بالأمريكيين ، الذين كانوا يهتمون أول أمرهم بأدب الإنجليز وفنهم وتقليدهما ثم استقلوا فى هذا وذاك وظهر فيهم الأدباء والفنانون الذين يشخّصون الحياة القومية الأمريكية . ويُرجِع هيكل السبب فى إهمال المصريين والعرب لآدابهم القومية إلى سعى الدول التى حكمتهم ، كالعثمانيين والإنجليز والفرنسيين ، إلى طمس هُوِيّتهم الحضارية . وهو يشير إلى أن الآداب العامية قد تكفّلت بهذا الواجب الذى قصّر

(١) السابق / ١٦٦ وما بعدها .

فيه الأدب الفصيح ، لكنه يسارع إلى القول بأن هذا الأدب العامى ينقصه التهذيب ولا يصلح للبقاء بحال [1].

ويعود هيكل إلى هذا الموضوع بعد عدة سنوات فيذكر أنه حاول أن يُدْلِى بِدلْوه فى خَلْق هذا الأدب القومى فكتب بعض القصص القصيرة المستوحاة من التاريخ الفرعونى [2]. ثم يمضى قائلاً إنه إذا لم يَصِف الأديبُ المصرى حياته وحياة آبائه والبيئة والوراثة الكامنة فينا ويصل حاضرنا بماضينا جاء أدبه فاترا ضعيفا . وهو يؤكد أن البيئة المصرية الريفية ، رغم بساطتها ، جديرة بأن تلهمنا من ألوان الجمال ما لا تستطيعه بيئة أخرى لا علاقة لنا بها ، أما الذين لا يشعرون بما فيها من جمال ويفضلون عليها الطبيعة الأوروبية فهم إنما يحسّون الجمال من الكتب لا من الطبيعة مباشرة. وهنا ينَعَى حظ الطبيعة المصرية التى لم يُقَيَّض لها من يتغنى بها كتابةً منذ أزمان طوال . ثم ينخرط فى وصف الريف المصرى والنيل وصف الفانى فيهما ، وهو ما نجد مثيله فى روايته « زينب » فى كثير جدا من الصفحات مما نبّهتُ عليه فى دراستى لهذه الرواية وجعلته أساساً من الأسس التى ضمنت لها الخلود فى رأيى . وهو يضيف قائلا إنه لو كان الأدباء المصريون قد تفنّنوا فى وصف الطبيعة المصرية لرأينا الذين

---

(١) فى أوقات الفراغ / ٣٥٢ وما بعدها .

(٢) يجد القارئ هذه القصص فى كتابيه : « فى أوقات الفراغ » و « ثورة الأدب » .

يعيبونها بالإملال قد تنبهوا لجمالها ، إذ من شأن الفن أن يسكب الجمال فى أصحاب النفوس الجامدة ويدفعهم إلى تكميل جمال الطبيعة بمجهودهم [١].

ونفس الكلام يقوله عن التاريخ المصرى القديم فى مقال آخر له ، إذ يستغرب أن كثيرا من الناس لا يرون أية صلة نفسية بين المصرى الحديث (مسلماً كان أو نصرانيا) وبين المصرى القديم الذى كان يعبد آمون ورع والذى كان مستسلما لاستبداد الفراعنة ولم يعرف حكم الرومان والمسلمين والديموقراطية الحديثة ، وذلك بحجة تغيُّر الدين واللغة ونظام الحكم . وفى رأيه أن الدم هو هو فى الحالتين وكذلك الانفعالات النفسية بحكم الوراثة ، كما أن البيئة الطبيعية واحدة لم تتغير ، وفوق ذلك فاليهودية متصلة بالفراعين ، والنصرانية متصلة باليهودية ، والإسلام متصل بالنصرانية. وبالمثل فكثير من طقوس العبادة هنا وهناك متشابه فى الزواج والجنائز وبخاصة فى الريف ، كتلقين الموتى ولطم الخدود . ثم إن الاعتقاد فى الأولياء عند عوام المصريين هو نفسه الاعتقاد فى الآلهة المحلية فى مصر القديمة ، كما تشبه قصة موسى قصة أوزوريس . وعلى هذا فلا بد ، كما يقول ، أن يرتبط المصريون بماضيهم وأجدادهم ، وبخاصة أنهم يمتلئون زهوا كلما انكشف جانب من جوانب

---

(١) ثورة الأدب / ١٠٦ ـ ١٢٠ .

مجدهم القديم عن طريق الكشوف الأثرية ، فهذا الاتصال بالمجد القديم من شأنه إثارة الطموح إلى تسنُّم ذروة المجد كَرَّةً أخرى بدل الخنوع . والسبيل إلى ذلك ، فى رأيه ، هو البحث عن نقاط الاتصال بيننا وبين المصريين القدماء فى العبادة والأدب . على أنه لا يقصر اهتمامه على التاريخ الفرعونى بل يرى أن مراحل التاريخ المصرى هى كلها تاريخ مصرى صميم رغم تسلط الأجانب فى بعض هذه المراحل . وهو يؤكد أن مصر فى جميع العصور كانت ذات أثر كبير فى توجيه سياسة العالم ، ولها أفضال فى كل ميدان وبالذات فى الفنون والآثار . وهذا من شأنه أن يلهمنا الحق والخير والجمال ويضىء ظلمات هذا العصر المادى بنور الإلهام الروحى الموجود فى الأديان التى عرفتها مصر (١) .

والواقع أن ما قاله هيكل عن جمال الطبيعة المصرية هو مما لا أستطيع أن أجادله فيه ، فأنا أهيم بمظاهر الطبيعة فى الريف المصرى هياماً لا يعدله هيام ، وأنا مدين لجولاتى حول قريتى بين الحقول نهاراً وفى ضوء القمر ليلاً بقدر هائل من شعورى بالسعادة . وإن اللوحات الرائعة التى رسمتها ريشة هيكل فى « زينب » رغم أنه كان لا يزال صغير السن لم يَقْوَ جناح قلمه بَعْدُ على التحليق فى

---

(١) المرجع السابق / ١٢١ ـ ١٣١ .

الآفاق العالية لدليل على صدق ما يقول رحمه الله . لكن الأمر بالنسبة للتاريخ الفرعونى يختلف ، فلسنا نوافقه على أن تلك المشابهات القليلة التافهة التى ذكرها فى معرض المقارنة بين المصريين القدماء والمحْدَثين كافية للقول بأن الصلة النفسية بين هؤلاء وأولئك لا تزال متصلة بالدرجة التى يدّعيها ، فلقد تغير الدين تغيراً جذريا ، وتغيرت معه اللغة (وسيلة الاتصال بذلك التاريخ وآدابه) ، كما تغيرت العادات والتقاليد ، إذ انصرمت ألوف السنين ونَصَلَ ذلك الماضى البعيد فى نفوس المصريين ، وأصبح ارتباطهم بالله ومحمد والقرآن والإسلام ورجالاته وأحداث تاريخه ولغته لا بآمون ورَعْ وأبيس ورمسيس وحتشبسوت والكتابة الهيروغليفية . ولولا الأهرام وأبو الهول فلربما نسى معظم المصريين المحدثين أن يفكروا فى تاريخهم القديم . لقد ارتفع صوت الدعوة إلى الفرعونية فى مصر فى العشرينات والثلاثينات ، لكنها سرعان ما انحسرت . والملاحظ أن هيكل رغم تسويته بين مراحل التاريخ المصرى كلها فإنه ، عند مشاركته فى إبداع الأدب القومى ، لم يهتم إلا بالتاريخ الفرعونى وأهمل المرحلة الإسلامية إهمالاً تاما . والملاحظ أيضا أنه عندما اتجه إلى الكتابة فى الإسلام انصرف انصرافا كليا عن الحديث عن تاريخ مصر القديمة . ولهذا كله دلالته التى لا تخفى . ثم إن الإنسان ليتساءل : أين الزاد الروحى الذى يمكن أن تُلْهِمَناه ديانات مصر القديمة ؟ وهل نحن نحتاجها أصلاً فى ظل وجود الإسلام وقيمه ومبادئه العظيمة ؟ على

أن هذا لا يعنى أننا نقلّل من شأن التاريخ المصرى الفرعونى . أليس هو جزءا من ماضينا ؟ بيد أن ذلك شيء ، والإعلاء من شأنه على حساب المرحلة الإسلامية من تاريخنا ، وهى المرحلة الممتدة إلى ما شاء الله ، شيء آخر .

كذلك فقد تحدث هيكل فى نقده عن النثر والشعر العربيين المعاصرين. ومما تناوله من المسائل المتعلقة بالنثر تطور أساليبه فى العصر الحديث شكلا وموضوعا وأهم أعلامه والصراع بين قدماء الأدباء ومجدّديهم . ومن الموضوعات التى تناولها أيضا فن القصص ، الذى يؤكد أنه يكاد أن يستأثر حاليًا بالنثر كله وأنه ليس لأى جنس نثرى آخر مثل ما له من تأثير على الجموع . وهو يشير إلي ما يذكره مؤرخو الأدب من أن القصة بشكلها الحالى فن حديث السن ، أما القَصَص بإطلاق فهو قديم قدم اليونان بل قدم الحضارة المصرية والصينية بل قدم الإنسانية نفسها . والدليل على ذلك هو أن تأثيرها على الأطفال والدهماء ، الذين هم أقرب إلى الإنسانية فى بداءتها ، تأثير شديد ، فضلا عن أن الحَياة فى حد ذاتها عبارة عن قصص كلٌّ فرد يمثل قصة منها ، كما أن كتب الدين تروى لنا قصص الأمم الغابرة . كذلك ينبغى ألا ننسى أن التاريخ ذاته ليس إلا قصة ، علاوة على أن هناك قصصا تاريخية كثيرة . لا بل إن القصص غير التاريخية هى فى الواقع قصص

تاريخية . كل ما فى الأمر أنها خاصة بالحاضر لا بالماضى ، ولذلك يعتمد عليها من يجيئون بعد ذلك فى تسجيل تاريخ العصر الذى ظهرت فيه .

ويقف هيكل عند التهمة التى أُلْصِقَت بالأدب العربى القديم من أنه يخلو من القصص والملاحم ، مؤكدا أن القِصَص هى عماد الأدب النثرى العربى فى العصور القديمة كما هو الحال فى كتب «الأغانى» و « العقد الفريد » و « الأمالى » المملوءة بالقَصَص طويله وقصيره . وحتى لو كانت هذه القصص تتعرض لحوادث وشخصيات تاريخية فإنها ، بسبب ما دخلها من تحوير وإضافات وخيال أدبى ، لم تَعُد تاريخاً صِرْفا كما يقول . وهو يرى أنه لا ينبغى أن تعاب هذه القصص بسبب اختلافها عن قصصنا الحالية ، إذ إن هذه الأخيرة لم تظهر إلى الوجود إلا منذ قرنين ونصف ، فمن الطبيعى أن يكون هناك اختلاف بين هذه وتلك بسبب التطور الذى لحق الفن القصصى على مدى القرون ونتج عنه ظهور المدارس القصصية المختلفة من واقعية ونفسانية وأخلاقية . ثم يمضى قائلاً إن فى قصصنا القديم ألوانا مختلفة من التفكير ، فـ « حىّ بن يقظان » مثلاً تمثل التفكير الدينى الحرّ ، أما « ألف ليلة وليلة » فهى مملوءة بالخرافات التى لا تقل عن مثيلاتها عند قدماء المصريين والإغريق ، بالإضافة إلى تصويرها لأحوال عصرها أدق تصوير فى نطاق الأسرة

والمجتمع على السواء . وإذا كان القَصَص العربي قد ركد بعد « ألف ليلة » و « سيرة عنترة » و « الزير سالم » وأشباهها فإن هذا الفن يحاول الآن الاستيقاظ من سباته الطويل .

وفي رأى هيكل أن القصة لا بد أن تتضمن فكرة ما مهما كانت تافهة ، كما لا بد أن تتصل بمثل أعلى في نفس مؤلفها سواء كان هذا المثل وضيعا أو ساميا ، إذ الفن بدون فكرة أو مثل أعلى لا قيمة له ولا بقاء . وهو يؤكد أن نهضة الأدب القصصي عندنا لا تستطيع أن تستغنى عن هذين العنصرين . كما يقول إن القصة في أدبنا العربي الحديث لا تزال في حال من الفتور والركود وقلة المحصول رغم توافر مقومات الازدهار لها [١] .

وهو يتريث عند الأسباب التي يسوقها المستشرقون محاولين بها تعليل فتور هذا الفن عندنا : فمن ذلك تهمة ضعف الخيال ، التي يرفضها هيكل قائلا إن هؤلاء المستشرقين أنفسهم يتهموننا نحن الشرقيين بأننا خياليون في علمنا وسياستنا ، فهل كُتبَ الخيال على الشرقي إذا كان مفسدا ويُحرَم منه إذا كان نافعا ؟ ومن هذه الأسباب أيضا الفرق بين لغة الكلام ولغة الكتابة ، مع أن هذا الفرق

---

(١) انظر « ثورة الأدب » / ٦٨ ـ ٧٧ . وينبغي أن نلاحظ أن هيكل كتب هذا الكلام منذ أكثر من ثلاثة أرباع القرن (في جريدة « السياسة الأسبوعية » بتاريخ ١٩٢٩/٦/١٥م تحت عنوان « فن القصة ومكانه من فنون الأدب ») .

كان (كما ذكر هيكل بحقّ) موجوداً أيام انبعاث الفن القصصى لديهم أقوى مما هو لدينا الآن . وثمة سبب ثالث يذكرونه، ألا وهو الكسل فى الإنتاج ، الذى يرد هيكل عليه بقوة مؤكدا أن كثيرا من الأدباء المصريين ليسوا أقل إنتاجا من نظرائهم فى الغرب بل يزيدون عليهم رغم كثرة المثبطات . وبعد أن يفنّد كاتبنا هذه الأسباب الاستشراقية يتقدم هو بذكر العوامل المسؤولة فى رأيه عن فتور الفن القصصى عندنا . وأول هذه العوامل انتشار الأمية بحيث إن القصة لا تكاد تجد لها جمهوراً ، وإن سارع إلى التعقيب بأن هذا العامل فى سبيله إلى الزوال مع انتشار التعليم ونجاح المؤلفين فى تيسير أسلوب الكتابة . ويلى ذلك عدم تشجيع الأغنياء للأدب ، وبالذات الأدب القصصى . ويرجع هذا فى نظره إلى أنهم لا يجدون من يدفعهم إلى هذا التشجيع من السيدات . ومن هذه العوامل أيضا عدم تربية عواطفنا على نحو سليم يساعد على التذوق الراقى للحياة، وهو التذوق الذى إذا انعدم انعدم معه الأدب القصصى الراقى . ومن مظاهر ضعف العواطف عندنا ، كما يقول ، قلة التبرع للمؤسسات العامة كالمستشفيات والمدارس إلا إذا كان وراء ذلك مصلحة شخصية للمتبرع بخلاف الحال فى بريطانيا مثلا ، وقلة الرفق بالحيوان الضعيف أو الإنسان الفقير المريض ، واقتراب الحب من الغريزة الجنسية . كذلك فإن التعليم يشترك فى المسؤولية عن ضعف القصة عندنا ، إذ إن المتعلمين إنما يتعلمون للارتزاق لا لتهذيب عواطفهم

وترقية أخلاقهم . كما أن البيت مسؤول عن ذلك أيضا . ثم إن الناس فى الشرق يحاربون كل ذى موهبة ما دام يختلف عنهم فى الرأى السياسى أو ينافسهم فى مصلحة من المصالح ... إلخ ، ومن ثم يَفْتُر الموهوبون عن الاستمرار فى خدمة بلادهم ولغتهم . وإلى جانب هذا فالناس فى بلادنا منصرفة إلى ميدان السياسة والمال لتحصيل فائدة مادية عاجلة أو منصب رفيع . والخلاصة أن كتابة القصة تحتاج إلى تخصص وانقطاع ، وذلك صعب جدا دون تشجيع أو معاضدة [١] .

وقد كتب هيكل أيضا عن المسرح . وفى مقال له بعنوان « التأليف المسرحى » يصرّح بأنه لا يجد من بأس فى كتابة المسرحيات بالعامية وبأية لهجة من لهجاتها ، اطمئنانا منه إلى أن انتشار التعليم سيقضى على الأمية ويرتقى بلغة الكلام إلى مستوى لغة الكتابة فيكتب المؤلفون المسرحيون أعمالهم فى كل البلاد العربية حينئذ بالعربية الفصحى مما أشرنا إليه قبلا . ومما جاء أيضا فى هذا المقال مناداته بأن يستوحى المسرحيون موضوعاتهم من الحياة حولهم لا من تقليد المسرحيات الأوروبية بما فيها من مبالغات تعجب الأطفال والدهماء على حد تعبيره ، ولكنها فى نفس الوقت

---

(١) المرجع السابق / ٨٣ ـ ٩٣ . وقد نشر هذا الكلام فى « السياسة الأسبوعية » بتاريخ ١٩٣٠/٣/١م تحت عنوان « تربية العاطفة وأثرها فى الحياة وأثرها فى الأدب » .

لا تُصْلِح عِوَجا ولا ترضى النزعة الفنية الراقية لدى المثقفين المتذوقين. وهو يَلْفِت أنظار كتاب المسرح إلى أن الصحف السيارة عندنا تعجّ بالحوادث التى تصلح لإلهامهم ، وإن كان الأمر (كما قال) يحتاج إلى جِدّ ومثابرة لخلق مسرحية فنية . كذلك يرى أن مهمة التأليف المسرحى هى الإصلاح الاجتماعى وتحليل أسباب الاضطرابات الاجتماعية والنفسية . وهو يشير فى هذا الصدد إلى جهود محمد تيمور فى مجال الكتابة المسرحية ، وإن أخذ عليها هى وأمثالها أنها كثيرا ما تنقصها روح الفن مما يترتب عليه ضعف أثرها على المشاهدين (١) .

أما فى مجال النقد الشعرى فسوف أتريث عند آرائه فى الثلاثة الكبار فى مدرسة الإحياء الشعرى العربى المعاصر ، وهم البارودى وحافظ وشوقى . وفى دراسته لشعر البارودى نراه يشير إلى اتخاذ معاصرى ربّ السيف والقلم للشعر مُرْتَزَقًا وتأثرهم الشديد بنظم المتأخرين لدرجة أنْ أصبحت المحسنات البديعية عندهم هى كل شىء، أما المعانى فكانت كلها مطروقة متداولة . ويبرز هيكل جوانب التجديد المعْجب الذى أتى به البارودى فيقول إنه هو نزوعه إلى تصوير الواقع كما هو فى بساطة وسلاسة وقوة دون اعتماد على

(١) السابق / ٩٧ ـ ١٠٤ .

المحسنات البديعية أو إغراب في الخيال ، وإنه قد اعتمد فى ذلك التصوير على حاسة النظر أكثر من سواها فوصف النيل على هذا النحو والحقول المترامية والآثار الفرعونية فى قصائد مستقلة حينا ومتعددة الموضوعات حينا آخر . على أن التصوير فى شعر البارودى ، كما يقول كاتبنا ، ليس تصويرا ساكنا بل هو مملوء نشاطا وحركة . أما من ناحية موضوعاته الشعرية فبعضها جديد ، وهو الشعر السياسى ووصف الطبيعة والآثار المصرية ، وبعضها قديم تقليدى . أما فى معارضاته للقدماء فكان ، على حد قوله ، ينتقل إلى بيئاتهم ، ولو كان قُدِّر له أن يعيش بينهم لكان واحدا من فحولهم كالفرزدق والأخطل مثلا . ومع ذلك فإنه يعود فيؤكد أن شعر البارودي كله جديد لأن العودة إلى الشعر الفحل القديم كان شيئا جديدا فى عصره ، وهو ما يكفل له الخلود .

ورغم قول هيكل من قبل إن بعض قصائد البارودى ذات موضوع واحد نراه يقرِّر أن القصيدة عنده كانت متعددة الأغراض . ومما لاحظه عليه أيضا أنه ليست له فلسفة واضحة فى شعره ، وأن فى قصائده بعض الزلات اللغوية من وجهة نظر المتزمتين ، وإن سارع إلى القول بأنه في هذا يشبه الشعراء القدماء الذين لم تكن القواعد قد استقرت بَعْدُ فى عهدهم . وقد علّل هيكل هذه النقطة بأن البارودى لم يتعلم النحو والصرف والعروض والقوافي . كما أخذ عليه أيضا أننا نجد فى القصيدة الواحدة من شعره أبياتا فحلة وأخرى

متهافتة ، وأنه يتناقض في القصيدة الواحدة ما بين زهد واستسلام مثلاً وبين ثورة وافتخار مضطرم ، مثلما يتجاور في نفس القصيدة عنده الإغرابُ اللغوى واللفظُ العامى الذى لا يوجد في المعجمات . كذلك فإن شعره في المديح لا يسمو سموّ شعره في الفخر والحنين والرثاء ووصف الوقائع الحربية والمناظر الطبيعية ، وهى الموضوعات التى يعبر فيها عما في نفسه ويصدر عن تجاربه .

وقد تعرض ناقدنا إلى ما اُتُّهِم به البارودى من السرقات الشعرية من القدماء ودافع عنه قائلاً إن مرجعها إلى كثرة محفوظه من الشعر القديم ، وهى على أية حال قليلة جدا بالقياس إلى شعره الغزير . كما سجّل لصالحه أنه ، على خلاف زملائه من الثوار المنفيين معه إلى سرنديب (سيلان حاليا) ، لم يستعطف أحداً من المسؤولين عن الحكم في مصر بل ظل شعره في المنفى يضطرم ثورة وفخراً[1] .

أما في مقالات هيكل وأحاديثه عن حافظ فهو يؤكد أنه قد ملك لغة العرب وبرهن بشعره على أنها لغة قادرة على مضاهاة

(١) يجد القارئ آراء هيكل هذه في مقدمة ديوان البارودى . وقد جُمِعَتْ هذه المقدمة مع المقدمة الأخرى التى كتبها لديوان شوقى وغيرها من الدراسات التى كتبها عن حافظ إبراهيم في كتاب بعنوان « الأدب والحياة المصرية » صدر في سلسلة « كتاب الهلال » (العدد ٥٠٤/ ديسمبر ١٩٩٢م) ، وتشغل دراسته عن البارودى الصفحات من ٢٨ إلى ٦٨ .

أحدث اللغات صقلا وحياة . كما يقول إن فى ديوان حافظ ما يدل على أنه أراد أن يكون مدّاحا ، لكن طبعه الشموس لم يكن مناسبا لحياة حاشية القصور ، وإن شعره خليط من المديح والنّعْى على الشرق سكونَه وجمودَه ورضاه بالهوان ، وإن هذا المزيج قد يقع فى القصيدة الواحدة . ويمضى هيكل مؤكدا أن حافظ كان أصدق الشعراء حبّا لوطنه رغم إساءات الوطن إليه ، وأن هذا الحب واضح وضوحًا قويا في قصائده حتى لو كانت فى أمور لا علاقة لها بالوطن مثل شعره عن اليابان وروسيا مثلا ، بل إنه ليسميه شاعر الوطن ويرى أنه لو رُمِزَ لمصر بتمثال حافظ لكان نعم الرمز . وعنده أن قصائده فى دنشواى هى أقوى القصائد وأعمقها . ومن شعره الوطنى أيضاً فى رأيه قصائده التى يدعو فيها إلى إنشاء الجامعة وتأسيس الجمعيات الخيرية أو يتغنى بالدستور . وحتى حين يمدح الخديوى أو السلطان فإنه ، كما يقول هيكل ، ينطق خلال ذلك بصوت ضمير الشعب . وهذا الجانب الوطنى فى شعره هو ، كما يؤكد كاتبنا ، شىء جديد لا عهد للشعر العربى القديم به اللهم إلا فى أبيات قليلَة عند المتنبى والمعرى ، مما أصبح حافظ به صوت مصر والشرق والإسلام ، لكنه لم يقف عند هذا فى رأيه بل تحول وأخذ يصبح شاعرا عالميا بنظمه فى زلزال مسينا وحرب اليابان مثلاً . بيدَ أنه للأسف لم يستمر فى هذا الاتجاه لانكسار جناحه ، إذ وجد أنه يحارب قوة أشد منه بينما

الشعب ضعيف لا يثور والخديوى يصانع الإنجليز ، فانصرف إلى وظيفته طوال العشرين عاما التى قضاها فى دار الكتب لا ينظم الشعر إلا لماماً .

وعن رأيه فى فن حافظ يقول هيكل إن شعره ينزع إلى التصوير المحسوس كأنه لوحة مرسومة وإنه كله رائع مثير للنشوة ، لكن نشوة وطنياته أقوى لأنها تعبّر عما فى نفوس المصريين جميعا ، علاوة على ما فيها من صدق مؤلم فى كثير من الأحيان يُراد به استنهاضُ الهمم . وهذه الوطنيات أفضل من وطنيات غيره ، إذ كان من طبقات الشعب لا من الأتراك الغُزَاة ولا من المماليك الذين جاءوا فى ركب الغزاة ، ومن ثمّ لم يكن فى شعره تكلف ولا تخيل بل صدق فى الإحساس . ولعل هيكل هنا يقصد المقارنة من طرف خفى بين حافظ وبين البارودى وشوقى ، اللذين ينحدر أولهما من سلالة المماليك وينتمى ثانيهما إلى العرق التركى . ويضيف هيكل أنه إذا كانت ثورة عرابى بالسيف قد فشلت فقد واصلها حافظ بالشعر . كذلك فقد كان لوطنياته ، كما يقول ، أثر فى بناء قصائده ، إذ ترك الافتتاحيات الغزلية وأحل محلها الافتتاحيات الوطنية . وأخيرا نراه يدعو إلى إقامة تمثال له فى ميدان من ميادين العاصمة يقترح تسميته بـ « ميدان الحرية » [١] .

(١) المرجع السابق / ٨٣ ـ ١٠٧ .

ونصل إلى شوقى ، الذى يرى ناقدنا أن الغلبة فى شعره لصالح الوصف حتى لكأننا نرى الحياة صورة منظورة ، وأن النسيب والحماسة عنده وصف لظواهر مرئية أكثر منهما استجلاءً لعواطف مستكنة فى القلوب . وهو ، كما يقول ، مبدع فى وصفه دقةً وتخيرا للألفاظ المعبرة دون اهتمام بالنغمة الموسيقية وسلاستها وسهولتها . وهذا الحُكْم الأخير يوشك أن يكون حُكْما يتفرد به الدكتور هيكل ، إذ المشهور بين النقاد أن شعر شوقى مملوء موسيقى وأنغاما وسلاسة . ثم يمضى ناقدنا قائلاً إن شوقى لا يهتم فى وصفه بمجموع الصورة بل يتوقف عند نقط منها معينة .

أما شعر شوقى فى المرأة فهو ، عند هيكل ، ليس شعر حُبٍّ ولا عاطفة ، إذ هو يرى سهولة الاستعاضة عن أى عشقٍ بغيره . ثم يتساءل هيكل قائلاً : لماذا كان هذا الوضع موجودا عند كبار شعراء مصر الحديثة جميعا ؟ ليجيب بأن السبب هو نظرة المجتمع إلى المرأة بوصْفها متاعا للرجل ومُنْجِبة للأطفال وخادمة للبيت، ثم إذعان المرأة لهذه النظرة . فالرجل إذن سيِّد لها لا صديق ، ومن ثم فإذا وقع إنسان فى الحب عَدّ هذا عيبا ينبغى ستره ، فضلاً عن انتشار الفصل بين الجنسين وجهل المرأة . ليس هذا فقط ، بل إننا لو حاولنا أن نستخلص من شعر شوقى صورة للجمال النسوى الذى يفتنه لم نجد ما يساعدنا على ذلك ، وكأنما يعجب بكل جمال ساعةَ يهفو إليه

ثم ينساه . وهذا طبيعى ما دامت العاطفة غير موجودة كما يقول كاتبنا ، الذى يحكم مع ذلك على نسيب شوقى بأن فيه جمالاً وروعة يأخذان بالألباب ، وذلك بسبب حسن اختيار اللفظ والبراعة فى تصوير الخيال .

ويتحدث هيكل أيضا عما يسميه « رسالة شوقى الشعرية » فيقول إنها « هى تجديد القَصَص الشعرى للتاريخ على طريقة روائية رائعة فى الشعر العربى » ، وإن قصيدته « هَمَّت الفُلْكُ واحتواها الماءُ » (التى تتكون من ٣٠٠ بيت ونظمها سنة ١٨٩٤م حين كان فى الرابعة والعشرين من عمره وألقاها فى مؤتمر المستشرقين آنذاك) تصوّر هذه الرسالة ولا تقل روعة عن شعر هوميروس . ثم يشير إلى أن شوقى كما ابتدأ حياته الشعرية بالقَصَص التاريخى متمثلا فى هذه القصيدة فقد اختتمها أيضا بهذا القَصَص التاريخى متمثلاً فى مسرحياته الشعرية التاريخية التى وضعها فى أخريات عمره . وهو يؤكد أن شوقى لو لم ينصرف فيما بين ذلك إلى القَصْر والمدائح التى قالها فى الخديوى والخليفة العثمانى لكان لنا منه ملاحم ومسرحيات شعرية عربية تضارع أعمال ملتون وشكسبير وراسين . وفى رأيه أنه لو كان قد أطال قصيدته « هَمَّت الفُلْكُ » ، التى جعل عنوانها « كبار الحوادث فى وادى النيل » ،

لكانت أروع مـلاحم العـالم ولتُرجِمَت إلى لغـات شـتى . بل إن مسرحياته التى ألفها فعلاً قد وضعته (كما يقول) فى مكانة تساوى مكانة شكسپير وجعلته يبزّ ڤكتور هيجو . أما عن منزلته بين شعراء العربية فيؤكد الدكتور هيكل أن قصائده التى نظمها خلال الثلاثين عاماً الفاصلة بين ملحمته عن « كبار الحوادث فى وادى النيل » وبين المسرحيات الشعرية التى وضعها فى أخريات عمره قد جعلته الشاعر الأول بين شعراء العربية جميعا ، وأن شعره قد فاق أكثر الشعر العربى فى مختلف عصوره [١] ، وهو حكم يبدو عليه الإغراق، إذ لا أظن شوقى رحمه الله يمكن أن يسامت المتنبى مثلا، كما أن معارضاته للأقدمين لا تسمو عادة إلى الأصل الذى نسج على منواله، فسينيته مثلا تقصر كثيرا عن سينية البحترى ، مثلما لا تقدر نونيته التى عارض بها قصيدة ابن زيدون على التحليق فى أفق الشاعر الأندلسى عاشق ولادة [٢].

وبعد هذه التطوافة على بعض جهود الدكتور محمد حسين هيكل وآرائه فى ميدان النقد الأدبى نحب أن نقول كلمة فى تلك الجهود والآراء :

---

(١) المرجع السابق / ١٤٤ ـ ١٧٨ .

(٢) يمكن للقارئ الرجوع إلى تحليلى لقصيدة شوقى هذه فى كتابى « فى الشعر العربى الحديث ـ تحليل وتذوق » .

أولاً لا بد فى البداية أن نُثْنِى على جهد هيكل فى هذا الميدان الذى هو بحكم تخصصه ليس ميدانه ، ولكنه استطاع بالاطلاع على روائع الأدب العربى والفرنسى وغيرهما ومتابعة التيارات النقدية فى عصره وقبل عصره أن يصبح ناقدا يشار إليه بالبنان .

ومن الواضح أن هيكل لم يقصر اهتمامه على الشعر وحده ولا النثر فقط ، أو القصة بمفردها أو المسرحية دون غيرها من الأجناس الإبداعية الأدبية ، بل اهتم بهذا كله . وكذلك نجده قد أولى عنايته كثيراً من أدباء عصره على اختلاف اتجاهاتهم وإبداعاتهم كما يتضح من الأسماء التى سبق ذكرها فى هذا الفصل من أولئك الأدباء .

والملاحظ أن الدكتور هيكل هو بوجه عام معتدل فى نقده . وقد رأيناه ينادى فى قوة بأن يكون الناقد موضوعيا فيما يكتب بحيث يستطيع أن يبصر وجوه الجمال فى التيارات الأدبية والنقدية المختلفة غير متعصب لواحد منها على غيره ، وإن لم ينفِ الذاتية تماما ، إذ قال إن التخلص المطلق منها أمر غير ممكن للصوقها بالطبيعة البشرية . وقد جاءت آراؤه وأحكامه فى حقل النقد الأدبى مصداقا لما نادى به إلى حد كبير . ولنأخذ الدراسة التى وضعها عن كتاب الرافعى رحمه الله « تاريخ أدب العرب » مثالاً ، فإنه رغم مخالفته للرافعى وأضرابه ممن كانوا يُسَمَّوْن آنذاك بـ « القدماء » فى

مقابل هيكل وطه حسين والعقاد وغيرهم من الذين كانوا يطلقون على أنفسهم لقب « المجددين » ، ورغم انتقاده لكثير مما جاء في ذلك الكتاب ، نجده يقرّ بما فيه من فوائد علمية ، ناصّا على كل شيء من هذه الفوائد تفصيلا في موضعه ثم ناصّا عليها كلها كرة أخرى في آخر الدراسة[1] . كذلك نراه ، رغم هجومه على أسلوب الرافعي لاحتذائه (كما يقول) أساليب الأقدمين من الكتاب وغلوّه في ذلك إلى حد التكلُّف الذى لا يسيغه غير الملمين بآثار القدماء ، يشفع هذا الحكم بقوله إنه « يجيد فى بعض الأحيان ويسمو بإجادته إلى درجة عالية فى النوع الذى يعالجه من أنواع الفن ، ويتفق له أحيانا من بديع صور الخيال ما يبعث إلى نفس قارئه الأثر الذى يطمح فيه كل فن: الغبطة واللذة » ، ثم يمضى قائلاً : « فأنت إذا أردت نقده نقدا موضوعيا وجب أن تبين ما له من فضل وأن تظهر كذلك أن هذا الأسلوب الذى يكتب به لا يسهل تحميله كل المعانى والصور التى كشف عنها تطور المدنية فى هذا العصر » . ليس ذلك فقط بل يضيف أيضا أنه « لكى تستطيع أن تصف الرافعى أو غيره من الكتاب يجب أن توازن بين أدبه وأدب غيره من مذهبه ومن المذاهب الأخرى ، فأنت بهذه الموازنة تجعل القارئ مطمئنا تمام الاطمئنان لحكمك وتجعل الكاتب الذى تنتقده بعيداً

(١) انظر هذا المقال فى كتاب هيكل « فى أوقات الفراغ » / ١٩٨ ـ ٢١٤ .

عن أن يطعن في نزاهتك » (١). كذلك لا بد من القول بأن الدكتور هيكل ، حين ينقد شيئاً أو يقرّظه ، يحرص على أن يسوق حيثيات ذلك النقد أو هذا التقريظ غير مطلقِ الكلام على عواهنه اكتفاءً بإبداء الإعجاب أو إظهار الضيق .

ومما ينبغى أن يُذْكَر لناقدنا أيضا أنه كان يعمل على إبراز الخصائص الفنية والمضمونية للأديب الذى يتناوله . وقد لمسنا ذلك بأنفسنا فى دراساته عن البارودى وحافظ وشوقى ، إذ بيّن ما يمتاز به شعر كل منهم وأظهر دوره فى تاريخ النهضة الشعرية الحديثة والموضوعات التى غلبت على شعره وتلك التى تفوّق أو قصّر فيها والأسباب التى تكمن وراء ذلك فى رأيه .

كذلك رأيناه أيضا يحرص على دراسة شعر كل شاعر فى ضوء وقائع حياته والوسط الذى وُلِد وتربى فيه والملامح التى تتميز بها شخصيته . وهو فى هذا متأثر كما قلنا بمنهج الفيلسوف والناقد الفرنسى هيپوليت تين . على أن هيكل لم يكن وحده الذى يتبع هذا المنهج ، إذ كانت تلك الطريقة شائعة فى عصره بل هى لا تزال متّبَعة إلى حد كبير حتى الآن من قِبَل الدارسين الجامعيين ، إذ يهتم كثير منهم بإعطاء صورة للعصر الذى ظهر فيه الكاتب أو الشاعر الذى يدرسونه (من الناحية السياسية والاقتصادية

---

(١) المرجع السابق / ٢٠ ـ ٢١ .

والاجتماعية) وظروفه الشخصية . وقد أشار هيكل نفسه إلى أن الدكتور طه حسين قد سبق أن اقتفى هذه الخطة عند دراسته لأبى العلاء فى رسالته التى نال بها درجة العالمية والدكتوراه من الجامعة المصرية سنة ١٩١٤م . وهذا صحيح ، فقد درس الدكتور طه الحياة السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية والخلقية والعقلية فى عصر أبى العلاء ، كما درس البلد الذى وُلد ونشأ فيه ذلك الشاعر ، وقبيلته وأسرته وأسرة كل من والديه ، وتربيته وتعليمه ، وأهم أحداث حياته مثل فَقْد بصره وموت أبيه وسفره إلى بغداد واتهامه بالزندقة ... إلخ ، مُطِيلا القول فى ذلك أكثر مما ينبغى أحيانًا (١) .

ويبدو الدكتور هيكل فى دراساته النقدية واعيا بعملية التطور الذى تخضع له الأجناس الأدبية كما يخضع كل شىء فى هذه الحياة . وقد اتضح هذا لنا عند مناقشتنا آراءه حول فن القصة وكيف أنه على النحو الذى نعرفه الآن لا يزيد عمره عن قرنين ونصف (٢) . وعلى هذا ففى القول بأن العرب القدماء بالذات لم يعرفوا هذا الفن على وضعه الحالى تجنٍّ فادح ، لأن هذا الحكم لا يصدق حينئذ

(١) شغلت هذه الأبحاث نحو ثلثى الدراسة المذكورة ، إذ غطَّت من أول كتاب «تجديد ذكرى أبى العلاء» تقريبا حتى صفحة ١٩٠ من أصل ٣١٠ صفحة استغرقها هذا الكتاب فى طبعته الثانية فى مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر سنة ١٩٢٢م .

(٢) عند كتابته هذا الكلام بالطبع كما ذكرنا قبلا .

على العرب وحدهم بل على الأمم الغربية أيضا . أما العدل فيقتضينا أن نبين أن هذا الجنس قد مرّ بألوان من التطور حتى أصبح على ما هو عليه حاليّا وأنه كان معروفا فى صور مغايرة للأمم السابقة جميعاً، بل هو قديم قدم الإنسانية كلها . كما يتضح لنا هذا الوعى الهيكلى بالتطور فيما كتبه عن البارودى وحافظ-وشوقى، إذ بيّن التطور الذى تم على يد كل منهم فى ميدان الشعر العربى متمثلاً فى الإضافات الفنية والمضمونية التى جاء بها .

ومما يُذْكَر لهيكل الناقد أيضا أنه كان من أوائل من دَعَوْا إلى الاهتمام بالأدب القومى ، سابقاً بذلك أمين الخولى ، الذى ألف كتاباً مفصلاً فى هذا الموضوع فى الأربعينات [1]. وقد كان من أثر هذه الدعوة أن خصص قسم اللغة العربية بآداب القاهرة مادةً لدراسة الأدب المصرى القديم ، كما كان من أثرها أيضا أن اهتم النقاد ومؤرخو الأدب بشعراء مثل ظافر الحدّاد وابن قلاقس والبهاء زهير وغيرهم من الشعراء القدماء الذين تبرز فى إبداعهم الروح المصرية أو تصوّر أشعارُهم بيئةَ مصر .

---

(١) هو كتاب « فى الأدب المصرى » ، الذى صدر سنة ١٩٤٣م ، وإن قصد هيكل بالأدب القومى الجانب الإبداعى الذى يصوّر مصر وتاريخها وطبيعتها وأهلها إلى جانب الاهتمام بالأدب المصرى الحديث اهتماما خاصا ؛ أما دعوة أمين الخولى فقد انصبت على الاهتمام بالأدب المصرى القديم ، الذى كان تائها وسط الأدب العربى بوجه عام .

إسلاميات هيكل

كان كثير من الناس ينظرون إلى الدكتور هيكل قبل أن يكتب « حياة محمد » وغيرها من الدراسات الإسلامية على أنه ملحد . وقد صوّر فتحى رضوان ، رحمة الله عليه ، هذه النظرة فى الفقرة التى افتتح بها ترجمته له فى كتابه « عصر ورجال » والتى جاء فيها على لسان زميل من زملاء صباه قوله : « لما مات ابن الدكتور هيكل كان (أى هيكل) يصرخ من شدة الألم ، ثم ارتمى على الأرض وأنشب أظافره فيها وأخذ يتمرغ ... أما أنا فقد كنت أقول فى نفسى : لعلك تعلم أن الله حقّ ! » ؛ ثم عقب الأستاذ رضوان على هذا قائلا : « وصدقنا يومها حديث زميلنا لأنه أكّد لنا أنه من أقرباء زوجة الدكتور هيكل » (١).

وقد أشار إلى هذا أيضا الأستاذ المازنى رحمه الله ، وذلك حين كتب معلقا على انتقال هيكل باهتماماته من الغرب إلى الشرق واتجاهه إلى الكتابات الإسلامية فقال : «كنت في أول الأمر وقبل أن تتصل أسبابى بأسبابه فى حيرة من أمره ، لا أرى له عناية تُذْكَر بالأدب العربى والتاريخ العربى، وكنت فوق ذلك أسمع أنه ملحد » (٢) .

---

(١) فتحى رضوان / عصر ورجال / ٤٦٥ .

(٢) محمد حسين هيكل فى عيون معاصريه / إعداد نبيل فرج / ٣٤ .

وهو نفس ما قاله كذلك سامى الكيالى ، إذ وصف الأثر الذى تركه صدور كتب هيكل الإسلامية فى نفوس القراء قائلا إن « الرجعيّين ، وكان هيكل فى عقيدتهم كطه حسين من الملحدين ، تساءلوا : كيف يكتب هذا الملحد عن أبى بكر وعمر ؟ » (١) .

ومن قَبْلُ يكتب د. محمد غلاب ، وهو بصدد الحديث عن هيكل ومؤلفاته سنة ١٩٣١م، فيقول : « لم نشأ أن نثقل على الدكتور هيكل فنسأله عن عقيدته الدينية ، لأننا نعلم أن هذا ليس من اختصاصنا ، وإنما هو شيء بين الإنسان وربه ليس للناس أن يتطفلوا بالأسئلة عنه ، وفوق ذلك فإن إيمانه أو إلحاده لا يزيد ولا ينقص من قيمته الأدبية فى نظر الناقد النزيه والعالم الدقيق » (٢). وهى عبارة لها مغزاها ، وإلاّ فما الذى دفعه إلى فتح ملف هذه القضية إذا لم يكن هناك لَغَطٌ حول عقيدة هيكل فى ذلك الحين ؟

وفى سنة ١٩٨٢م يكتب محمد عبد الغنى حسن مقالاً بعنوان « بين الإقليمية والفرعونية والإسلامية » يرصد فيه التطور الفكرى فى حياة الدكتور هيكل وثقافته وكيف أنه كان يؤمن فى بادئ الأمر بالفرعونية ويولّى وجهه شطر مصر القديمة على حساب

(١) المرجع السابق / ٨٧ .

(٢) السابق / ٥٤ . وقد سبق أن أشرنا إلى انتقاده الشديد له بسبب كلامه عن الأصول الأدبية للقرآن الكريم وتحديه إياه أن يريها لنا .

العروبة والإسلام ثم تحول بفعل عدة عوامل عن هذه الدعوة الفرعونية إلى فكرة العروبة ليبلغ هذا التحول ذروته بتأليف كتابه « حياة محمد ». وفى هذا المقال تحدث الأستاذ محمد عبد الغنى حسن أكثر من مرة عن عودة هيكل إلى الإيمان بالعروبة والإسلام ، فما السبب فى هذا التحول يا تُرَى ؟ (١)

لقد حدث فى أوائل الثلاثينات أن نشطت الجهود التبشيرية بين المسلمين فى مصر نشاطا مخيفا ، إذ لجأ المنصّرون من أجل إغراء السُّذَّج من العوامّ والأطفال الأبرياء وخَتْلهم عن دينهم إلى وسائل ملتوية مما أدّى إلى ارتياع الناس وضيقهم بموقف الحكومة السلبى حينئذ ، وتألفت لذلك جمعية لمقاومة هذا النشاط التدميرى كان من أعضائها الشيخ المراغى (شيخ الأزهر آنذاك) والدكتور محمد حسين هيكل . وقد أدت مشاركة الدكتور هيكل فى هذه الجمعية إلى التفكير فى الوسيلة المثلى التى يستطيع هو شخصيا من خلالها أن يقاوم تلك المؤامرات الشيطانية ، وانتهى به الأمر إلى أن أفضل شىء يمكنه فعله هو أن يبحث حياة الرسول عليه السلام ومبادئه بأسلوب علمى ويقدمه للناس تقديما يقنع المسلم وغير المسلم بصدقه صلى الله عليه وسلم وعظمته (٢) . ويضاف إلى ذلك ما [illegible]

---

(١) السابق / ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ . ويشغل المقال كاملا الصفحات ١١٩ .

(٢) انظر د. محمد حسين هيكل / مذكرات فى السياسة المصرية / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٥١م / ١ / ٣٢٨ .

من ضراوة هجوم المبشرين الجامح على الرسول الكريم بغية تحطيم الروح المعنوية لدى المسلمين . ومن هنا كان ظهور «حياة محمد» ، الذى ألب على مؤلفه طائفة ممن كانوا يشايعونه قبلا فى دعوة التجديد وجعلهم يتهمونه بالرجعية لأنه دفع بالحجة مطاعن المستشرقين ومن يتابعونهم من شباب المسلمين على النبى ﷺ ولم يحاول أن يضع القرآن الكريم موضع النقد العلمى . وهم يقصدون بذلك مرافأة المستشرقين والمبشرين على دعواهم بأن القرآن ليس إلا صناعة محمدية ترجع إلى مصادر بشرية (١) .

وقد عدّ شيخ الصحفيين الأستاذ حافظ محمود ، رحمه الله ، « حياة محمد » لهيكل « فتحا عظيما فى كتابة السيرة كتابة عصرية سار فى ضوئها طه حسين والعقاد والحكيم وغيرهم فيما كتبوه عن السيرة » (٢) بما يفيد بوضوح تام أن هيكل قد سبق هؤلاء إلى كتابة السيرة المحمدية . وهو نفس ما يقوله الأستاذ فتحى رضوان أيضا ، إذ يؤكد أن مؤلفات كبار الكتاب فى مصر وخارجها

---

(١) انظر د. محمد حسين هيكل / فى منزل الوحى / ٢١ ، وحياة محمد / ط٩ / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٦٥ - ١٩٦٦م / ١٧ - ١٨ . وانظر أيضا فتحى رضوان / عصر ورجال / ٥٩٢ - ٩٥٤ ، ود. عبد العزيز شرف / محمد حسين هيكل فى ذكراه / سلسلة « اقرأ » (العدد٤٣١) / ١٩٧٨م / ١٩٣ وما بعدها .

(٢) محمد حسين هيكل فى عيون معاصريه / ٩٧ .

عن صدر الإسلام بخاصة كانت ثمرة التراجم الإسلامية التى أخرجها هيكل ، و «أن كتب العبقريات للعقاد وكتاب « محمد » للحكيم كانت كرَجْع الصدى من كتاب هيكل » . ثم يضيف قائلا : « لقد استمر كبار الكتاب فى هذا الاتجاه الذى سبقهم إليه هيكل حتى أخرج العقاد إسلامياته المتعددة ، مثل كتاب « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » و « الفلسفة القرآنية » ، وحتى أخرج طه حسين « مرآة الإسلام » بعد كتابه « على هامش السيرة » ... إلخ »[(١)].

أما عند د. طه عمران وادى فالأمر بخلاف ذلك ، إذ يقول : « فى السنوات الأولى من ثلاثينيات هذا القرن يغزو مصرَ وغيرها من بلدان الشرق حركة تبشيرية واسعة النطاق فيعتصم كثير من رواد الحركة الفكرية فى مصر بحِمَى دينهم المقدس يُحيُون ذكراه وقصص رسوله . وقد لجأ إلى هذا كثير من الأدباء فى مصر مثل الأستاذ العقاد ، رحمه الله ، الذى سبق الجميع بعبقرياته وبدأها بـ «عبقرية محمد» ، ثم الدكتور طه حسين فى كتابه « على هامش السيرة » ، ثم أصدر الدكتور هيكل مؤلفه الضخم « حياة محمد » ، وبعده أخرج كتاب « فى منزل الوحى » . بل إن الأستاذ توفيق الحكيم أخرج كتابا عن محمد بعد ذلك بمدة فى ثوب تمثيلى ... »[(٢)] ،

---

(١) فتحى رضوان / عصر ورجال / ٥٩٤ ـ ٥٩٥ .

(٢) طه عمران وادى / الدكتور محمد حسين هيكل ـ حياته وتراثه الأدبى / ١٢١ ـ ١٢٢ .

أى أن العقاد هو السابق فى هـذا المضمار ، يليه د. طه حسين بكتابه « على هامش السيرة » ، ثم يأتى بعدهما د. هيكل فتوفيق الحكيم .

والواقع أن تواريخ صدور الكتب التى ألفها هؤلاء الأربعة عن الرسول عليه الصلاة والسلام هى على النحو التالى : كتاب طه حسين « على هامش السيرة » (الجزء الأول) سنة ١٩٣٣م[١]، ثم كتاب « حياة محمد » للدكتور هيكل سنة ١٩٣٥م [٢] (وليس سنة ١٩٣٤م كما جاء فى كتاب د. طـه وادى [٣]، وأغلب الظـن أنه سهو) ، ثم « محمد » لتوفيق الحكيم سنة ١٩٣٦م [٤] ، ثم

---

(١) انظر مثلاً د. سهير القلماوى / ذكرى طه حسين / سلسلة « اقرأ » (العدد ٣٨٨)/ ١٩٧٤م / ١٥٩. أمّا الجزء الثانى والثالث فقد صدرا فى ١٩٤٢م و١٩٤٣م على الترتيب (نفس المرجع والصفحة) .

(٢) انظر ثبت مؤلفاته الموجود فى صدر طبعات كتبه الأخيرة ، وإن كان قد نُشِر عدد من فصول هذا الكتاب قبل ذلك فى بعض أعداد « السياسة » و « السياسة الأسبوعية » منذ سبتمبر ١٩٣٢م كما جاء فى الببليوجرافيا التى أعدها د. حمدى السكوت ود. مارسدن جونز / ١٩٧ .

(٣) ص / ١٢٩ من ذلك الكتاب .

(٤) حسب ما هو مذكور فى ثبـت مؤلفاته الذى يجده القارئ فى صدر كثير من أعماله ، ومنها مسرحية « السلطان الحائر » على سبيـل المثال / ٥ . وانظر كذلك « توفيق الحكيم » للدكتور إسماعيل أدهم والدكتور إبراهيم ناجى / دار سعد مصر /١٩٤٥م / ٩٨ ، ١٧٣ ، و « وداعا توفيق الحكيم » / إعداد نبيل فرج ومحمد السيد عيد / وزارة الثقافـة ـ المركـز القومـى للآداب / ١٩٨٨م / ٣٤٠ ، و « ٨٥ شمعة فى حياة توفيق الحكيم » لمحمد السيد شوشة / دار المعارف / ١٠٩ . وقد ذكر إسماعيل أدهم وإبراهيم ناجى أنها كتبت قبل ذلك =

كتاب «عبقرية محمد» للعقاد سنة ١٩٤٢ [١]. وعلى ضوء هذه التواريخ يمكن للقارئ أن يراجع ما نقلناه هنا عن الباحثين الثلاثة ويصحح ما لا يتسق معها .

ولعل من المفيد أن نقارن بين مناهج هؤلاء الأربعة فى تناولهم للسيرة : فالدكتور طه حسين ، كما قال سامى الكيالى ، « أحبَّ أن يقدم إلى قراء العربية صورا رائعة من الأساطير العربية التى لا تقل فى روعتها وأثرها عن الأساطير اليونانية ، فكان لنا كتابه « على هامش السيرة » . وهو صفحات مشرقة من تاريخنا القديم بل هو صورة رائعة قوية كانت مدفونة فى بطون كتب السيرة فجلاَّها بأسلوبه الأخاذ ، وإذا هى آيات من الأدب الأسطورى الجميل . لقد عرض هذه الأحداث الجسام التى سبقت ولادة النبى محمد فتحدَّث بنزعة قصصية رائعة عن قريش وتُبَّع ، عن الحجاز واليمن ، عن بلاد الحبشة وما جاورها . وقد ربط بين هذه القصص وبعض الأساطير القديمة ، وبين نشأة اليهودية واصطدامها بالوثنية ونشأة المسيحية واصطدامها بالوثنية واليهودية معًا ، وانتهى من هذه القصص

= التاريخ (بين عامى ١٩٣٤م و ١٩٣٥م تحديدا) . وقد بدأ الأمر بكتابة فصل من حياة الرسول فى قالب تمثيلى لمجلة « الرسالة » ، التى كان يصدرها المرحوم الزيات (انظر كتابهما « توفيق الحكيم » / ١٧٥) .

(١) انظر « مع العقاد » للدكتور شوقى ضيف / سلسلة « اقرأ » (العدد ٦٢٩) / ١٩٦٤م / ٦٤ .

والحركات التى رافقت الديانتين إلى ولادة الإسلام بعد أن صور بلاد العرب وعاداتها ورجالاتها وطبيعتها وقصصها ونشأة أديانها بأسلوب غاية فى الدقة ، واستطاع أن يضفى على التاريخ لونا من طلاوة الأدب وفتح باب المثولوچيا الإسلامية على مصراعيه » [١]. ومع ذلك فقد كان هناك من انتقد هذا التصوير الأسطورى للسيرة ، ومنهم بل على رأسهم د. محمد حسين هيكل نفسه [٢] .

أما « محمد » لتوفيق الحكيم فهى عبارة عن تقديم السيرة النبوية فى هيئة حوار مسرحى ، « وهى مستمدة من المصادر الإسلامية: من كتب السيرة وما تناولها من كتب التاريخ والطبقات والحديث والشمائل ، ولكن الكاتب لم يقرأها بقريحة المؤرخ أو فكر الفقيه أو بطريقة المحدّث . إنما أخذها أخذا فنيا من ناحية طبيعته الفنية فقص الحوادث مستخلصة من كتب السيرة كما وصلتنا ، ولكن بعد أن رتبها فى قالب حوار قصصى وأجلاها فى إطار مسرحى » [٣]. وقد قوبل هذا العمل من جهةٍ بالاستحسان لطرافته ، إذ كانت تلك أول مرة توضع فيها سيرة الرسول عليه

(١) سامى الكيالى / مع طه حسين / ط٢ / سلسلة « اقرأ » (العدد ١١٢)/ ٨١/١ _ ٨٢ .

(٢) انظر فى ذلك « محاكمة فكر طه حسين » لأنور الجندى / دار الاعتصام / ١٩٨٤ / ١٨٢ وما بعدها . ويجد القارئ رأى هيكل فى هذا الموضوع فى جريدة « السياسة » بتاريخ ١٩٣٣/١٢/١م ، و ١٩٣٧/١٢/٢٥م .

(٣) إسماعيل أدهم وإبراهيم ناجى / توفيق الحكيم / ١٧٣ .

السلام فى قالب مسرحى ، لكنه قوبل من جهة أخرى بالانتقاد لأن المؤلف لم يعط نفسه الحرية فى صياغة السيرة تبعًا لفكرته الخاصة عن الرسول بل التزم بما جاء فى الكتب القديمة ولم يَحِدْ عنه فكان فى عمله براعة فى الحوار وفى وصف هيئات الأشخاص ، لكنه خلا من العقدة والبناء المسرحى المحكم (١).

وفى « عبقرية محمد » يرسم العقاد صورة لشخصية الرسول عليه السلام من كل جوانبها ، مبرزا عظمته الخلقية والنفسية والعقلية ، لكنه لا يهتم بتقديم حوادث سيرته مرتبة على تواريخ السنين . ذلك أن « عبقريات العقاد ليست سيرا بالمعنى التاريخى المألوف ، وإنما هى صور تشخّص الملكات والأخلاق ، ولذلك قلما احتفل فيها بالأحداث والوقائع . وحتى أرقام السنوات التى وُلِد فيها أصحاب العبقرية وتُوُفُّوا قلّما وقف عندها لأنها لا وزن لها فى الصورة التى قصد بها إلى رسم المزايا والخصائص الخلقية والنفسية والإنسانية للعبقرية ... وقد مضى (٢) يرسم فى محمد ﷺ المثل الأعلى فى الشخصية الدينية القدسية مستمدا من التاريخ الذى لا

---

(١) المرجع السابق / ١٧٣ ـ ١٧٨ . ومن الذين تناولوا هذا العمل فى حينه المرحوم مصطفى صادق الرافعى (الرسالة / ١٠ فبراير / ١٩٣٦م) ، وإسماعيل مظهر (المقتطف/ ٣ مارس ١٩٣٦م) ، ومحمد صبيح (المقطم / ٢٧ مارس ١٩٣٦م) ، وأحمد الصاوى محمد (مجلتى/ فبراير / ١٩٣٦م) .

(٢) أى العقاد فى كتابه « عبقرية محمد » .

خلاف فيه ، غير معنيٍّ بما يُروَى من الخوارق التى رافقت ميلاده وقيل إنها كانت إرهاصا لرسالته ، لأن وراءها من حوادث الكون وحقائق التاريخ ما يصوّر حاجة الدنيا حينئذ إلى الرسالة المحمدية حاجة يوضحها الواقع أكثر مما يوضحها الخيال . وهو واقع مثّل العقاد من خلاله عبقرية محمد النبى الداعى بكلّ ما تَخلّقت فيه من أشعة آدمية كفلت إبلاغ الدعوة التى ارتكزت على مخاطبة العقل وفصاحة اللسان ، وعبقرية محمد الإنسان فى رحمته وبره وعطفه وشرفه ونزاهته الذى عاش وفاقا لأسمى مبادئ الخلق الاجتماعى والإنساني معيشة لو لم تقترن برسالته النبوية لكان حقا على الإنسانية أن تَعدّه عبقريا بملكاته النفسية العظيمة . وهى ملكات نفذ من خلالها العقاد لدحض ما يتقوله خصوم الإسلام على المثل الكامل من تعدد أزواجه ومن حمله السلاح ، وهو لم يحمله إلا دفاعا عن نفسه ودعوته »[(١)] .

ونصل إلى كتاب هيكل ، وهو يقوم على ترتيب وقائع السيرة النبوية ترتيبا تاريخيا بعد تمحيصها والتحقق من صحتها وتحديد تاريخ كل منها ، ولكن يسبق ذلك كلّه حديث مفصّل عن فارس والروم وبلاد العرب ومكة ونسب الرسول عليه السلام ، مع التوقف بخاصة عند جده عبد المطلب وأبويه وعمه أبى طالب .

وقد أعلن هيكل منهجه فى كتابه « حياة محمد » مبينا أنه

(١) د. شوقى ضيف / مع العقاد / ٨٦ ـ ٨٨

إنما يعتمد على القرآن أوّلا ، أما المصادر الأخرى فإنه يجعل القرآن حاكما عليها ، فما وجده فى هذه المصادر متعارضا مع ما ورد فى القرآن عنه ﷺ أو عن دعوته ردّه ولم يأخذ به (١). ومعنى هذا أنه لم يقتصر على القرآن الكريم وحده كما يُفْهَم من كلام د. محمد رأفت سعيد ، الذى قال إن « المصدر الذى اعتمد عليه هيكل فى كتابة السيرة النبوية هو القرآن الكريم » (٢). والواقع أنه من غير الممكن الاكتفاء ، عند تسجيل سيرة النبى عليه السلام ، بما جاء فى القرآن ، إذ إن كتاب الله لا يكاد يحتوى على شىء من وقائع السيرة ولا يذكر نسب الرسول الكريم ولا أسماء زوجاته أو أبنائه ولا عددهم ... إلخ ، والذى فيه من ذلك إنما ورد على سبيل الإيجاز الشديد الذى هو إلى التلميح أقرب منه إلى التصريح ، وهذا من المعروف لكل أحد . وعلى أية حال فهذه عبارة هيكل أسوقها بنصها. قال : « ولقد تبينت أن أصدق مرجع للسيرة إنما هو القرآن الكريم، فإن فيه إشارة إلى كل حادث من حياة النبى العربى(٣)

(١) انظر « حياة محمد » / ١٨ ، ٦٤ .

(٢) انظر ملخصات الأبحاث الخاصة بـ « ندوة محمد حسين هيكل وجهود الاستنارة المصرية » / ٥٤ .

(٣) فى الكلام مبالغة ، وإلا فهل فى القرآن إشارة إلى زواجه من خديجة مثلاً وأبنائه منها وسفره فى تجارتها إلى الشام ، أو تحكيم قريش له فى نقل الحجر الأسود ، أو موت أبيه قبل أن تكتحل عيناه بنور الدنيا وموت أمه فى الأبواء وهى عائدة به من يثرب ، أو كفالة جده ثم عمه له بعد ذلك ، أو اشتراكه فى حرب الفجار ، أو تحنثه فى غار حراء كل يوم ... إلخ ... إلخ ؟

يتخذها الباحث منارا يهتدى به فى بحثه ويمحّص على ضيائه ما ورد فى كتب السنة وما جاء فى كتب السيرة المختلفة »[١]. وفوق ذلك فالكتاب ، كما ذكر هو نفسه فى تقديمه ، يعتمد على مراجع أخرى من كتب التفسير والحديث وأسباب النزول والتاريخ ودراسات المستشرقين[٢] والمسلمين المحدثين مما سرد أسماءه فى « سجل المراجع » فى صدر الكتاب .

ثانى عناصر هذا المنهج هو التقيد بقواعد النقد العلمى ، الذى يؤكد هيكل أن الكتب القديمة تفتقر إليه ، إذ كانت كثرتها (كما يقول) توضع لغاية دينية تعبدية ، ولذلك لم يأخذ بأسلوبها ونهجها[٣]. ومن هنا رأيناه يهمل ذكر المعجزات إهمالا تاما أو يكاد، وحجته فى ذلك أن الذين درسوا تلك الكتب القديمة قد لاحظوا «أن ما روته من أنباء الخوارق والمعجزات ومن كثير غيرها من الأنباء كان يزيد وينقص دون مسوّغ إلا اختلاف الأزمان التى وُضِعت هذه الكتب فيها ، فقديمها أقل رواية للخوارق من متأخرها، وما ورد من الخوارق فى الكتب القديمة أقل بعدا عن مقتضى العقل مما ورد فى

---

(١) حياة محمد / ١٨ .

(٢) المرجع السابق / ١٩ ـ ٢٠ .

(٣) حسب د. محمد رأفت سعيد أن هيكل قد ضرب عن هذه الكتب القديمة صفحا فلم يعتمد عليها البتة ، على حين أن كل ما فعله هيكل هو أنه فقط لم يأخذ بمنهجها ، وهذا غير ذاك . ومع ذلك فقد عاد د. هيكل فوصف التفكير الإسلامى بأنه « تفكير علمى الأساس على الطريقة الحديثة فى صلة الإنسان بالحياة المحيطة به » (حياة محمد / ٢٢) .

كتب المتأخرين ... فلا بد للباحث فى هذه الكتب جميعا بحثا علميا أن يضع مقياساً يعرض عليه ما اختلفت فيه وما اتفقت عليه . فما صدّقه هذا المقياس أقره الباحث ، وما لم يصدّقه وضعه موضع التمحيص إذا كان مما يقبل التمحيص » (١).

فأما تمحيص أى شيء قبل قبوله فذلك أمر لا أظن أن فيه خلافا . لكن اختلاف الروايات حول قضية من القضايا لا يدل بالضرورة على عدم صحتها ، ومن ثم لا ينبغى أن يُتّخَذ تُكَأَةً لرفضها. وبالنسبة للمعجزات فإن كتب الصحاح تروى منها عدداً غير قليل ، بيد أننا فى ذات الوقت نقرأ فى القرآن الكريم مثلا قوله سبحانه ملقّنا نبيه بأن يردّ على من يتحدّونه أن يأتيهم بمعجزة تدل على صدق رسالته فيفجر لهم من الأرض ينبوعا أو يكون له بيت من زخرف أو يرْقَى فى السمـاء وينزّل عليهـم كتابا يقرأونه بقوله لهم : « سبحان ربى ! هل كنت إلا بشرا رسولاً ؟ » ، كما نقرأ تعقيبَه عز وجلّ على هذا بقوله : « وما مَنَعَنَا أن نرسل بالآيات (أى بالمعجزات) إلا أن كذّب بهـا الأولون » (٢)، وهو ما يدل أصرح دلالة على أن

(١) السابق / ٤٧ ـ ٤٨ . وقد سبق أن ذكر أن الشيخ محمد عبده وأضرابه ممن هبوا للردّ على المستشرقين لم يسلكوا فى ردهم الطريقة العلمية (ص / ١٥) . وهو كلام غريب بالنسبة لمحمد عبده بالذات ، ويزيده غرابة أنه لم يبين لنا كيف. ومع ذلك فقد ذكر هو نفسه أن محمد عبده ومحمد رشيد رضا والمراغى لم يهتموا بالمعجزات المنسوبة للنبى عليه السلام (ص / ٥٢ ـ ٥٤) .

(٢) الإسراء / ٩٠ ـ ٩٤ .

السماء لم تُبَال بتحدى أولئك الكفار من قومه عليه السلام ولم تنزل عليه أيا من الآيات التى اقترحوا عليه ، فما العمل إذن ؟ إن القرآن بطبيعة الحال مقدّم على غيره من المصادر والمراجع عند حدوث تعارض بينهما . ولقد أوضح هيكل ذلك ، وإن لم يذكر هذه الآيات التى تنبئنا أن عصر المعجزات قد ولّى رغم تعضيدها الشديد لموقفه . لكن يبقى هذا السؤال : ألا يمكن أن يكون هذا التعارض وهميا أو على الأقل ظاهريا ويكون الكلام فى الآيات خاصا بالمعجزات التى كان الكفار يتعنتون على النبى بها لا بالمعجزات التى تنزل إكرامًا له عليه السلام وتفريجا عنه وتثبيتا لقلوب المؤمنين فى بعض ساعات الحرج ؟ ذلك أن رفض كل ما أجمعت عليه كتب الصحاح من المعجزات هو أمر من الصعوبة بمكان . ومع ذلك فإن رفض هيكل أو على الأقل عدم اطمئنانه لمعجزة الحمامتين والعنكبوت والشجرة ، التى تروى بعض كتب السيرة وقوعها على باب غار ثور قائلة إنها كانت السبب فى عدم محاولة الكفار دخول الغار حيث كان يختبئ النبى والصّدّيق أثناء هجرتهما إلى المدينة ، هو أمر مفهوم ولست أرى فيه شيئا ، إذ إن سيرة ابن هشام ، وهى أقدم السير جميعا ، لا تورد هذه المعجزة ولا تشير إليها على أى نحو البتة كما أوضح المؤلف[1] ، بل ولم يشر إليها القرآن أيضا مجرد إشارة .

---

(١) انظر «حياة محمد» / ٢١٢ ـ ٢١٣ . ومع ذلك فسوف تراه فى كتابه «الصديق أبو بكر» يروى نبأ العنكبوت الذى خيم على فوهة الغار رواية المصدق له (انظر ص / ٤٠ من ذلك الكتاب / مطبعة مصر / ١٣٦١هـ) .

أما بالنسبة لواقعة الإسراء والمعراج فالملاحظ أن هيكل لم يحاول ، على الأقل فى ظاهر الأمر [١] ، أن يرجح أحد الآراء التى قيلت فيها ، وهى هل كان الإسراء والمعراج بالروح والجسد جميعا أو كانا بالروح فقط أو كان الأول بهما معا والآخر بالروح فحسب ؟ بل كل ما قاله إن « لكل رأى من هذه الآراء سندا عند المتكلمين » وإنه « لا جُناح على من يقول بواحد دون غيره من هذه الآراء » [٢] ، وهو ما يفيد أنه لا ينكر على من يؤمن بأن معجزة الإسراء والمعراج كانت بالروح والجسد معا . والسبب فى ذلك ، فيما نعتقد ، هو أن الإسراء والمعراج قد ذُكِرا فى القرآن الكريم ، وهو ما لا يستطيع ردّه مهما كان له هو نفسه من تفسير لهما مختلف .

وقد طبق هيكل المنهج العلمى عند تمحيصه تهمةَ الصَّرْع التى قَرَف بها بعضُ الكتاب الغربيين نبينًا عليه السلام ، فبيّن أن أعراض الصَّرْع تختلف تماما عن أعراض الوحى كما سجلتها كتب السيرة والأحاديث . وقد رجع فى هذا إلى الأطباء وكتب الطب [٣] ، وبهذه الطريقة العلمية فنَّدَ تلك الفرية السخيفة التى حاول بها هؤلاء الغربيون تلطيخ صورة الرسول والوحى الذى كان ينزل عليه ، وذلك

(١) ذلك أن كلامه فى بعض الأحيان قد يوحى بأنه يقول بالإسراء والمعراج الروحيين (ص / ١٩٣ ـ ١٩٦) ، وهو ما فهمه د. طه عمران وادى من هذا الكلام (انظر كتابه « محمد حسين هيكل ـ حياته وتراثه الأدبى » / ١٤٣) .

(٢) حياة محمد / ١٩٣ .

(٣) ص / ٤٠ ـ ٤١ .

بالادعاء بأنه كان مريضًا يحتاج إلى العلاج لا نبيا رسولاً جاء لِيَطِبَّ لأمراض الناس النفسية والاجتماعية والأخلاقية والروحية.

ومما نجده فى كتاب هيكل أيضا ولا وجود له فى كتب القدماء اهتمامه بآراء غير المسلمين من المستشرقين والمبشرين ووقوفه أمامها مناقشًا ومحللاً ومفنّدا . وقد ينقل منها ، وربما امتد النقل فقرات بعد فقرات . ولم يكن كُتّاب السيرة من المسلمين القدماء يضعون ذلك فى بالهم رغم وجود هذه الآراء منذ وقت جد مبكّر . لقد كان هؤلاء الكفار من غير العرب بالنسبة لهم فى حكم المعدومين ، إذ كان أجدادنا ينطلقون من مركز القوة والانتصار والثقة التامة فى دينهم ورسولهم . كما لم تكن حركة الاستشراق قد تحولت إلى حركة منظّمة مثلما هى عليه الآن ، وكذلك لم يكن الاتصال الثقافىّ السريع بين الأمم كما نشاهده الآن قد حدث بعد . أما فى العصر الحديث فالأمر قد اختلف : فالمسلمون ضعفاء أذلاء ، والهجمة الاستشراقية تمثل طلائع الغزو الاستعمارى الذى اجتاح بلادهم ، ومطابع الغرب تمطرهم بوابل من الإنتاج الاستشراقى ، والبعثات التعليمية تهيّئ سُبُل الاحتكاك المباشر بين شباب المسلمين المتعلم وفكر المستشرقين فى مهده عن طريق الكتب والمناقشات الحية على السواء . وعلى هذا فلم يعد بمكنة كاتب السيرة أن يهمل آراء المستشرقين فى صاحب السيرة عليه السلام ، وإلا كان كمن يدفن رأسه فى الرمل كيلا يرى عدوه ، وما ذلك بمُغْنٍ عنه شيئا .

وبالنسبة لرأى هيكل الإجمالى فى هؤلاء المستشرقين نراه فى تقديم الطبعة الأولى من كتابه يقول إننا إذا أهملنا المتعصبين الحمقى منهم كالمبشّرين وأشباههم فإننا نجد فى كتابات الثقات إجلالا لعظمة الرسول عليه السلام ، كما هو الحال فى مؤلفات كارلايل ووليم موير وواشنطن إرفنج وشبرنجر وڤايل ، وإن وقفوا عند بعض المسائل التى عدّوها مآخذ عليه لأنهم لم يمحصوها تمحيصا علميا دقيقا واعتمدوا على روايات ضعيفة مضطربة ، مثل مسألة الغرانيق ومسألة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش وزواج النبى بأكثر من أربع [١] ، ثم يعود فى الطبعة الثانية إلى ذات الموضوع فيتناوله فى مقدمتها مؤكدا أن كثيرا من المستشرقين قد تأثروا فى أبحاثهم بأهواء أمزجتهم مهملين التمحيص العلمى النزيه ، ومرجعا ذلك إلى عدم مقدرتهم على الإحاطة بكل أسرار اللغة العربية وتأثرهم بالنصرانية الأوروبية التى تجعل أكثرهم ينظر إلى الأديان نظرة ريبة وتدفع الباقين المستمسكين بدينهم إلى التعصب ضد الإسلام بسبب ما كان بين النصرانية وبينه من صراع طويل [٢] .

وقد عرض هيكل لعدد من آراء المستشرقين فى بعض قضايا السيرة وردّ عليها بقوة فى معظم الحالات ، كما هو الحال فى مسألة الصَّرْع الذى يزعمون أن الرسول عليه السلام كان مصابا به [٣] ،

(١) ص / ٢١ .
(٢) ص / ٦٠ ـ ٦١ .
(٣) ص / ٤٠ ـ ٤١ .

وكذلك ذهاب إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى الحجاز، وقصة الغرانيق التي يطنطنون بها (١)، والتهمة التي تزعم أن غزوات الرسول إنما كانت للنهب والسلب (٢)، والادعاء بأن الإسلام قد فُرض على العرب بحدّ السيف (٣)، وقتْل بعض الأسرى فى غزوة بدر (٤)، وتعدد زوجاته عليه السلام وزواجه من زينب بنت جحش (٥)، والخلافات التي كانت تقع فى منزله ﷺ أحيانا (٦)، ونزول سورة « براءة » بإنظار المشركين ممن لم يكن لهم عهد مع المسلمين إلى مدة معلومة ثم قتلهم بعد ذلك جزاء انتقاضهم وغدرهم (٧)، والشبهة التي تقول إن الرسول عليه السلام قد غيّر موقفه من أهل الكتاب من المسالمة والموادعة أيام ضعفه إلى محاربتهم أو يدفعوا الجزية بعد أن أصبح قويا (٨)، وعقيدة الجبر التي كثيرا ما يرمى المستشرقون والمبشرون الإسلام بها (٩)... إلخ.

وسوف نقف من هذه المسائل عند قصة الغرانيق، التي يقول أنتونى فسلز إن هيكل هو أول من تعرض لها هى وقضية نزول الوحى على الرسول وناقشهما باستفاضة (١٠). والحق أن القرآن الكريم قد

---

(١) ص / ١٦٠ وما بعدها.
(٢) ص / ٢٤٧ ـ ٢٤٨.
(٣) ص / ٢٥١ وما بعدها.
(٤) ص / ٢٧٣ وما بعدها.
(٥) ص / ٣١٥ وما بعدها.
(٦) ص / ٤٥١ ـ ٤٥٢.
(٧) ص / ٤٧٤ وما بعدها.
(٨) ص / ٤٨٢ وما بعدها.
(٩) ص / ٥٤٩ وما بعدها.
(١٠) انظر ملخصات الأبحاث الخاصة بـ « ندوة محمد حسين هيكل وجهود الاستنارة المصرية » / ٥٣.

تناول قضية الوحى فى أكثر من موضع ، كما تناولتها كتب الأحاديث والسيرة وغيرها من الكتب التى تعرّضت لنبوة الرسول عليه السلام وبعض كتب الفلاسفة المسلمين كالفارابى وغيره [١]. أى أن هيكل ليس أول من تناول هذه القضية ، وهو ما يصدق أيضا على قصة الغرانيق ، التى حتى لو اقتصرنا على ما كتبه المسلمون المحْدَثون فيها فلا يمكننا القول بأن هيكل هو أول من تناولها وفنّد ما يزعمه المستشرقون بشأنها ، فقد كتب قبله محمد عبده رحمه الله فى هذا الموضوع دراسة مفصّلة بين فيها تهافت الرواية من ناحية السند ومن ناحية المتن معا [٢] . بل إن هيكل ، حين عرض لهذه القصة ، قد اعتمد كثيرا على هذا الذى كتبه محمد عبده ، وإن كان قد أضاف من عنده أشياء لا أذكر أنى قرأتها عند أحد قبله . ومّما أخذه عن محمد عبده قوله إن ابن اسحاق قد أكّد أن قصة الغرانيق هى من وضع الزنادقة [٣]. وقد غبر علىّ وقت كنت أظن

---

(١) جمع كاتب هذه السطور المظاهر التى كان يتخذها الوحى حين ينزل على الرسول من كتب الحديث والتفسير ، ويجدها القارئ فى كتابى « مصدر القرآن ـ دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى »/ مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م / ١٨٥ وما بعدها . ومن قبل هيكل نجد أن محمد عبده ورشيد رضا مثلاً قد تناولا قضية الوحي : الأول ضمن مباحث كتابه « رسالة التوحيد» ، والثانى فى رسالة مستقلة مفصّله بعنوان « الوحى المحمدى » . وقد أفاد هيكل من هذين العالمين وتردّد اسماهما مرات فى كتابه « حياة محمد » .

(٢) يجد القارئ هذه الدراسة فى كتاب لمحمد عبده جمعت مقالاته دار الهلال فيما بعد وسمّته « دروس من القرآن الكريم » . وقد أورد هيكل نفسه بعض ما جاء فى هذه الدراسة وجعله ضمن أدلته على فساد قصة الغرانيق (حياة محمد / ١٦٥ ـ ١٦٦) .

(٣) انظر « حياة محمد » / ٤٨ ، ١٦٢ ، ١٦٥ .

أن المقصود هو ابن إسحاق صاحب السيرة ، ولكن حيَّرنى أنى لم أجد هذا الكلام فى أى موضع من كتابه ، إلى أن أعدت قراءة ما كتبه محمد عبده في هذا الصدد (وكنت قد قرأته أيام أن كنت طالبا في الجامعة مما جعلني أنسى كثيرا من تفاصيله) فوجدته يذكر محمد بن إسحاق بن خُزَيمة ، فعندئذ زالت حيرتى ، التى كان سببها سهو الدكتور هيكل بعدم نقله اسم ذلك العالم كاملا .

وقد اجتهد د. هيكل ، رحمه الله ، فى أن يمحّص هذه القصة التمحيص العلمى وانتهى منه إلى أنها لا يمكن أن تكون صحيحة . ويتلخص هذا التمحيص فى أن الروايات التى تتحدث عن قصة الغرانيق تختلف فى نصّ الآيتين المتعلقتين بها ، وذلك على النحو التالى : « تلك الغرانيق العلا * وإن شفاعتهن لتُرْتَجَى » ، « الغرانقة العلا » ، « إنهــن لهن الغرانيــق العلا* وإن شفاعتهن لهى التى تُرْتَجَى » ... إلخ ، وأن هذا الثناء على الغرانيق (التى هى اللات والعُزّى ومناة) لا ينسجم مع سياق الآيات التى تسبقها وتليها والتى تحمل على هذه الأصنام نفسها ولا ترى فيها إلا مجرد أسماءٍ لا تقدّم ولا تؤخّر ولا تُغْنِى عن الإنسان فى شىء ، علاوة على ما قاله محمد عبده من أن العرب لم يَحْدُث أن وصفوا آلهتهم بالغرانيق فى شعر أو خطابة ، وكذلك ما اشتهر به الرسول عند القاصى والدانى من الصدق المطلق منذ طفولته إلى حين انتقل إلى الرفيق الأعلى

وتشدده فى قضية الوحدانية وتحمله هو وأتباعه ألوان التعذيب القاسى فى تلك السبيل بحيث يصبح من غير المفهوم أن يرتد عليه السلام القهقرى ويمدح الأصنام بعد أن أعز الله الإسلام بدخول حمزة وعمر فيه وأصبح المسلمون أقوياء يجاهرون بدينهم ولا يَستَخْفُون به بعيدا عن أعين قريش[1].

وهيكل حين يردّ على المستشرقين تتأجج عاطفته الدينية مما يدل على غيرته الشديدة على الإسلام ونبيه . وشتان بين هذا وبين شعوره الدينى حسبما تعكسه يومياته الباريسية كما سبق أن أوضحنا فى الفصل الخاص بـ « مذكرات الشباب » . كذلك تتجلى عواطفه الحارة فى بعض المواقف التى تستثير إعجابه كقوله تعليقا على عودة الوحى بعد انقطاعه عن الرسول فترةً فى أول الرسالة مما سبّب له من الآلام النفسية الشىء الكثير : « يا لجلال الله ! أية سكينة للنفس ، وغبطة للقلب ، وبهجة للفؤاد ! »[2]، وقوله تعقيبا على عفو النبى عليه السلام عن عبد الله بن أبىّ زعيم المنافقين بالمدينة وعدم رضاه بأن يقتله ابنه الشاب المسلم المتحمّس حتى يخلّص الإسلام من

(١) المرجع السابق / ١٦٤ ـ ١٧٦ . وقد توسّع كاتب هذه السطور فى دراسة تلك القصة وأضاف أدلة أخرى على فسادها ، ومن بين ما أضافه التحليل الأسلوبى لهاتين الآيتين المزعومتين ، ذلك التحليل الذى أثبتَ بطريقة علمية أنهما لا تمتان إلى القرآن بصلة ، مما يجده القارئ فى كتابى « ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته ؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية » / المطبعة النموذجية / القاهرة / ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م / ٢٣٤ وما بعدها .

(٢) حياة محمد / ١٣٨.

شره : « يا لروعة العفو وجلاله ! محمد يترفق بهذا الذى يؤلب أهل المدينة عليه وعلى أصحابه فيكون رِفْقُه ويكون عفوه أبعد أثرا من عقوبته لو أنه أنزلها به » [١]، ووصفه لمشاعره وهو يتخيل الرسول بعد وفاته وقد سُجِّى جثمانه الطاهر وقام أبو بكر وعمر يصليان عليه ثم أخذ المسلمون يدخلون حجرته عليه السلام ليلقوا عليه نظرتهم الأخيرة قبل دفنه : الرجال أولا ، ثم النساء ، ثم الصبيان آخر شىء قائلا: « وإنى لأستعيد الساعة ، بعد أكثر من ألف وثلثمائة سنة من ذلك اليوم ، صورة هذا المشهد الرهيب المهوب فتمتلئ نفسى هيبة وخشوعا ورهبة : هذا الجثمان المسجّى فى ناحية من الحجرة التى ستصبح غدا قبرا والتى كانت إلى أمس بساكنها حياة ورحمة ونورا، هذا الجثمان الطاهر لذلك الرجل الذى دعا الناس إلى الهدى والحق وكان لهم المثل الأعلى فى البر والرحمة والإقدام والإباء وإنصاف المظلوم والانتصاف من كل معتد أثيم ، وهذه الجموع تمرّ به كاسفة البال كسيرة الطرف وكلٌّ رجل وكلٌّ امرأة وكلٌّ صبى يَذْكُر فى هذا الرجل الذى اختاره إلى جواره ربُّه أباه وأخاه وصاحبه ووفيّه ونبى الله ورسوله ! أى شعور تمتلئ به تلك القلوب العامرة بالإيمان الممتلئة إشفاقا مما يَخْبأ الغد بعد موت الرسول ! أستعيد الساعة صورة هذا المشهد الرهيب فأرانى شاخصا له مأخوذا به ممتلئ

(١) ص / ٣٥٥ .

القلب من جلال هيبته أكاد لا أجد إلى الانصراف عنه سبيلا »[١].

بل إن حرارة مشاعره تجاه ما يتناوله من موضوعات السيرة وحوادثها لتزيد حتى لتصطبغ كتابته بصبغة درامية واضحة ، كقوله أثناء كلامه عن حادثة الإفك ووقع الشائعات التى تَمَسّ عِرْض عائشة رضى الله عنها على نفسية الرسول : « وبلغت هذه الأخبار محمدا فاضطرب لها . ماذا ؟ عائشة هذه تخونه ؟ هذا مستحيل . إنها الأنفة والإباء ، وإن لها من حبّه إياها وشدة عطفه عليها ما يجعل مجرد ظن كهذا إثما دونه كل إثم . نعم ، ولكن أفّ للنساء ! من ذا يستطيع أن يَسْبُر غورهن أو يصل إلى قرارة ما فى نفوسهن ! عائشة بَعْدُ طفلة . طفلة يافعة ! وأى شىء هذا العقْد الذى فقدته فذهبت تلتمسه جوفَ الليل ؟ وما بالها لم تُحْدِث له ، وهم ما يزالون فى المعسكر ، من أمره ذِكْرا ؟ وتقلّب النبى على أشواك الحيرة ما يدرى أيصدق أم يكذّب »[٢].

وفى الكتاب شواهد أخرى كثيرة على هذه الظاهرة عنده ، وهى مما تتميز به أيضا طريقته فى كتابة السيرة عن طريقة القدماء ، إذ كان نَفَسهم هادئا تماما وهم يسجلون حوادثها أو يعقبون على مسائلها فلم تتدخل عواطفهم ولا مشاعرهم الشخصية فيما يكتبون .

---

(١) ص / ٥١٢ .
(٢) ص / ٣٥٨ .

والغريب أنه ، رغم ذلك كله ، قليلاً ما يشفع اسمَ النبى بالصلاة عليه أو أسماءَ الصحابة بالدعاء لهم بالرضوان . وقد أثار عدم صلاته على النبى ثائرة قطاع كبير من المتدينين مما اضطره إلى أن يردّ عليهم فى مقدمة الطبعة الثانية من كتابه مبينا لهم أن هذه مسألة شكلية وأن كثرة الأئمة يَرَوْنَ أنه يكفى المسلمَ أن يصلى على النبى مرة واحدة فى العمر (١) . ولست أريد أن أجادل فى هذا الأمر من الناحية الفقهية ، ولكنى كنت أحب لو أنه قد قلّل من استعمال كلمة « محمد » مجردةً ، فلَقَبُ « النبى » أو « الرسول » أحلى فى السمع وأروح للقلب ، كما أن الصلاة والتسليم عليه من شأنها أن ترطب اللسان والروح ، فضلا عن أنها فى ذات الوقت تعبير عَفْوِىّ عن حبنا له ﷺ وإجلالنا إياه . على أنى لا يبلغ بى الوسواس أن أطالب كل من يذكر النبى بأن يصلى عليه فى كل مرة حتى لو تتابعت مرات الحديث عنه ، بَيْدَ أن الإقلال منها على النحو الملاحظ فى كتاب هيكل رحمه الله لا يتناسب مع مكانته ﷺ ولا مع عواطفنا ولا حتى عواطف هيكل نفسه .

ومما تفارق به أيضا طريقتُه فى كتابه السيرة طريقةَ القدماء تلك المقارنات التى كان يعقدها بين ما فى الإسلام أو فى حياة الرسول وتصرفاته وبين ما هو موجود عند الأمم الأخرى أو فى أديانها ،

---

(١) ص / ٤٥ _ ٤٦ .

وبخاصة عندما يكون بصدد الرد على أعداء الإسلام : فهو مثلا ، عند تفنيده لِفرْيَة المستشرقين الذين يزعمون أن الإسلام دين حرب وإكراه للناس على اعتناقه ، يذكر كلمة الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام : « ما جئت لأُلْقِيَ على الأرض سلاما بل سيفا » ، كما يشير إلى أن أقطار الأرض منذ فجر المسيحية إلى يومنا قد خُضِّبت كلها بالدماء باسم السيد المسيح عليه السلام ، ومن ذلك الحروب الصليبية فى العصور الوسطى والاستعمار الأوروبى للبلاد الإسلامية فى العصر الحديث (١).

وعند تخطئته لتقولات المستشرقين والمبشرين على النبى ﷺ بخصوص زواجه من تِسْع فى الوقت الذى لا يستطيع أى مسلم آخر أن يتزوج بأكثر من أربع زوجات نجده يقول : « إن القوانين التى تجرى على الناس لا سلطان لها على العظماء ، فأولى ألا يكون لها سلطان على المرسلين والأنبياء » ، ثم يذكر أن موسى حين قتل مصريا فى غير حرب أو شبهها لم يخضع للقانون ولم يطعن ذلك فى نبوته أو فى عظمته ، مثلما لا يطعن فى نبوة عيسى أنه خرج فى مولده وحياته على القوانين الطبيعية وسُنَنِها جميعا (٢). ومن المقارنات التى نجدها كذلك فى كتاب هيكل المقارنة بين وضع المرأة فى ظل الإسلام ووضعها فى الشرع الرومانى وفى أوروبا المسيحية ،

---

(١) ص / ٢٥١ ، ٢٥٣ .

(٢) ص / ٢١٦ _ ٢١٧ .

وهى مقارنة تُظْهِر مدى الإكـرام الذى لقيته المرأة من الإسلام وشريعته (١). ومن ذلك أيضا مقارنته بين حرية الرأى فى الإسلام وبينها فى الحضارة الغربية(٢). ومثل هذه المقارنات لا نجدها فى كتب السيرة القديمة ، إذ إن أصحابها لم يكونوا يشغلون أنفسهم بما عند الآخرين إيمانا منهم بتفوق دينهم المطلق . لكنْ منذ ذلك الحين جَرَتْ مياهٌ كثيرة فى النهر غيّرت الأوضاع وجعلت المسلمين يهتمون بما يقوله الآخرون عنهم ويحرصون على مناقشته وتفنيده كيلا يكون له أثر على الناشئة والسذّج وضعاف القلوب .

ومما يخالف كتابُ هيكل به كُتُبَ القدماء أيضا تأريخ الأحداث فى كثير من الحالات حسب التقويم الميلادى : إما وحده وإما مع التقويم الهجرى (٣)، وذلك رغم تأكيده أن اختيار عمر للتاريخ الهجرى كان إلهاما موفقا (٤). وربما كان متأثرا فى ذلك بكتب المستشرقين حيث يستعملون التاريخ الذى يعرفون ، وهو التاريخ الميلادى ، سواء نصّوا على التاريخ الهجرى للواقعة التى يتحدثون عنها أَوْ لا . وعلى أية حال فنحن الآن نسير فى مصر حسب التاريخ الميلادى ، اللهم إلاّ فى الصّوم والحج والعيدين والاحتفال برأس

---

(١) ص / ٣٤٥ ـ ٣٤٦ .

(٢) ص / ٤٧٥ .

(٣) انظر مثلاً ص / ٩٨ ، ٨٩ ، ٢٤٣ ، ٢٧٧ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٧٤ ، ٤٠٥ .
وكثيرا ما يكون التاريخ الميلادى مذكورا فى العناوين الهامشية الصغيرة .

(٤) انظر كتابه « الفاروق عمر » / مطبعة مصر / ١٣٦٤هـ / ٢ / ٢٠٦ .

السنة الهجرية ومولد النبى وبعض أحداث التاريخ الإسلامى كغزوة بدر مثلا [١]. لكن الدارج فى كتابات المحْدَثين التى تتناول التاريخ الإسلامى القديم هو استخدام التاريخ الهجرى فقط عادة .

كذلك لم تكن كتب السيرة القديمة تنتهى بمباحث من النوع الذى ختم به الدكتور هيكل كتابه عن « حياة محمد » ، فقد ألحق به مبحثين يتناولان اثنتين من أهم قضايا الفكر الإسلامى المعاصر ، وهما « الحضارة الإسلامية كما صوّرها القرآن » و « المستشرقون والقرآن » . وهاتان القضيتان وأمثالهما لم تكن تشغل أذهان أسلافنا أو تثير اهتمامهم ، وإنما كانوا يختمون كتبهم بالكلام عن زوجات الرسول عليه السلام وأولاده وما إلى ذلك .

وفى كتاب الدكتور هيكل أيضا شىء لم تعرفه كتب السيرة ولا غيرها من المؤلفات القديمة ، وهو العناوين الجانبية الجزئية التى تمثل إضافة قيمة ، إذ تجعل القارئ يصل إلى الموضوع بل النقطة التى يريد بسرعة ودون عناء [٢]. وهذه السنّة لم يتبعها هيكل فى غير مؤلفاته عن الرسول وصاحبيه ومنزل الوحى .

---

(١) وحتى انتصار رمضان المجيد على الإسرائيليين أصبحنا نحتفل به كل سنة حسب التاريخ الميلادى فى ٦ أكتوبر ، مع أنهم فى إسرائيل يسمون تلك الحرب تسمية دينية فيقولون : « حرب الغفران » . ولا شك أن ارتباط انتصارنا بشهر رمضان الكريم أوقع فى النفس من ارتباطه بأكتوبر وأقدر على إثارة المعانى العظيمة .

(٢) ذكر د. هيكل (ص / ٥٨٧) أن الذين قاموا بوضع هذه العناوين هم موظفو دار الكتب .

ومثل ذلك أيضا الفهارس المختلفة التى فى آخر الكتاب والتى تساعد القارئ على الوصول إلى الموضع أو المواضع التى يستطيع العثور فيها على ما يريد من معلومات تتعلق باسم أى شخص أو أمّة أو قبيلة أو مكان أو غزوة أو واقعة أو مؤلّف مما ورد ذكره فى الكتاب.

وفيما يختص بالمصادر والمراجع نلاحظ أن الدكتور هيكل قد يكتفى بذكر المؤلّف الذى ينقل عنه أو يناقش فكرة من أفكاره ، وقد يورد اسم كتابه أيضا ، وحينئذ فنادرا ما يحدد الطبعة والمجلد والصفحة . وهذا من شأنه أن يعسّر على القارئ الاهتداء إلى المرجع أو على الأقل الموضع الذى ينقل منه اقتباساً من الاقتباسات أو يتناول ما جاء فيه . وهو فى هذا يقترب من طريقة القدماء ، الذين كانوا عادةً ما يقتصرون على إيراد اسم المؤلف الذى يقتبسون منه أو يناقشون ما كتبه ، مع أنه رحمه الله قد حصل على درجة الدكتوريّة من جامعة أوروبية ويعرف من ثَمّ قيمةَ تحديد التفاصيل الخاصة بالإحالات . لكنه مع ذلك كان حريصاً على إثبات قائمة بمصادره ومراجعه العربية والأجنبية . وبالنسبة للكتب العربية فى هذه القائمة نجده قد ذكر فى كثير من الحالات طبعاتها ، أما فى الأجنبية فقد أهمل ذلك إهمالاً تاما . وهذه القائمة قد تخفف شيئا من العسر الذى يجده القارئ عند محاولته معرفة موضع النقل أو الرأى الذى أورده المؤلف .

هذا ، وإن ما قلناه فى الصفحات الماضية ينطبق كله تقريبا على كتابَىْ هيكل عن الصديق وعن الفاروق رضى الله عنهما . لكن فى هذين الكتابين شيئا لا وجود له فى « حياة محمد » ، وهو أن كثيرا جدا مما ورد فيهما لا علاقة له بحياة الصحابيين الجليلين وشخصيتيهما . أعنى تلك الصفحات الطوال التى تتحدث عن وقائع حروب الردة والفتوح خارج شبه الجزيرة ، فإن هذا لا يزيدنا معرفةً بأبى بكر وعمر ، لأنهما لم يشاركا فيها إلا بالرأى من بعيد وفى بعض الأحيان فقط . ولعله كان من الأوفق والأضبط أن يُسَمَّى الكتابان بـ « عصر الصديق » و « عصر الفاروق عمر » ، لأنهما يتحدثان عن كل ما يتعلق بذَيْنك العصرين : ما تعلّق منه بشخصيتى الشيخين وما لم يتعلق . وهو ما يصدق أيضا على كتابه « عثمان بن عفان » ، الذى تُوُفِّى هيكل قبل أن يتمه ، ولهذا لم يُطْبَع فى حياته، وإنما نشره بعد ذلك بثمانى سنين ابنه أحمد بمعاونة د. جمال الدين سرور حسبما جاء فى الكلمة التى قدّم بها الابن كتاب الوالد رحمه الله .

ويفتقر كتابا « الفاروق عمر » و « عثمان بن عفان » إلى العناوين الجانبية ، كما لا توجد فى الكتاب الأخير قائمة مراجع ، فضلا عن عدم استشهاد المولف فيه بشىء من كتابات المستشرقين ، فى حدود ما لاحظت ، إلا فى موضع واحد حيث لخص فى ثلاثة أسطر رأيا لأَلْفِرِدْ بَتْلَر من كتابه « فتح العرب لمصر » (ترجمة

المرحوم محمد فريد أبو حديد) [١].

على أن فى « الفاروق عمر » شيئًا لا تعرفه الكتب الثلاثة الأخرى ، وهو الأسلوب القصصى الذى اتبعه فى الصفحات الأولى عند حديثه عن عمر بن الخطاب فى جاهليته [٢]. كما جاء وصفه لدمشق وما حولها وصفًا فنيا أدبيا وليس مجرد معلومات جغرافية محايدة [٣]. ومثله فى ذلك بعض الفقرات هنا وهناك [٤].

والآن بعد أن فرغنا من عرض المنهج الذى سار عليه هيكل فى تأليف كتبه الأربعة فى التاريخ الإسلامى نحب أن نتناول بالدراسة بعض ما ورد فيها من آراء له : فمن ذلك أنه ، عند عرضه فى « حياة محمد » لنقاط الاتفاق بين القرآن الكريم والعهد القديم فى رواية قصة الخَلْق ، يذكر من بين هذه النقاط أن الشيطان قد وسوس لحواء وزيّن لها الأكل من شجرة الخلد ، فزينته هى بدورها لآدم [٥]، مع أن القرآن لا يلقى بمسؤولية طاعة الشيطان على كاهل حواء وحدها بل عليها هى وآدم لأنه وسوس لهما جميعا ، ومع أن الشجرة المذكورة فى العهد القديم ليست هى شجرة الخلد

---

(١) ص / ٨١ (ط. مكتبة النهضة المصرية / ١٩٦٤م) .

(٢) انظر « الفاروق عمر » / ١ / ٢٣ ـ ٢٩ .

(٣) ص / ١٣٢ من الجزء الأول .

(٤) كالفقرة الثانية فى كل من الصفحة الرابعة والثلاثين بعد المائة والصفحة التاسعة والثمانين بعد المائة من الجزء الأول أيضا .

(٥) حياة محمد / ٥ .

(كما جاء فى القرآن) بل شجرة المعرفة [(١)].

كما يقول ، رحمه الله ، إن الخلاف بين الإسلام والنصرانية أيام النبى عليه السلام كان محصوراً في الجدل وحده لم يَتَعَدَّه إلى العداوة والبغضاء [(٢)]، ناسيا بهذا غزوتَىْ تبوك ومؤتة . ثم يقول أيضا إنه عليه السلام « لم يكن فى جدالهم يشتدّ شدّته فى جدال المشركين وعُبّاد الأصنام ، بل كان يحاجّهم بالوحى عن طريق المنطق ومِنْ كُتُبهم وما جاء فيها » ، مورداً بعد ذلك بعض الآيات القرآنية للاستشهاد بها على ما يقول ، مع أن فى هذه الآيات على قلتها اتهامًا للنصارى بالكفر والشرك وتهديداً لهم بالنار والعذاب الأليم ، فضلا عن أن القرآن اتهمهم فى مواضع أخرى منه بأنهم عبثوا بكتبهم ونَسُوا حظًا مما ذُكِّروا به [(٣)]، وكذّبهم فى دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه [(٤)] ، وهدّدهم بعذاب شديد يومِ الحساب على قولهم إن عيسى ابنُ الله [(٥)]، وأكد أن السماوات تَتَفطَّر من مثل هذا القول وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدّا [(٦)] . وردّا على هذه الدعوى أيضا نجده يقول فى موضع آخر منه : « لقد كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح بن مريم . قل : فمن يملك من الله شيئــا

(١) تكوين / ٣ / ٥ .
(٢) حياة محمد / ٥ .
(٣) المائدة / ١٤ ـ ١٥ .
(٤) المائدة / ١٨ .
(٥) مريم / ٣٧ ـ ٣٩ .
(٦) مريم / ٨٨ ـ ٩٣ .

إن أراد أن يُهلِك المسيح بن مريم وأُمَّه ومن في الأرض جميعا؟»(١). ثم إنه يحمل على كثير من الأحبار والرهبان حملة عنيفة واصما إياهم بأنهم « يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله » ، ومن ثم يبشرهم بعذاب أليم « يوم تُكْوَى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » لقاء ماكانوا يأكلون من السحت والحرام (٢). فكيف يقال إنه لم يشتد في جدالهم اشتداده في مجادلة الوثنيين ؟ وكيف لا يشتدّ معهم وهم قد ألّهوا مع الله بعض مخلوقاته كما يفعل الوثنيون ؟ وهل هناك فرق بين أن يكون تأليه هؤلاء للخشب والحجر وتأليه أولئك للبشر ؟ أليس كله إشراكا ؟

وبعد ذلك بعدة صفحات يقدّم كاتبنا تعليلاً للخصومة الهوجاء والحرب العنيفة التي تشنها المسيحية على الإسلام ، مُرْجِعا ذلك إلى جهل الغربيين بحقيقة الإسلام وسيرة نبيه صلوات الله عليه ، والجهل (كما يقول) « أعقد أسباب الجمود والتعصب وأشدها استعصاء » ، وبخاصة إذا « تراكم على مَرّ القرون وقامت له في نفوس الأجيال تماثيل وأوثان » مما يستلزم تحطيمه « قوةً روحية كبرى كقوة الإسلام أول ظهوره » ، ومُرْجعا إياه كذلك إلى عدم ملاءمة النصرانية وما تدعو إليه من الزهد في الدنيا واعتزال العالم والعفو والمغفرة لطبيعة الغربيين ، الذين عاشوا ألوف السنين على

(١) المائدة / ١٧ .
(٢) التوبة / ٣٤ ـ ٣٥ .

الشرك والذين تقوم حياتهم على مجالدة الزمهرير والضنك ، مما ترك أثره على النصرانية فأخرجها من طبيعتها الأصلية السمحة المعتدلة إلى الكفاح والصراع [١]. وهو تعليل وجيه من شأنه أن يفسّر بعضا من الجوانب الخفية للكراهية التى تنطوى عليها جوانح الغربيين تجاه الإسلام ونبى الإسلام .

وفى موضع آخر نرى مفكرنا الجليل ، طيب الله ثراه ، يؤكد أن المحاولات التى تبذلها أوروبا لتغريب المسلمين ، أى ملْخهم عن دينهم وصَبْغهم بالصبغة الغربية فى العقيدة والفكر والذوق والسلوك ، هى محاولات عقيمة لم ولا ولن تثمر شيئا مما يصبو إليه الغربيون[٢]. وهذه شهادة مجرِّب وليست كلاماً نظريا . ولقد غَبَر على هيكل زمن ظنّ فيه من يعرفونه ويقرأون له أنه قد استحال غربى الفكر والسلوك ، وإذا به يفاجئ الجميع بالكتابة عن الرسول عليه السلام كتابةً تتضرّم حبًا وإجلالا وتعظيماً له وغيرة على دينه ، ثم يذهب عقبها لتأدية فريضة الحج ، ولا يكتفى بذلك بل يضع كتابا عن هذه الرحلة من أمتع وأعمق ما أُلّف فى هذا الموضوع ، كتابا لو لم يكن لهيكل سواه لكفى به تخليداً لاسمه على وجه الزمان . وإن مقارنة سريعة بين هيكل كما يتراءى لنا فى « يوميات باريس » وبينه هو نفسه كما يطالعنا فى مؤلفاته الإسلامية كفيلة بتوضيح ما نقول.

---

(١) حياة محمد / ١٢ .

(٢) المرجع السابق / ٢٢ .

على أن الأمر لا يقف عند هذا الحدّ ، إذ يمضى هيكل معبّرا عن يقينه بأن دراسة حياة الرسول جديرة بأن تَهْدِى الإنسانيةَ طريقَها إلى « الحضارة الجديدة التى تتلمسها » وتعينها على الإجابة الصحيحة على الأسئلة الكونية الخاصة بسرّ الحياة وصلة الإنسان بالكون وهفوّه إلى الخلود وغيرها مما لا نجده فى المنطق التجريدى الذى لا يستطيع أن يوفر لنا ما نبتغيه من السعادة . كما يؤكد أن هذه الدراسة كفيلة بأن تنقذ «عالمنا الحاضر من وثنيةٍ تورّط فيها على اختلاف عقائده الدينية أو العلمية ، وثنيةٍ جعلت المال وحده معبودا وسخرت كل ما فى الوجود من علم وفن وخلق ومواهب لعبادته والتسبيح بحمده »(١) .

على أنه يصعب جدا علىَّ التصديقُ بأن الرسول قبل البعثة كان، كما يقول هيكل ، يعرف أن الكواكب هى مجرد أفلاك كالأرض وأن الذى وراءها هو أثير لا حدّ له ولا نهاية (٢) ، إذ أنَّى له فى الجاهلية أن يعرف مثل هذه الحقائق الفلكية ؟ وكذلك يصعب علىَّ جدّا التصديقُ بأن خديجة قد قالت للرسول عليه السلام حين انقطع عنه الوحى بعد البداءة الأولى: «ما أرى ربك إلا قَلاَكَ» على ما تقول الرواية التى ساقها هيكل ولم يعلق عليها بشىء مع أنها ظاهرة الفساد والبطلان (٣)، فقد كانت خديجة هى الحنوُّ كله

(١) السابق / ٢٢ ـ ٢٣ .
(٢) ص / ١٣١ .
(٣) ص / ١٣٨ .

والتفانى كله والرقة كلها فى تعاملها مع زوجها ، ولا يُعْقَل أن تجبهه بمثل هذه الملاحظة الفِجّة الجارحة . ولا أدرى كيف سكت هيكل فلم يناقش هذه الرواية بل كيف أوردها أصلا . والذى أعرفه أن امرأة من قريش ممن لم يكونوا يؤمنون بالرسول عليه السلام هى التى قالت هذا القول الغليظ ، أما خديجة ، التى آمنت به منذ اللحظة الأولى ولم تشُكّ أو تتردد وعملت كل ما من شأنه أن يدخل الطمأنينة على قلب زوجها حيث كان لنزول الوحى عليه لأول مرة وقع الزلزال ، فليس مما يسهل على النفس قبولُ نسبة هذا الكلام الغبىّ إليها .

والملاحظ على طول الكتاب كلّه أن المؤلف يُعْلِى دائمًا من شأن العوامل الروحية فى مواجهة العوامل المادية . وذلك ، فيما نحسب، راجع إلى ما يراه مِنْ تغلب القيم والمقاييس المادية فى العصر الحديث على تصرفات الناس وتفكيرهم ، ومِنْ تنكّر الحضارة الغالبة فى هذا العصر (وهى الحضارة الغربية) للإيمان باللّه والبعث والحساب وعدم اعتدادها بوجه عام إلا بما يقع تحت سلطان الحواسّ وما يمكن إدخاله الأنابيب ووضعه فى البواتق وقياسه بآلة من الآلات . ولكن ينبغى المسارعة إلى التنبيه بأن هيكل لا يقصد بهذا أن يغض من شأن الجانب المادى للحياة ، بل كل ما هنالك أنه يريد أن يضعه فى موضعه الصحيح ، وإلاّ فإن الإنسان ليس مَلَكا من الملائكة بل هو ، إلى جانب روحه ومشاعره ، لحم ودم ومَعِدة

وبَشَرة، فهو يجوع ويعطش ويبرد ويحترّ ويمغص ويسيل لعابه وتثور به نوازع الجنس ، وهو من ثم بحاجة إلى الطعام والشراب والكساء والمسكن والزوجة حاجته إلى سكينة الروح وطمأنينة القلب ويقين العقل وراحة الإيمان .

فإذا انتقلنا إلى كتاب « الصديق أبو بكر » فإننا نلاحظ مثلا أن المؤلف لم يتكلم عن بلاد العرب ولا عن قبيلة ذلك الصحابى الجليل إلا فى أسطر ، ثم سرعان ما دخل فى الحديث عنه هو وعن حياته والأحداث المهمة التى وقعت فى عصره رضوان الله عليه (١). وقد يكون عذره فى إهماله الحديث عن بلاد العرب أنه سبق أن تناول ذلك فى كتابه عن « حياة محمد » ، وإن أمكن الردّ بأن هذا يستلزم من القارئ ، أو يفترض فيه على الأقل ، أن يكون قد قرأ كتابه عن الرسول عليه السلام أوّلاً ، وهذا ليس بلازم . أما إهماله الحديث عن قبيلة أبى بكر فهو بلا شك نقص يصعب تسويغه أو الدفاع عنه .

كذلك فكثير من صفحات الكتاب تَنْسَى الصِّدّيق تماما وتتحدث عن حروب الردة والفتوح ووقائعها وأبطالها وتنشغل بوجه خاص بخالد بن الوليد وإبراز أمجاده الحربية . ولكن ربما كان عذر الكاتب أنه إنما أراد بهذا الكتاب وما تلاه وما كان ينوى أن يؤلفه

---

(١) ومع ذلك فإن ما ذكره عن طفولة الصِّدّيق وصباه ضئيل لا غَنَاء فيه تقريبا (الصديق أبو بكر / ٢٩) .

ولكن الموت حال بينه وبين تحقيق نيته أن يؤرخ للإمبراطورية الإسلامية ويدرس عوامل قوتها وضعفها وكيف انتهى أمرها إلى الأفول [١] . أى أن كتاب « الصديق أبو بكر » ليس ، كما يبدو من العنوان ، ترجمة للخليفة الأول لرسول الله ، بل هو تاريخ لعصر الصديق كله وما وقع فيه من أحداث وتم فيه من إنجازات ، وهو ما سبق أن أشرت إليه قبل قليل . وهيكل يرى أن عهد الصدّيق له شخصية ذاتية مستقلة بين عهد النبى وعهد الفاروق : «فعهد الرسول كان عهد وحى من عند الله ... ، وعهد عمر كان عهد تنظيم للحكم الذى استقر قواعده وللإمبراطورية التى تفتحت أبوابها . أما عهد أبى بكر فكان فترة الانتقال العصيبة الدقيقة التى تربط بين هذين العهدين وتتميز مع ذلك عن كل منهما بل تتميز عن كل عهد عرفه الناس فى تاريخ الحكم واستقراره وفى تاريخ الأديان وانتشارها »[٢] . وقد ساعدت (كما يقول) عظمةُ الصدّيق ، التى استمدها من صحبته للرسول ، على مواجهة مشاكل عهده متأسيا فى التعامل مع كل مشكلة منها بما فعل الرسول فى مثلها من قبل[٣] . يشير بهذا إلى ما أكده أبو بكر ، رضى الله عنه ، من أنه متّبِع وليس بمبتدع .

(١) المرجع السابق / ١٠ ـ ٢٢ .
(٢) السابق / ١٣ ـ ١٤ .
(٣) ص / ١٦ وما بعدها ، ١٠٧ .

وهو حريص على إبراز صلابة إيمان أبى بكر وشدة حبه للرسول عليه السلام ، هذا الحب الذى يؤكد تفوقه على حب أتباع أى زعيم أو ملك له والذى تبدّى فى أقوى صوره فى موقفه منه فى الغار حيث كان حريصا أن يقيه بنفسه من أذى أى سبع أو حيّة يمكن أن يكونا مختبئين بداخله (١).

ولكن يؤخذ على مؤلفنا ، رحمه الله ، أن قلمه قد اهتز فى يده وهو يصوّر ثبات إيمان أبى بكر بالنصر فى الظروف العصيبة التى أحاطت بالمسلمين فى غزوة بدر ، إذ كاد كلامه أن يوهم أنّ إيمان الصديق كان أقوى من إيمان الرسول ، فقد جاء تعقيبه على الابتهال الحار القلَق الذى رفعه ﷺ إلى ربّه أثناء المعركة وخفقة النعاس التى غَشِيَتْه ورأى خلالها نصر الله فانتبه بعدها مستبشرا بالفوز على النحو التالى : « كان هذا موقف الرسول : لم يطمئن إلى انتصار رجاله القليلين على أعدائه الكثيرين حتى اتصلت روحه بسرٍّ من ربه أراه النصر وكشف أمامه حُجُب هذا اليوم الحاسم فى حياة الإسلام . أما أبو بكر فظل إلى جانب الرسول ممتلئا إيمانا بأن الله لا ريب ناصر دينه ، ممتلئا مع إيمانه بالنصر إعجابا بالرسول فى مناجاة ربه وإشفاقا على الرسول لشدة خوفه من مصير ذلك اليوم .

---

(١) ص ٤٠ ـ ٤١ . وقد روى هيكل هنا قصة العنكبوت الذى خيّم على فوهة الغار فى تلك المدة القليلة بحيث توهّم مطاردو الرسول وصاحبه أنه قد نسج خيوطه منذ زمن طويل ومن ثم فلا يمكن أن يكونا بداخله رواية المصدّق لها .

وهذا ما دعاه ، والرسول يهتف وينادى ويناشد ويستنجز ربه ما وعده ويكرر ذلك ويعيده حتى سقط رداؤه ، أن يُهيب به وهو يردّ الرداء على منكبه : يا نبى الله ، بَعْضَ مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك ! » [1] . ذلك أن بعض القراء يمكن أن يفهموا أنه فى الوقت الذى ظل فيه أبو بكر صُلْب اليقين بانتصار الإسلام فى تلك الغزوة كان الرسول عليه السلام يشعر بالقلق الشديد ولا يطمئن إلى مصير المعركة لولا أن أخذته خفقة النعاس ورأى خلالها نصر اللّه ، وهو ما يعنى أن أبا بكر لم يكن بحاجة إلى مدد من خارج نفسه الموقنة بالفوز ، بخلاف رسول الله ، الذى لولا اتصاله بسرّ من ربه (على حد تعبير هيكل) لظل شديد القلق والتوتر إلى نهاية المعركة. وهذا بطبيعة الحال فهم خاطئ أشد الخطأ لذلك الموقف وملابساته ، فقد كان قلق الرسول نابعاً من أنه هو صاحب المسؤولية كلّها ، أما أبو بكر فقد كان دوره هو دور المواسى ، وبذلك كانت مشاعره أهدأ. لقد كان الرسول مشغولاً بمصير الإسلام والمسلمين ، أما أبو بكر فقد كان مشغولاً بانشغال الرسول . وهذا هو تفسير الأمر فى رأيى ، ولا أعتقد أنه قد غاب عن هيكل ، ولكنه فى غمرة حماسته لأبى بكر وإعجابه به قد اهتز منه القلم فتناثرت من سِنّه بعض العبارات التى يشوبها شىء من الجموح على غير قصد . وكيف يقصد هيكل ذلك وهو الذى يؤكد فى الكتاب فى كل سانحة أن عظمة

(١) ص / ٤٤ ـ ٤٥ .

أبى بكر وعبقريته وصلابة يقينه إنما هى بعض ما أفاضته عليه صحبته لرسول الله ﷺ ؟

على أن هيكل يؤكد أن الصّدّيق ، على صلابة إيمانه وشدة تمسكه بدينه ، لم يكن من أولئك الأشخاص الذين يبلغ منهم التعصب لعقيدتهم مبلغا يجعلهم غلاظا مع مخالفيهم فى العقيدة ، بل كان بعيدا عن الغلظة عفوّا عند القدرة محسنا ، فجمع بذلك بين مبدأين من أسمى المبادئ الإنسانية هما حب الحق والرحمة. وهذا يفسر لنا مثلا موقفه الليّن من أسرى بدر حين أشار على الرسول صلوات الله عليه بقبول الفداء منهم وإطلاق سراحهم (١).

ويرتبط بذلك تفسير المؤلف لموقف أبى بكر من خالد عندما قتل مالكَ بن نويرة فى حروب الردة وتزوج امرأته عقب ذلك والقتالُ لا يزال دائراً اعتقاداً منه أن مالكا كافر . لقد التمس أبو بكر له المعاذير عن قتل مالك ، ولكنه عنَّفَه على تزوجه بامرأة لم يجفّ دم زوجها بعد. وتفسير ذلك عند هيكل هو أن أبا بكر كان يرى أن التزمت فى تطبيق الشريعة لا يجب أن يَطُول العظماءَ والنوابغ ، وبخاصة إذا كان

(١) ص / ٤٥ ـ ٤٦ . وانظر كذلك لينه مع الأسرى الذين جيء بهم إلى المدينة فى حروب الردّة (ص / ١٣١ ـ ١٣٢) . أما حرقه الفجاءة إياس بن عبدياليل ، الذى طلب من أبى بكر أثناء حروب الردة سلاحًا يحارب به المرتدين ثم أخذ السلاح وشن به الغارات على المسلمين وقتل منهم الكثير ومن ثم استحق القتل حين أسر وجيء به إلى المدينة ، فقد ندم أبو بكر عليه ندما شديدا (ص / ١٣٢ ـ ١٣٣) .

ذلك يضر بالدولة ومصالحها ، وقد كانت الدولة الإسلامية فى مسيس الحاجة إلى عبقرية خالد وأمجاده الحربية آنئذ (١). والحق أن فى النفس شيئا غير قليل من هذا الذى يقوله هيكل ، لأن من شأن هذه السياسة أن تثير سخط أصحاب الحق المهدر وتشكّكهم فى قيمة المبادئ التى يدعو إليها الفاتحون ويعلنون أنهم مسؤولون عن نشرها وتطبيقها . وأدنى من ذلك إلى الصواب أن يقال إن أبا بكر رأى أن خالداً قد تأول فى أمر قتل مالك فأخطأ ، وأنه بتزوجه من امرأته لم يقترف مُحرّما ، وإن خالف ما كانت العرب تجرى عليه من كراهة النساء فى الحرب والنظر إلى الاتصال بهن أثناءها على أنه عار ، وأى عار ! كذلك فمن المعروف فى الفقه الإسلامى أن الحدود لا تطبق على الجند أثناء الحرب مع أعداء الدين .

وعلى خلاف موقف هيكل من المعجزات فى كتابه « حياة محمد » نراه فى الكتاب الذى بين أيدينا لا يقطع برأى فى رواية معجزة الماء الذى وجده المسلمون أثناء حروب الردة فى مفاوز الدهناء بعد أن نفرت منهم الإبل وعليها الماء وبلغ منهم العطش مبلغا رهيبا، فلما شربوا واغتسلوا ونالوا منه ما شاءوا عادت إليهم إبلهم فكَرّ بعض الصحابة إلى مكان الماء فلم يجدوا له من أثر ، إذ علق على ذلك

---

(١) ص / ١٤٥ وما بعدها وبخاصة ١٤٩ ، ١٥١. وانظر كذلك ص / ١٦٨ - ١٦٩ .

قائلا : « ويبدى بعض المستشرقين الشك فى هذه الرواية . وسواء أكان لهذا الشك موضع أم لم يكن فقد ارتحل العلاء وجيشه إبلهم وتابعوا السير » [١].

ليس ذلك فقط ، بل إنه يَعُدّ الإنجازات التى تمت فى عهد أبى بكر بعض معجزات التاريخ [٢]، وإن قال عن «معجزة الانتصار» على فارس والروم إنها كانت حتما قضت به سنن الكون [٣]. والواقع أن المعجزة ، كما نفهمها ، هى الخروج على قانون الطبيعة، فكيف يكون الأمر الواحد معجزة وحتما تقضى به سنة الكون فى آن؟ هذا ما لا أستطيع له فهما ، اللهم إلا إذا قيل إنه يقصد بمعجزات التاريخ شيئا آخر . ولكن كيف ؟ لقد كان الأمر يحتاج منه إلى توضيح ، بيد أنه للأسف لم يفعل . ومع ذلك فسوف نراه فى كتابه « الفاروق عمر » يصف فتح الروم وقيام الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف فى عهد عمر فى مدى عشر سنوات لا غير بأنه معجزة لا ريب فيها ، ولكن دون أن يرجعها إلى سنن الكون [٤].

وهو يؤكد أن الإسلام هو دين السلام والصفح والتسامح ،

---

(١) ص / ١٧٤ ـ ١٧٥ .
(٢) ص / ٣٤٥ .
(٣) ص / ٣٦١ ـ ٣٦٢ .
(٤) انظر « الفاروق عمر » / ١ / ١ ـ ٢ .

ولكنه فى ذات الوقت لا يحجم عن الرد على العدوان بمثله [١]. وهذا كلامٌ حقٌ لا يمكننا إلا الموافقة عليه . ومع هذا نجد هيكل يضيف قائلا إن غزو العراق وغزو الشام « ليس ... هو المثل الأعلى الذى دعا الإسلام إليه وجعل السلام غايته ، وإنما معناه أن ما حدث منه هو بعض إملاء الغرائز الإنسانية فى ذلك الطّوْر من طفولة الضمير الإنسانى ، كما أنه بعض إملاء هذه الغرائز فى عصرنا الحاضر حيث الضمير الإنسانى لا يزال يتدرج إلى الصّبا فله من الصبا طيشه ونزواته » . أما متى يتحقق المثل الأعلى وتنتهى الحرب ويسود السلام فإن ذلك يقتضى فى رأيه عشرات الأجيال بل مئاتها [٢]. والواقع أن هذا حلم جميل نتمنى لو تحقق على الأرض، ولكن هيهات ، إذ إن الغرائز الإنسانية التى يشير إليها المؤلف هى جزء من طبيعتنا لا يمكننا أن نتخلص من أوهاقها ، وإن الصورة الوردية التى يرسمها المؤلف لمستقبل الإنسانية بعد مرور مئات الأجيال هى صورة غير واقعية ، فلسوف يستمر عدوان القوى على الضعيف والصراع بين الحق والباطل أبد الآبدين ، ولا بد للحق أن يتسلح لهذا الصراع بكل ما تقع عليه يده من ألوان القوة وإلاّ انهزم وضاعت معالمه . أما السلام الشامل الذى لا يعكر صفوه بغضٌ أو خصام أو عراك فمكانه هو الجنة ، وأين نحن منها الآن ؟

---

(١) الصديق أبو بكر / ٣٧١ .

(٢) ص / ٣٧١ ـ ٣٧٣ .

وفى « الفاروق عمر » أيضا نجد كلمة « المعجزة » تتكرر وصفاً لبعض الإنجازات أو الأحداث التى وقعت فى عهده رضى الله عنه ، كـ «معجزة» عبور ألوف المسلمين على خيولهم نهر دجلة وهو فى قمة امتلائه وتدافع أمواجه مع وقوف الفرس على الشاطئ الشرقى يحاولون منعهم من العبور ، وذلك دون أن يغرق منهم أحد أو يضيع لأى منهم شئٌ أىُّ شىء [1]، وكذلك « معجزة » عبور عمرو بن العاص النيل ليصل بالمدد الذى أرسله إليه عُمَر قبل أن يخرج الروم من حصن بابليون الشرقى على ذلك النهر ويعبروه فيحولوا بينه وبين المدد [2].

أما قصة المنام الذى رأى فيه عُمَرُ المسلمين بقيادة سارية بن زُنَيم وقد حاصروا مدينتى فسا ودرابجرد الفارسيتين وطال حصارهم إياهما حتى لحق بالجند المدافعين عنهما أمداد حربية رجّحت كفة الفرس فى العدد والعتاد وجعلتهم يفكرون فى مهاجمة المسلمين وهم فى صحراء فضاء لا يستطيعون الاحتماء بشىء ، ثم جَمْع عمر المسلمين فى اليوم التالى وقيامه فيهم خطيبا يحدثهم عما رأى وصياحه أثناء الخطبة قائلا : « يا سارية بن زُنَيْم ، الجَبَلَ الجَبَلَ! »

---

(١) انظر « الفاروق عمر » / ١ / ١٩٤ وما بعدها . وكان قائد المسلمين هو سعد بن أبى وقاص ، وهو الذى أشار عليهم بعبور النهر رغم كل هذه الأخطار المهلكة فلم يترددوا بل اندفعوا واثقين بنصر الله لهم .

(٢) ص / ١٠٥ وما بعدها من الجزء الثانى .

(أى الجأ يا سارية بجنودك إلى الجبل حتى تحموا ظهوركم عند هجوم الفرس عليكم فلا يهزموكم) وسماع سارية صيحة عمر رغم ما يفصل بينهما من المفاوز الشاسعة والبلاد المتناوحة ، فإن هيكل يقف متردّدا حيالها محاولاً أن يجد لها تفسيرا يقنع عقله فيقول «هل سمع سارية فعلاً صيحة عمر أو أن الأمر لايعدو أن يكـ مصادفة ؟ ». وسبب حيرته أن الوحى ، كما يقول ، قد انقطع بموت الرسول عليه السلام ولم تكن الإذاعة اللاسلكية قد خرج بطبيعة الحال بعْد . كذلك فهو ، حسبما ذكر ، لا يستطيع القطع بأن الأمر جاء عن طريق انتقال الأفكار كما يحدث فى التنويم المغناطيسى ، وإن رأى أن هذا التفسير الأخير ، على تعذر تصوره ، هو أدنى التفسيرات إلى القبول (١) .

وعن عمر وسياساته يقول إنه ، رضى الله عنه ، لم يكن يعرف التردد والإحجام ، كما كان يثق بولاته وقواده فيكتفى بأن يرسم لهم خطوط السياسة العامة تاركا لهم ما عداها (٢). ومن رأيه أنه كان إلى مراتب الأنبياء أدنى منه إلى مراتب العظماء (٣). ومع أنه يرى أن عمر كان يهتم فى فتاواه وأحكامه بروح النص لا بحرفيته (٤) ، فإنه يخالفه فى إجرائه الطلاق المثلّث ثلاث طلقات

---

(١) انظر ص / ٤٩ وما بعدها من الجزء الثانى من الكتاب .
(٢) الفاروق عمر / ١ / ١٨ وما بعدها .
(٣) ١ / ٢٠ .
(٤) ٢ / ٢٨٢ .

بحيث لا يجوز للرجل بعدها مراجعة زوجته إلا إذا تزوجت رجلاً غيره ثم طُلّقت منه . وهو يقول فى ذلك إن كثيرين قد خالفوا عمر فى اجتهاده هذا قديمًا وحديثًا ، وإن هذا لا يضيره ولا يضيرهم فى شىء ، ففتوى عمر ليست لها صفة الإلزام ، إذ هى مجرد اجتهاد : إن كان صوابا فمن الله ، وإن كان خطأ فهو منه [(١)]. كما رأينا من قبل كيف أعلن هيكل رضاه عن موقف أبى بكر من خالد حين قتل مالكَ بن نويرة وتزوج امرأته فى الحرب ، وهو الموقف الذى لم يعجب عمر ، إذ كان من رأيه معاقبة خالد على صنيعه ذاك . وقد ظل عمر على رأيه هذا إلى أن واتته الفرصة بعد تولّيه الخلافة عندما أتى خالد بعض التصرفات التى لم يرض عنها عمر فعزله من قيادة الجيش واستدعاه بعد ذلك للمساءلة . ومع ذلك فإن هيكل يبرّر تصرف عمر هذا بأن رئيس الدولة عندما يرى استحالة التعاون مع أحد من رجالها لانعدام الثقة بينهما فإن من حقه عزله كى يستمر دولاب أمور الدولة فى الدوران دون مشاكل . وفى نفس الوقت فقد أثبت خالد ، كما يؤكد هيكل ، حُسْنَ إسلامه بعدم محاولته عصيان الخليفة أو إثارة القلاقل بين صفوة الجند رغم الانتصارات والأمجاد العظيمة التى تمت على يديه لمصلحة الإسلام [(٢)].

---

(١) ٢ / ٢٨٣ ـ ٢٨٦ .

(٢) انظر تحليل هيكل للقضية كلها من ص/ ٢٧٢ إلى ص / ٢٨٦ من الجزء الأول من الكتاب .

هذا ، وفى الكتاب مناقشة لبعض الآراء الاستشراقية المتعلقة بسياسة عمر ، وسنقف هنا عند واحد منها لنرى كيف تناوله هيكل وماذا قال فيه ، فحين فُتحت بيت المقدس وذهب عمر لتسلّم المدينة وكتابة عهد الصلح على حسب اقتراح أهلها حان وقت الصلاة وعُمَر مع الأسقف صفرنيوس داخل كنيسة القيامة فعرض عليه الأسقف أن يصلى بداخلها لأنها من بيوت الله ، غير أن عمر رفض ذلك خوفا من أن يأتى المسلمون من بعده ويُخْرِجوا النصارى منها بحجة صلاة خليفتهم فيها ، وفضّل أن يؤدى صلاته فى مكان قريب من الصخرة شيّد المسلمون بعد ذلك فيه مسجدا فخما هو المسجد الأقصى . ورغم نبل هذا الموقف الذى لا يوجد له ، فيما نعلم ، نظير فى تاريخ الفاتحين ، فإن بعض المستشرقين [١] يحاولون أن يطمسوا هذا التصرف النبيل بالادعاء بأنه ، رضى الله عنه ، « إنما اعتذر عن الصلاة بكنيســة القيامــة لما كان بها من صور وتماثيل وأنه أبدى العذر الذى ذكرناه سترا للسبب الحقّ وحرصا على ألا يجرح شعور البطريق الشيخ » . وقد ردّ هيكل بأن وجود الصُّوَر والتماثيل فى كنيسة المهد ببيت لحم لم يمنع عمر أن يصلى فيها عندما كان فى زيارتها مع صفرنيوس نفسه . ولكنه ، لخشيته من استيلاء المسلمين عليها بعده ، كتب للنصارى عهداً خاصا بها يحفظها عليهم . ومن قبل فإن وجود الأصنام والأوثان بالكعبة لم

(١) لم يسمّ هيكل من ذهب من المستشرقين إلى هذا التفسير .

يمنع الرسول عليه السلام فى عمرة القضاء من الطواف بالبيت وصلاة الظهر فيه مع مئات المسلمين الذى كانوا معه حينئذ [١].

ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن عمر لم يكن بالذى تدفعه اعتبارات المجاملة الكاذبة إلى أن يقول ما قال ، وهو الذى كان يعبّر بملء حريته عن رأيه وشعوره فى حضرة الرسول الكريم (وهو ليس إلا واحداً من أتباعه)حتى لو كان يخالف ما يراه عليه السلام أو يشعر به ، فهل يكون لصفرنيوس عنده ، بعد أن أصبح هو خليفة ، من الهيبة أو المكانة ما يمنعه من أن يقول ما فى نفسه ؟ ثم ما الذى كان يمنع عمر ، لو أراد ، من أن يستولى على الكنيسة بِرُمَّتها ويزيل ما فيها من أوثان ؟ أم هل كان يصعب عليه على أقل تقدير أن يطلب تغطية الصور والتماثيل التى تقابله وهو مولٍّ وجهه شطر المسجد الحرام إن كان هناك شىء منها فى ذلك الاتجاه ؟

ونختم الكلام فى كتاب « الفاروق عمر » بالإشارة إلى قول هيكل إن « الإسلام إمبراطورى فى جوهره ، وإمبراطوريته روحية قبل كل شىء » ، فهو ، طيب الله ثراه ، يريد بقوله هذا أن الإسلام ليس ديناً عربيا بل دعوة عالمية شاملة لا تفرق بين الألوان والأجناس واللغات ولا تجعل للعرب ولا لغير العرب فضلا على غيرهم إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وأنه دين ودولة ، وأن الأساس الذى تقوم

(١) ١ / ٢٥٨ وما بعدها .

عليه دولته هو أساس الإخاء والمساواة وحرية العقيدة [١]. أقول هذا حتى لا يظن أحد أن فى وصف الإسلام بأنه دين إمبراطورى ما ينال منه . كما يرى هيكل أن بروز الشعور القوى وتطلع كل أمة من الأمم التى كانت تكوّن هذه الإمبراطورية إلى مكان السلطان منها أو على الأقل إلى الاستقلال عنها هو الذى أدى إلى انفراط عِقْدها مع الأيام [٢].

ثم ها نحن أولاء نصل إلى كتاب « عثمان بن عفان » ونقف عند بعض ما جاء فيه مثلما فعلنا مع الكتب الثلاثة السابقة : فمن ذلك أن هيكل ، فى حديثه عن شخصية عثمان وما يتميز به من سجايا ، يقول إنه قد شهد معظم غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكنه لم يكن من أصحاب البطولات الحربية بل كان شأنه فى ذلك شأن رجل من المسلمين ليس فى مقدمتهم ولا فى مؤخرتهم[٣]. كذلك فإنه يرى أن عطف عثمان على ذوى قرباه «لم يكن من ضعف الشيخوخة بعد ولايته إمارة المؤمنين كما ظن بعضهم بل كان بعض خلقه » ، فهو مثلاً قد خبأ عنده عبد الله بن سعد بن أبى السرح أخاه من الرضاع يوم فتح مكة ، وكان الرسول عليه السلام قد أهدر دمه لأنه بعد أن دخل الإسلام فى مكة وأصبح من كُتّاب الوحى لرسول الله عاد فارتدّ وأخذ يحارب الدين الجديد

(١) ٢ / ٢٧٠ ، ٣٤٢ ـ ٣٤٣ .
(٢) ٢ / ٣٤٧ .
(٣) بين الخلافة والملك ـ عثمان بن عفان / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٦٤م/٤٩ .

حربا معنوية مؤذية قِوَامها الادعاء بأنه كثيرا ما عبث بالنص القرآنى . ثم لما اطمأن الناس بمكة أخرجه عثمان من مخبئه وذهب به إلى رسول الله وتشفّع فيه عنده فأمّنه صلى الله عليه وسلم بعد أن سكت وقتا لعل أحدا من الحاضرين يقوم فيقتله قبل أن يقبل شفاعة عثمان ويعفو عنه (١) .

وهناك فصل فى الكتاب هو أطول فصوله(٢) موضوعه « الفتح فى عهد عثمان » ، وفيه يتتبع المؤلف فتوح الإسلام فى عهد ذلك الخليفة الشيخ (٣) فى شرق فارس وجُزُر شرقى البحر المتوسط وشمال إفريقيا . وهو فصل مهمّ شديد الأهمية ، إذ يتحدث عن جانب من حكم عثمان لا يلتفت إليه عادةً كثير من القراء لانشغالهم بأحداث الفتنة فى عهده رضى الله عنه ، تلك الأحداث التى انتهت بمقتله المأساوى الذى لم يرحم شيخوخته ولا حياءه ولا أياديه البيضاء فى الإسلام .

وشىء آخر مهم يغيب عن بال الكثيرين قد أبرزه هيكل فى الكتاب الذى نحن بصدده ، وهو أن المسلمين كانوا راضين عن عثمان غاية الرضا فى السنوات الأولى من خلافته ، فقد كان عادلاً أشد العدل دون قسوة ، وليّنا فى غير ضعف . ثم إنه قد زاد عطاء

(١) المرجع السابق / ٥١ ـ ٥٢ .

(٢) من ص / ٦٥ إلى ص / ١١٨ .

(٣) تولى عثمان الخلافة وهو يناهز السبعين .

كل فرد منهم ، فضلا عن إطلاقه حرية الحركة والتنقل لمن يريد من كبار الصحابة الذين كان عمر يمنعهم من مغادرة المدينة والانسياح فى البلاد خشية أن تفتنهم الدنيا فيُفْتَن الناسُ بهم [1] .

ولقد مات هيكل ، رحمه الله ، دون أن يكمل كتابه فعُهِد إلى د. جمال الدين سرور بأن يضيف إلى ما أنجزه هيكل فصلاً يتحدث عن مقتل عثمان ، فبلغ الكتاب بفهرس موضوعاته مائة وخمسين صفحة ليس إلا ، وهو أصغر كتاب فى الكتب الأربعة التى عرضنا لها هنا .

ومع أن هيكل قد مات قبل أن يتم كتابه عن « عثمان » ، بله أن يضع ما كان ينوى وضعه من الكتب التى تدرُس العصور التى تلت عهده والتى مرّت على الإمبراطورية الإسلامية ورأت ازدهارها ثم ضعفها وانحدارها وأخيرا أفولها ، فإنه فى سنة ١٩٤٢م ، أى فى أثناء اشتغاله بدراساته الإسلامية التى تناولناها فى هذا الفصل، كتب بعض البحوث عن «الإمبراطورية الإسلامية» وغيرها من الموضوعات ونشرها فى بعض الصحف ثم جمعها بعد ذلك ابنه الأستاذ أحمد هيكل فى سنة ١٩٦٤م فى كتاب بعنوان « الإمبراطورية الإسلامية » .

وفى هذا المبحث يؤكد مفكّرنا أن قيام هذه الإمبراطورية فى خمس عشرة سنة وعلى هذه الرقعة الواسعة من الأرض وبقاءها طيلة

---

(١) من ص / ١٢٢ إلى ص / ١٢٤ .

هذه القرون هى معجزة تاريخية [١]. وهو يرجع هذه المعجزة إلى مبعث النبى ودعوته وإيمان العرب بأن عليهم رسالة يبلغونها للعالم هى رسالة الحرية والإخاء والمساواة فى أسمى صورها ، أى أن المطامع المادية الصرْف لم تكن هى التى تحرّكهم . كما أنهم جعلوا التسامح الدينى والعدل أساس حكمهم ، وأباحوا للناس حرية الفكر والقول فأقبلوا على الدخول فى الإسلام فى حماسة [٢].

ولكنْ للأسف انقلبت هذه الحرية مع مرور الزمن جمودا وذبلت قِيَمُ الإخاء والمساواة أمام استبداد السلاطين مما أدى إلى القضاء على هذه الإمبراطورية العظيمة ، لأن الإمبراطوريات لا تقوم على أساس المادة أو المظهر الحيوانى (كما يقول) بل على أساس من الفكر ونوره . ومع ذلك فهيكل يعتقد بقوة أن هذه الإمبراطورية ستُبعَث من جديد [٣].

ويمضى كاتبنا إلى التفصيل قائلا إن الحكم فى عصر الخلفاء الراشدين كان أشبه بالنظام الجمهورى ، على حين أنه فى العصرين الأموى والعباسى كان يشبه النظام الملكى ، وإن المسلمين قد هضموا النظامين كليهما ورضوا بهما ، فليس فى الإسلام صورة محددة لنظام الحكم ، إلا أن ثَمَّةَ قواعد جاء بها الدين الحنيف كانت هى أساس التنظيم السياسى . وهذه القواعد هى الإيمان

---

(١) انظر محمد حسين هيكل / الإمبراطورية الإسلامية / وزارة التربية والتعليم بجمهورية مصر العربية / ١٩٨٤م ـ ١٩٨٥م / ١١ .

(٢) المرجع السابق / ١٣ ـ ١٨ . (٣) السابق / ١٩ ـ ٢٠ .

بوحدانية الله ، والأخوة والمساواة بين الناس ، وحرية العقيدة (١) .

ثم تطورت الأمور وانتقل الحكم من النقيض إلى النقيض فأصبح حكما مطلقا كما كان عند الفرس والرومان ، وأثر ذلك فى تطبيق مبادئ الإسلام فعاد الرقيق إلى وضعهم قبله ، وأشبه وَضْعُ المرأة وَضْعَها فى بلاد فارس والرومان ، فضُرِب عليها الحجاب وأصبحت وسيلة للمتعة الجسدية فقط . وبهذا زالت فكرة الإمبراطورية الروحية التى كانت تربط المسلمين بآصرة التقوى والإيمان بالله وحده ، وأخذوا يتحاربون فيما بينهم بعد أن كانوا إخوة متحابين ، وسادتهم الأنانية فلم يعودوا يفكرون فى الفقراء رغم أصالة العنصر الاشتراكى فى الإسلام مثل العنصر الفردى سواء بسواء . ولم يَصْحُ المسلمون إلا منذ النصف الأخير من القرن الثامن عشر حينما اصطدموا بالحضارة الأوروبية الغازية وأخذوا يتساءلون عن السبب فى تخلفهم ، وهل هو الإسلام يا تُرَى؟ (٢)

وفى أثناء تناوله للمبادئ التى تقوم عليها الحضارة الإسلامية يشير هيكل إلى وسطية الإسلام وأنه فى الوقت الذى يُقِرّ فيه المِلْكية والنظام الأُسْرِى والميراث نراه لا يوافق المذهب الفردى فى الاقتصاد

---

(١) ص / ٢٧ وما بعدها .
(٢) ص / ٣٦ ـ ٣٩ .

على كل ما فيه ، إذ يوجب على الجماعة أن تكفل للفرد حياته وتعليمه وصحته وحريته ، وهو ما يسمى الآن بحقوق الإنسان ، التى هى فى الإسلام واجبات لا حقوق ، بمعنى أنه لا يجوز لصاحبها التفريط فيها وإلاّ باء بسخط الله وحُوسِب على ذلك يوم القيامة (١) .

على أن الإسلام فى ذات الوقت لا يشبه الشيوعية ، إذ هى تنكر المِلْكية والأُسْرة والميراث وتدّعى أنها ستحقق المساواة التامة بين الناس فى حظوظهم المادية ، هذه المساواة التى يقول مؤلفنا إنها حتى لو تحققت فإن ذلك لن يقضى على الظلم لأن الناس يتفاوتون فى حظوظهم من الصحة والمرض ، ومن القدرة والعجز ، ومن تذوق الحياة وعدمه ... إلخ . أما الاشتراكية الإسلامية فهى تجمع بين إطلاق نشاط الفرد الذاتى وحقه فى الاستمتاع بثمراته وبين حقّ الغير فى هذه الثمرات . كما حارب الإسلام المِلْكيات الضخمة التى تؤدى عادة إلى الطغيان والظلم ، وذلك من خلال تحريم الربا وتقسيم التركة بين الوارثين وكذلك الزكاة ، التى لم يجعلها الإسلام تشريعاً فحسب بل أمراً تعبديا أيضا كى يؤديها المسلم بنفس راضية (٢) .

ويقول هيكل أيضا إن الدولة تحاول الآن أن تقوم بواجباتها نحو الطبقات الفقيرة، وإنْ أقامتها على أساس مدنى ، وهو ما لا عيب فيه،

---

(١) ص / ٤٤ وما بعدها .

(٢) ص / ٦٣ وما بعدها .

فقد قال الرسول : « أنتم أعلم بشؤون دنياكم » . والدولة لا تصادر الملكية الخاصة ولا تلغى الأسْرة ولا الميراث ، ولكنها تؤمم المرافق العامة . وسوف يكون هذا الاتجاه ، فى رأيه ، وسيلة سريعة الأثر فى تقدم الأمم الإسلامية ورقيها [١] .

وفى كلامه عن المبادئ التى ينهض على أساسها نظام الحكم فى الإسلام ، وهى مبادئ الإخاء والمساواة والحرية ، يؤكد كاتبنا أن الخلفاء الراشدين كانوا يصلون إلى الحكم عن طريق الاختيار والمبايعة ، وكانوا مسؤولين أمام الرأى العام ، الذى كان يراقب تصرفاتهم . وإذا كانوا لم يحددوا لأنفسهم مدة فى الحكم فقد كان السبب فى ذلك هو ظروف الفتح والحروب الداخلية والخارجية . وعلى أية حال فالأساس الذى يجب أن يكون للحكم الإسلامى المقبل هو حكم الشعب نَفْسَه بنفسه عن طريق التمثيل الصحيح والمناقشة الحرة واحترام رأى الأغلبية . ويجب على المسلمين الدفاع عن المبادئ التى قررها دينهم بكل ما لديهم من قوة ، أما الحكم المطلق الذى سادهم فى بعض فترات تاريخهم فليس من الإسلام فى شىء [٢] .

وهو فى هذا الصدد يؤكد أن حرية الرأى والتعبير وحرية العقيدة وإقامة الشعائر ، اللتين أصبحتا من مقررات العصر الحديث ، تتفقان

---

(١) ص / ٦٧ وما بعدها .

(٢) ص / ٩٩ ـ ١٢٠ .

مع مقررات الإسلام تماما . ولكنه يستدرك قائلا إن الإسلام يأمر بقتل المرتد ، بيدَ أنه ليس بِدْعا فى ذلك لأن المسيحية تفعل الشيء نفسه مع من ينسلخون عنها . أما فيما عدا هذا فالإسلام يرفض الإكراه فى الدين ويقرر أن الصالحين من أهل الكتاب ، بما فيهم المجوس ، لهم ثوابهم عند ربهم . وإذا كانت هناك حروب مذهبية فى الإسلام فى بعض العهود فقد شهدت المسيحية أمثالها ، ولكن الناس اقتنعوا بعد ذلك أن العقائد لا تُفْرَض بالقوة ، وهو ما أدى إلى إقرار الدساتير لحرية التدين واحترام كل فريق أديان غيره من البشر . وعلى أية حال فالمسلمون ينظرون إلى الأديان الكتابية نظرة تقديس (١).

ونود أن نتوقف هنا برهة لنعقّب على بعض ما جاء فى الفقرة الأخيرة . ذلك أنه إذا كان المعروف فى الفقه الإسلامى القديم أن المرتدّ يُقْتَل لمجرد تغيير عقيدته فإن لعدد من الفقهاء فى العصر الحديث موقفا آخر فى هذه المسألة ، إذ لا يرون مجرد تغيير الشخص لعقيدته مبرّرا لإقامة الحد عليه ما دام لم ينضم إلى أعداء الدين والدولة ويظاهرهم على المسلمين . أى أن العقوبة فى هذه الحالة هى عقوبة الخيانة العظمى أو ما يشبهها لا عقوبة الارتداد فى ذاته . ومن هؤلاء العلماء الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا والشيخ عبد العزيز جاويش والشيخ شلتوت والشيخ عبد المتعال الصعيدى والأستاذ جمال البنا . وقد كنا نتوقع أن يعرض هيكل على الأقل

---

(١) ص / ١٣٧ ـ ١٤٢ .

لهذا الرأى الجديد ويناقشه حتى لو انتهى إلى رفضه والقول مع القائلين بقتل المرتد .

كذلك فإن قوله إن الإسلام ينظر إلى الأديان الكتابية نظرة تقديس هو قول يحتاج إلى إيضاح ، فنحن فعلا نؤمن بالتوراة والإنجيل ونؤمن بموسى وعيسى عليهما السلام . لكن أين التوراة والإنجيل اللذان نؤمن بهما ؟ أهما اللذان فى أيدى القوم الآن ؟ هذا ما لا يقوله مسلم ، فقد صرح القرآن بما لا يقبل التأويل بأن هذين الكتابين قد دخلهما العبث والتحريف والإضافة والحذف ، وهو ما أثبتته الدراسات العلمية التى قام بها كثير من العلماء من أهل الكتاب والمسلمين على السواء . نحن إذن لا نقدس اليهودية ولا النصرانية الموجودتين اليوم ، بيد أننا لا نجبر أحدا على تغيير دينه بل نحترم عقائد الآخرين وشعائرهم ومعابدهم إلى آخر مدى .

والإسلام لم يقل إن الصالحين من أهل الكتاب لهم ثوابهم عند ربهم بإطلاق ، بل بشرط إيمانهم بالله واليوم الآخر ، وهذا لا يتم إلا بالإيمان بالرسل جميعًا وعدم التفريق بينهم [(١)]، أى أن الذى لا يؤمن بمحمد لن يقبل الله منه . أما آيات سورة « المائدة » التى تتحدث عن النصارى ومودتهم نحو المسلمين ، فهى تشير إلى فريق بعينه منهم جاءوا إلى النبى عليه السلام واستمعوا إلى تلاوة

(١) النساء / ١٥٠ ـ ١٥١ مثلا .

القرآن بقلوب مفتوحة فبكت منهم العيون واخضلّت من الدمع لحاهم وانطلقت ألسنتهم تعلن الإيمان بالإسلام ورسوله ، ومن ثمّ استحقوا أن يقول القرآن عقب ذلك عنهم : « فأثابهم الله بما قالوا جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين »[1] . نقول هذا ، ونقول معه أيضا إنه ليس من حقنا إكراهُ أحدٍ على ترك دينه والدخول فى ديننا ، فهذا غير ذاك تماما .

هذا ، ولا داعى لمناقشة ما قاله هيكل فى آخر هذه المباحث من أن الإيمانَ بحرية الرأى والعقيدة والتحررَ من الفقر والخوف سوف ينتشران ويستقران فى نفوس البشر جميعا وسوف يقضيان من تلقاء نفسهما على فكرة الاعتداء فيعيش الناس بذلك إخوانا متحابين ، إذ سبق أن بيّنّا أننا لا نشارك المؤلف ، رحمه الله ، هذا التفاؤل الذى لا يتسق مع ما نعرفه من طبيعة الإنسان وما فيها من غرائز وشهوات ومخاوف وأحقاد ومطامع لا يمكن أن يفلت من إسارها . والسلام الذى يتخيل هيكل أنه سيسود فى مقبل الأيام إنما يصحّ إذا استبدلنا بالمستقبل على الأرض الجنةَ فى الدار الآخرة . أما هنا فى هذه الدنيا فلن تبرح حياة البشر تمزقها الخلافات والخصومات والحروب . سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً . لكن هذا لا يعنى أن نستسلم لهذه الأوضاع ، بل علينا أن نقف فى وجهها ونخفف من غُلَوائها بكلِّ ما لدينا من طاقة .

---

(١) المائدة / ٨٢ ـ ٨٥ .

وفى ختام هذا الفصل قد يكون من الأوفق أن نقول كلمة فى الترجمة التى قام بها الدكتور هيكل لبعض النصوص الاستشراقية من الإنجليزية والفرنسية . وسوف أجتزى بمثالين فقط : الأول نصٌ من كتاب " La Vie de Mahomet " للمستشرق الفرنسى إميل درمنجم ، والآخر نصّ من كتاب واشنطون إرڤنج الكاتب والسياسى الأمريكى " Mahomet and His Successors " .

وأسلوب هيكل فى الترجمة لا يقل عن أسلوبه فى التأليف جزالة ونصاعة وتدفقا ، كما أن الترجمة من هذين الكتابين هى بوجه عام ترجمة صحيحة . ومع ذلك فالأمر لا يخلو من بعض الملاحظات الصغيرة : فالمستشرق الفرنسى مثلا يقول إن البيزنطيين الذى هاجموا الإسلام لم يكلفوا أنفسهم مؤنة دراسته « فيما عدا Jean Damascène ربّما » [١] ، ولكننا فى ترجمة الدكتور هيكل نجد أن كلمة « ربما » قد سقطت وأنه قد نقل اسم الشخص المذكور إلى العربية كما هو بنطقه الفرنسى : « چان داماسين » ، وفاته أن المقصود هو « يوحنا الدمشقى » نفسه . كل ما هنالك أن درمنجم قد ترجمه إلى الفرنسية ، فكان ينبغى أن يعيده هيكل إلى ثوبه العربى. ومن ذلك أيضا قول مؤلفنا : « ولم يحارب الكتّاب والنظّامون [٢] مسلمى الأندلس إلا بأسخف

(1) Emile Dermenghem, La Vie de Mahomet, Librairie Plon, Paris, 1929, P. 135 .

(٢) « النظّامين » فى الطبعة التى بين يدىّ ، ولكنى لما رجعت إليها فى الطبعة الأولى وجدتها مرفوعة ، مما يدل على أنها غلطة مطبعية . والمقصود الكتّاب والنظّامون الغربيون .

المثالب » [١]، بينما الأدق أن نقول : « ولم يحارب الكتابُ والشعراءُ [٢](les trouvères) المسلمين (les Sarrasins)... »[٣]. وبالمثل فإن عبارة « أكلتْ منه الخنازير » (أى من جثة الرسول عليه الصلاة والسلام كما يدعى كذّابو أوروبا فى العصور الوسطى) هى فى الأصل الفرنسى «أكلته الخنازير» (أى أكلته كله لا بعضا منه فقط)[٤]. كما أنه قد كرّر كلمة « الحياة » فى الجملة التالية : « وقد ظلت حياة الأحقاد والخرافات قوية متشبثة بالحياة » على نحو أفسد تركيبها . ثم كيف تتشبث الحياة بالحياة ؟ كذلك نجده يترجم عبارة درمنجم التى تقول : " Innocent III traîta un jour Mahomet d' Antéchrist " هكذا : « وقد وصف إنوسان الثامن محمدا يومًا بأنه عدوّ المسيح » [٥]، بينما المفروض أن نقول « إنوسان الثالث » و « المسيح الدجّال » . وفضلا عن ذلك فإن بعض الكلمات والجمل الموجودة فى النص الفرنسى قد اختفت فى الترجمة العربية .

أما النص الآخر الإنجليزى فترجمته أفضل ، إذ ليس فيها إلاّ

---

(١)حياة محمد / ١٠ .

(٢) جاء فى معجم " Larousse " أن الـ " trouvères " يشبهون شعراء التروبادور وأنهم قد ظهروا مثلهم فى العصور الوسطى فى فرنسا . كل ما هنالك أن اللهجة التى كانوا يستخدمونها تختلف عن لهجة شعر التروبادور .

(٣) الكلام هنا عن المسلمين بوجه عام لا الأندلسيين منهم بالذات .

(٤) ص / ١٠ من « حياة محمد » ، وص / ١٣٥ فى النص الفرنسى .

(٥) ص / ١١ من « حياة محمد » ، وص / ١٣٦ فى النص الفرنسى .

قول هيكل : « وقد أُلهم محمد مذهب الجبرية من وحى الساعة»[١]، الذى لعلّه يكون أقرب إلى الدقة لو جاء هكذا : « لقد كان مذهب الجبر أحد تلك الأوْحَاء [٢] التى جاءت محمداً فى وقتها المناسب : "One of those timely revelations to Mahom- et"[٣]، وكذلك ترجمته العبارة التالية : " What doctrine could hav been devised more calculated to hurry forward ... a set of ignorant and predatory soldiers ...? "[٤] على النحو التالى: « أية عقيدة يمكن أن يصورها صاحبها أدق من هذا التصوير ليدفع بها للغزو طائفة من الجنود الجهلاء الأغرار دفعاً وحشيا ...؟ »[٥] مع أن الفعل " to devise " معناه « يخترع » وليس « يصوّر » .

ومهما يكن الحال فهذه مجرد هنات صغيرة فى ذلك الصرح الفخم الهائل لمتمثل فى كتابات هيكل رحمه الله .

---

(١) الأوْحَاء : جمع « وَحْى » .

(٢) حياة محمد / ٥٤٩ .

(3) Washington Irving, Mahomet and His Successors, The University of Wisconsin Press, 1970, P. 212 .

(٤) المرجع السابق / ٢١٣ .

(٥) حياة محمد / ٥٥٠ .

المصادر والمراجع

ـ د. إبراهيم عوض / فى الشعر العربى الحديث ـ تحليل وتذوق/ مكتبة زهراء الشرق / القاهرة / ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .

ـ د. إبراهيم عوض / ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته ؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية / المطبعة النموذجية / القاهرة / ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م .

ـ إسماعيل أدهم ود. إبراهيم ناجى / توفيق الحكيم / دار سعد مصر / القاهرة / ١٩٤٥م .

ـ أنور الجندى / محاكمة فكر طه حسين / دار الاعتصام / القاهرة / ١٩٨٤م .

ـ د. حمدى السكوت ود. مارسدن چونز / محمد حسين هيكل ـ ببليوجرافيا / قسم الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية والمجلس الأعلى للثقافة / القاهرة / ١٩٩٦م .

ـ سامح كريم / طه حسين فى معاركه الأدبية / كتاب الإذاعة والتلفزيون (العدد ٢١) / القاهرة .

ـ سامى الكيالى / مع طه حسين / ط٢ / سلسلة « اقرأ » (العدد ١١٢) / القاهرة .

ـ د. سهير القلماوى / ذكرى طه حسين / سلسلة « اقرأ » (العدد ٣٨٨) / القاهرة / ١٩٧٤م .

- د. شوقى ضيف / مع العقاد / سلسلة « اقرأ » (العدد ٦٢٩) / القاهرة / ١٩٦٤م .

- د. طه حسين / تجديد ذكرى أبى العلاء / ط٢ / مطبعة المعارف ومكتبتها / القاهرة / ١٩٢٢م .

- طه عمران وادى / الدكتور محمد حسين هيكل ـ حياته وتراثه الأدبى / مكتبة النهضة المصرية / القاهرة / ١٩٦٩م .

- د. عبد العزيز شرف / محمد حسين هيكل فى ذكراه / سلسلة « اقرأ » (العدد ٤٣١) / القاهرة / ١٩٧٨م .

- د. عبد العزيز شرف / محمد حسين هيكل والفكر القومى المصرى / الهيئة العامة لقصور الثقافة ـ كتاب الثقافة الجديدة ٣٨/ القاهرة / أكتوبر ١٩٩٦م .

- د. عبد المحسن طه بدر / تطور الرواية العربية الحديثة / دار المعارف / القاهرة / ١٩٦٣م .

- فتحى رضوان / عصر ورجال / مكتبة الأنجلو المصرية / القاهرة / ١٩٦٧م .

- د. محمد حسين هيكل / الأدب والحياة المصرية / كتاب الهلال (العدد ٥٠٤) / القاهرة / ديسمبر ١٩٩٢م .

- د. محمد حسين هيكل / الإمبراطورية الإسلامية / وزارة التربية والتعليم بجمهورية مصر العربية / ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥م .

- د. محمد حسين هيكل / بين الخلافة والملك ـ عثمان بن عفان / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٦٤م .

- د. محمد حسين هيكل / تراجم مصرية وغربية / كتاب روز اليوسف / القاهرة / ١٩٥٤م .

- د. محمد حسين هيكل / ثورة الأدب / الهيئة العامة لقصور الثقافة - كتابات نقدية ٥٨ / القاهرة / ديسمبر ١٩٩٦م .

- د. محمد حسين هيكل / حياة محمد / ط٩ / مكتبة النهضة المصرية / القاهرة / ١٩٦٥ - ١٩٦٦م .

- د. محمد حسين هيكل / زينب - مناظر وأخلاق ريفية / مكتبة النهضة المصرية / القاهرة / ١٩٦٣م .

- د. محمد حسين هيكل / الشرق الجديد / مكتبة النهضة المصرية / القاهرة / ١٩٦٣م .

- د. محمد حسين هيكل / شرق وغرب / كتاب الهلال (العدد ٥١٩) / القاهرة / مارس ١٩٩٤م .

- د. محمد حسين هيكل / الصديق أبو بكر / مطبعة مصر / القاهرة / ١٣٦١هـ .

- د. محمد حسين هيكل / الفاروق عمر / مطبعة مصر / القاهرة / ١٣٦٤هـ .

- د. محمد حسين هيكل / فى أوقات الفراغ / ط٢ / مكتبة النهضة المصرية / القاهرة / ١٩٦٨م .

ـ د. محمد حسين هيكل / في منزل الوحى / ط٨ / دار المعارف / القاهرة / ١٩٨٦م .

ـ د. محمد حسين هيكل / مذكرات الشباب / المجلس الأعلى للثقافة / القاهرة / ١٩٩٦م .

ـ د. محمد حسين هيكل / مذكرات فى السياسة المصرية / مكتبة النهضة المصرية / القاهرة / ١٩٥١م .

ـ د. محمد حسين هيكل / هكذا خُلِقَتْ / مطابع الأخبار / القاهرة .

ـ د. محمد حسين هيكل / ولدى / ط٣ / مكتبة النهضة المصرية / القاهرة / ١٩٦٦م .

ـ د. محمد سيد محمد / هيكل والسياسة الأسبوعية / الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ سلسلة « تاريخ المصريين » (العدد ٩٨) / القاهرة / ١٩٩٦م .

ـ د. محمد الدسوقى / طه حسين يتحدث عن أعلام عصره / سلسلة « اقرأ » (العدد ٥٧٨) / القاهرة .

ـ محمد السيد شوشة / ٨٥ شمعة فى حياة توفيق الحكيم / دار المعارف / القاهرة .

ـ محمود طاهر حقى / عذراء دنشواى / وزارة الثقافة والإرشاد القومى / القاهرة / ١٩٦٤م .

- ملخصات الأبحاث الخاصة بـ « ندوة محمد حسين هيكل وجهود الاستنارة المصرية » / المجلس الأعلى للثقافة / القاهرة / ديسمبر ١٩٩٦م .

- نبيل فرج / محمد حسين هيكل فى عيون معاصريه / الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية والمجلس الأعلى للثقافة / القاهرة/ ١٩٩٦م .

- نبيل فرج ومحمد السيد عيد / وداعا توفيق الحكيم / وزارة الثقافة ـ المركز القومى للآداب / القاهرة ١٩٨٨م .

- Emile Dermenghem, La Vie de Mahomet, Librairie Plon, Paris, 1929 .

- Washington Irving, Mahomet and His Successors, The University of Wisconsin, 1970 .

الفهـرس

المقدمة ٥

مذكرات الشباب ٧

هيكل روائيا ٦٧

أدب الرحلة عند هيكل ١٢٧

هيكل الناقد ١٨٥

إسلاميات هيكل ٢٢٣